الملك

عبد العزيز آل سعود

بطل الجزيرة العربية

والمثل الرائع للعبقرية والوفاء



أحمد محمد الشنواني



المغفور له
الملك عبد العزيز آل سعود

إهـــــداء

إلى خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود راعي النهضة السعودية وقائد مسيرة التقدم والتنمية في المملكة . .

أرفع كتابي هذا عن سيرة والدكم العظيم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بأعمق آيات الاحترام والتقدير والعرفان ، مؤكداً بأن قبول جلالتكم لهذا الإهداء المتواضع ليسبغ عليَّ أعظم آيات التشريف . .

إن كتابي هذا ليس إلا ثمرة من ثمار عهد والدكم الزاهر الميمون وإن أي محاولة للإحاطة بإنجازات الملك عبد العزيز والإلمام بعمق تأثير هذه الإنجازات في تطور المملكة السعودية ونموها هي محاولة مقدر لها النجاح الجزئي على أحسن تقدير ، ذلك لأن شخصيته الفريدة وقدراته القيادية الفائقة لا تقتصر على ما حققه للمملكة من مكاسب مادية ومعنوية ، مباشرة وغير مباشرة ، بل هي تتسع فتشمل أيضا القضايا الأخلاقية والإنسانية ، فقد استطاع أن يفرض قيماً جديدة ، وأخلاقاً جديدة تنتمي إلى الحضارة الإسلامية الزاهرة . .

إن تاريخ والدكم العظيم الملك عبد العزيز آل سعود تاريخ رائع ومتصل . . من النضال . . والجهاد . . والكفاح . . والإيمان . . والإصلاحات الجذرية ، لبناء أمة ، وبعث شعب ، وتشييد حضارة ، وحياة خصبة باهرة كانت كلها عطاء وبذلاً وتضحية من أجل عزة العروبة والإسلام . .

فلقد كان الملك عبد العزيز رحمه الله – عنواناً للدين الإسلامي بما علم وعمل وقدم ، فجزاه الله خير الجزاء ورفع منزلته مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا . .

المؤلف

أحمد محمد الشنواني

فهرس الكتاب

مقدمة الكتاب

الحمد لله الحكم العدل، والصلاة والسلام على عبده ورسوله (ﷺ) وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد..

يحفل التاريخ الإسلامي بقصص للكفاح والبطولة، ترقى في بعض أحداثها إلى مستوى الملحمة والأسطورة، وتبهر من يتابعها بما تزخر به من إيمان وشجاعة وقدرة خارقة على مواجهة الأخطار.. ومن أجّل وأروع هذه القصص، قصة حياة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية، وباني مجدها وعظمتها، ورائد نهضتها الحديثة المباركة.. إنها حياة فذة.. حفلت منذ بدايتها حتى نهايتها بالبطولة والتضحية، وبالإيمان والصبر، وبالجهد والنضال والمعاناة، نعرضها في فصول هذا الكتاب لنستخرج منها كثيرا من العبر والعظات والحكمة، ونستهدي بها في سعينا المعاصر إلى بناء مجد الأمة العربية.

....

إن الحاكم الذي يستحق الثناء العاطر والإجلال والإكبار هو الذي يمتلك زمام أمره، ويعمل لصالح أمته، ويتخطى الأزمات والشدائد بالرأي الصائب، والتفكير السديد، والخطة المُحكمة، والتخطيط السليم، فيختار لها المنهج القيّم الواضح المدروس المجمع على صلاحه ليسير عليه، وليرسم لها طريق الرقي والعزة والحياة الكريمة، فتعيش سعيدة في رخاء دائم، وراحة بال، وتتغلب على الأزمات التي تعترض حياتها، فتتفرغ للبناء، والتشييد بجد واجتهاد.

والحاكم الذي نتحدث عنه في هذا الكتاب هو «الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود» الذي اتخذ له منهجا وقانونيا ودستورا من أول ما عزم على الجهاد، فحالفه التوفيق، ولازمه نصر الله الذي أوى إليه، فنشر عنايته عليه، وأيده في كل أعماله، فأعقب القول بالعمل، وجعل الله وحبه رائده في كل خطوة من خطواته:

(إنني والله لا أحب إلا من أحب الله خالصا من الشرك والبدع، وأنا لا أعمل إلا من أجل ذلك، لا يهمني أن أكون ملكا أو فقيرا).

(والله ثم والله إني لأفضل أن أكون على رأس جبل أكل من عشب الأرض وأعبد الله عن أن أكون ملكا على سائر الدنيا بما فيها)[1].

وقد جعل الله رقيبا عليه في كل ما يقول أو يعمل، وفوض أمره إليه وخافه واتقاه، ففتح له خزائنه.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ **(الطلاق ٢-٣).**

---

[1] الملك عبد العزيز بين نصرة الله ونصر الله له للأستاذ/ عبد الله بن حسن الموجان.

لقد كان الملك عبدالعزيز – رحمه الله – رجلا تجمعت فيه شمائل النخوة العربية الأصيلة، وإنسانا تختلج في صوره أنبل المشاعر وأكرم الأحاسيس الإنسانية وبطلا تجلت فيه روح الإمام العادل، والراعي الصالح، والقائد المعلم، الذي خط رقعة ملكه الشامخ بذراعه الفتيّ، وروى أديمها بدمه الذكيّ، حتى استخلصها من الغاصبين بيمينه شبرا بعد شبر، وأمنّها من خوف ومن فقر، ثم انطلق يحملها على كاهله القوي من نصر إلى نصر.

هكذا كان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود عاهل الجزيرة الأكبر، حامي حمى الدين، وموئل العروبة الأمين ومجدد عهد الخلفاء الراشدين.

ومن كلماته الدالة على عبقريته الفذة وأخلاقه الرفيعة التي بنى عليها دولته وعلاقاته وإصلاحاته قوله: (لا كبير عندي إلا الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا ضعيف عندي إلا الظالم حتى آخذ الحق منه·· ليس عندي في إقامة حدود الله هوادة ولا أقبل فيها شفاعة.

إن هذه الكلمات تعيد إلينا ذكرياتنا الإسلامية العبقة حين نجد الملك عبدالعزيز يقتفي في كلماته أثر الخلافة الراشدة التي كانت تدور سياستها حول هذه المعاني العظيمة، فها هو ذا الملك عبدالعزيز يعيد إلينا رائحتها الذكية، ومعانيها السامية، التي أقامت عليها دولة العدل والأخلاق الأولى، في التاريخ الإسلامي بعد رسول الله (ﷺ)، ونحن نجد هذا في سيرة الملك عبدالعزيز، فقد كان لا يأبه بالمجاملات، ولا يحب المبالغات، وينهي عن القول الجانح، بل يُسكت صاحبه، ومما ورد عنه قوله لبعض ضيوفه: (أريد رجالا يعملون بصدق، وعلم، وإخلاص، حتى إذا أشكل عليّ أمر من الأمور رجعت

إليهم في حله، وعملت بمشورتهم، فتكون ذمتي سالمة، وتكون المسئولية عليهم.. وأريد

الصراحة في القول، ثلاثة أكرههم ولا أقبلهم: رجل كذاب، يكذب عليّ تعمدا، ورجل ذو هوى، ورجل متملق.. هؤلاء أبغض الناس عندي).

***

وهكذا استطاع الملك عبدالعزيز أن يفرض قيّما جديدة وأخلاقا جديدة تنتمي إلى الحضارة الإسلامية الزاهرة، وهي قيم وأخلاق غابت عن الفكر الحديث، وعن النظم الدولية المعاصرة، لكن الملك عبدالعزيز أعلنها أسسا لدولته، التي تمثل خطوة كبيرة للمشروع الحضاري الإسلامي، الذي يستأنف فيه المسلمون دورهم الحضاري، وهداية الإنسانية.. إلى الدين الحق، والمنهج القويم.

ومما قاله الكاتب الكبير عباس محمود العقاد: «إن صفات العربي البارزة هي الشجاعة واليقظة، والحكمة العملية، والكرم، والصبر على الشدة، وإباء الضيم، والبيان، والذكاء الفطري، والسليقة السلفية.. وهي هي بعينها أبرز الصفات التي تجمعت في الملك عبدالعزيز».

وينتهي الأستاذ العقاد إلى بيان بعض المؤشرات التي اتسمت بها دولة الملك عبدالعزيز فيقول: «ومهما يكن من حكم التاريخ أو من دواعي الموافقة والمخالفة، فهناك حقائق أربع ماثلة للعيان لا يتطرق إليها الخلاف، لأنها في حكم الواقع المشهود.

أولاها: أن جلالة الملك عبدالعزيز قد أقام ملكه بيديه، وبما رزقه الله من حول وحيلة.

والحقيقة الثانية: أن جلالته بسط حكمه على أوسع نطاق من البلاد حكمه ملك عربي منذ ألف سنة.

والحقيقة الثالثة: أنه وطد الأمن في هذه المملكة الواسعة كل التوطيد.

والحقيقة الرابعة: أنه سلك بدولته في مهاب العواصف الدولية سلك السداد والأمان[1].

لقد تغلب – رحمه الله – على كل ما صادفه من عقبات بإيمانه القوي بالله، وقدم مشيئة الله على مشيئته، فكوّن دولة بخبرة ودراسة، واستطاع في أيام قليلة أن يضع لها الأساس الأول، فأسسها على تقوى من الله، ولم ينفرد بالحكم، ولم يضع مفاتيحه في جيبه ضانا بها على الآخرين، وإنما علم أن كل إنسان إلى زوال، فرسم الطريق لمن يأتي بعده، وأوصى وحذر، فأسمع، وسار من أتوا من بعده على طريقه، وعناية الله تحرسهم، فأبعدت عنهم ما قابلهم في الطريق من متشعبات، حتى أكملوا البناء الذي أسسه الوالد العظيم، والحمد لله لقد جنوا الثمرة، وعم النفع والخير، وأشركوا المسلمين فيما جنوا من خير ونعمة، وأغدقوا من فضل الله على الحرمين الشريفين، وعلى زوار المسجدين، وعلى الحجاج والمعتمرين، حتى إذا رجع كل إلى بلده رجع والقلب مطمئنه واللسان يلهج بالشكر والثناء والحب، داعين الله لمن اتبع الطريق، ومبتهلين إلى الله أن يفيض على خدام الحرمين الشريفين والمشرفين على تنفيذ كل ما يعود عليهما بالنفع لعامة المسلمين، وأن يرفع درجة الرجل العظيم الذي وضع الأساس، وأوصى وحذر، أن يرفع درجته مع النبنين والشهداء والصالحين.

* * *

---

[1] مجلة الراديو المصرى. العدد الصادر بتاريخ ربيع ثان ١٣٦٥هـ.

في كتابنا الذي بين يديك – عزيزي القارئ – لمحات من حياة رجل من رجال الإسلام، تُضرب به الأمثال في عصرنا الحاضر، وبعد مضي أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان على رسالة رسولنا الكريم محمد (ﷺ)، نجد مثالا حيا على دوام صحة التمسك بشريعته الغراء، وعلى إمكان تنفيذ حق الله، وحق العباد كما جاء به إمام المسلمين (ﷺ).. والله قد خلق العباد وهو أعلم بما ينفعهم ويعود عليه بالخير العميم، فكان خير شاهد، وأنصح دليل على أن هذا الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان، وما زال – ولا يزال – إن شاء الله – ما وضع أساسه الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، واستمده من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، شامخ البنيان، واضح المعالم، جزل العطاء، مضاعف الثمرات من الراحة والطمأنينة والهدوء النفسي والرزق الرغد والتقدم في جميع المجالات، وفوق كل هذا إخلاص العبادة لله ومضاعفة الشكر.

إن تاريخ الملك عبدالعزيز – رحمه الله – مجموعة من الإنجازات الكبيرة التي تتآزر وتتكامل فيما بينها وتقدم في النهاية صورة لزعيم عظيم وقائد فذ، استطاع أن يشق طريقه في ظروف صعبة للغاية، وأن يقيم دولة مترامية الأطراف، وسط تيارات سياسية عالمية بالغة التباين، وأوضاع محلية غاية في الدقة والتعقيد.

ومع كل هذه الظروف والصعوبات استطاع الملك عبدالعزيز أن يوحد معظم شبه الجزيرة العربية تحت زعامته، كما استطاع أن يضع شعبه على عتبة الأخذ بوسائل التقدم والحياة العصرية، وذلك مع الالتزام المطلق والكامل بتعاليم وقيم الدين الإسلامي في أصالتها ونقائها، وإن دلت هذه الإنجازات الكبيرة على شيء فإنما تدل على عبقرية القائد، العبقرية الفطرية التي هي

ثمرة التداخل والامتزاج التام بين العقلية العربية وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

***

إنه تاريخ رائع.. متصل.. من النضال.. والجهاد.. والكفاح.. والإيمان.. والإصلاحات الجذرية، لبناء أمة، وبعث شعب، وتشييد حضارة، وحياة خصبة باهرة كانت كلها عطاء وبذلا وتضحية من أجل العروبة والإسلام.

***

فهل قرأ حكام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تلك السيرة العطرة، ووعوا ما قام به صاحبها – رحمه الله – وهل تدبروا إخلاصه وحبه لله، فاقتدوا به في أقواله وأفعاله، وسلكوا طريقه، واهتدوا بما اهتدى به مما جاء في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، وعمل به الصحابة والتابعون رضي الله عنهم أجمعين.. لو عرفوا ذلك، لكن فيه قوة للمسلمين في هذا الزمان المملوء بالكيد للإسلام، ولأصبحنا قوة يقدرها الناس حق قدرها.

إننا ندعو كل حاكم مسلم أن يضع أمامه هذه الصورة من الأعمال والإخلاص والتفاني في سبيل المصلحة العامة حتى نكوّن مجتمعا إسلاميا صالحا نرفع به لواء الإسلام والمسلمين على النهج القويم الذي أرسى قواعده الملك عبدالعزيز.

فطيب الله للملك عبدالعزيز ثراه، وتغمد الذين توفوا من أبنائه برحمته ورضوانه وأمد الباقين على قيد الحياة بطول العمر والتوفيق في خدمة الإسلام والمسلمين.

المؤلف

الجذور التاريخية لحكم آل سعود

نبذة تاريخية عن نشأة المملكة العربية السعودية وتوحيدها على يد الملك عبد العزيز

شجاعة نادرة، سنتعرف عليها من خلال عرض موجز لقصة حقيقية لكنها أقرب من الخيال، تلك هى قصة توحيد الجزيرة العربية على يد مؤسس المملكة الملك عبد العزيز آل سعود.. والقارئ يستطيع أن يستخلص الهدف المتوخى من هذه القصة الحقيقية وتلك الشجاعة النادرة، وهو أن الهمة التى أوتيها الملك عبد العزيز والبطولة التى وهبها له الله من الندرة والسمو بمكان مكين..

ولد عبد العزيز آل سعود في الثاني من كانون الثاني- يناير- ١٨٨٠م. وعاش إلى جانب والده الإمام عبد الرحمن، وخبر أوضاع الجزيرة العربية وعاش مشاكلها. وحين لجأ عبد الرحمن وابنه عبد العزيز إلى الربع الخالي ليأمنا شر مطاردة الأعداء، تعرضا لحياة صعبة أرهقت عبد العزيز وحولته إلى فتى مكتمل، وأعطته القدرة للسيطرة على نفسه، وعودته على خشونة العيش ومكاره الحياة، فتحملها بصبر وجلد حتى النصر.

ويقول الملك عبد العزيز عن حياته في الصحراء: «إن أجمل أيام حياتي كانت خلال سنوات النضال في الصحراء، سنوات الجوع والظمأ والخطر، ولم تكن طويلة فقد امتدت بين عشرة أعوام واثني عشر عاماً، ولكن كل يوم من أيامها كان يحمل في طياته الحبور والسرور. سقى الله تلك الأيام، وسقى رفاقها المخلصين».

كان يعرف ما ينتظره في المستقبل فهو مدعو للسيطرة على الجزيرة وتولي أمور الحكم فيها. وكان يتربى على ما في الحياة العربية من الفضائل والمكارم والشهامة والإيمان استعداداً لليوم المسؤول. وكأنه كان يشعر بما هو قادم عليه.

وبعد تجربة الربع الخالي التي دربته على الشدائد والمكاره، انتقل إلى الكويت، حيث قضى وقتاً في المعاناة، وكأنه كان في ذلك يتربى على جميع أصناف العيش، قبل أن يصبح سيد الجزيرة.

لقد كانت تجربته مفيدة، علمته أيضاً أموراً أخرى تتعلق بالأشخاص، ومواقف الشعب وطبقاته، ومواقف الحكام والدول الأجنبية، والسياسة

الدولية، فأيقن أن الأمور هنا ليست بالبساطة التى يفكر بها ابن الصحراء، والحياة الاجتماعية فى المدن، فيها أيضاً من المكاره ما يفوق صعوبة الحياة القاسية فى صحراء الربع الخالى.

وفى مستهل القرن العشرين، كان عبد العزيز شاباً، يحلم باسترداد عاصمته المفقودة، فكتب إلى والده يقول: «إن الموت أفضل من العار، وأن لا حَدّ وسطّ ولا مجال للاختيار، فأما النصر أو الموت، فلست أستطيع تحمل نير آل الرشيد على بلادنا، وما أصاب أسرتنا من هوان» وبعد ذلك بقليل تمت مغامرة الرياض.

وحين ناهز العشرين من العمر، كان كما وصفه أرمسترونج «صنديداً مهيباً، عملاقاً فتياً تنظر إلى ملامحه فتوحى إليك بالرجولة والنبل، وليس فيه صفة واحدة من صفات الضعة أو النقص».

لقد كان نموذجاً خاصاً من الأمراء، تربى على الفروسية والدين والسيرة الحميدة، بعد أن قضى فترة عصيبة من عمره، عاش فيها جو الصحراء «سعة أفق وأغوار عمق» وصقلته المتاعب والأهوال والأحداث الجسام التى عاناها فى بحار الرمال فصلب منه العود واشتد الساعد.. وأخذ يضطلع بمهام الرجولة إلى أن بعث أمجاد السعودية.. وكان يعانى من أصناف القلق على مصير بلاده.. فقرر أن يقتحم الرياض ليحررها، فكان له ذلك عام ١٩٠١م، وهو فى الحادية والعشرين من عمره، وحقق بأنصاره المعدودين، وعزيمته اللامحدودة، عملاً بطولياً أصبح به فهد الصحراء، ولقى التأييد، فدخل الرياض منتصراً، وبدأ حلم صباه يتجسد حقيقة واقعة، وأصبح يلقب «بابن سعود» واستمر رفاقه فى تلقيبه «بفهد الصحراء».

ثم تسلم من والده الأمير عبد الرحمن السلطتين الدينية والسياسية،

وواجه أمر أعداء المملكة فى كل مكان من الجزيرة، فقاوم ابن الرشيد، وكتائب الجيش التركى، وأصيب فى المعركة ثم استعاد صحته وأعاد تنظيم جيشه وقضى على أعدائه عام ١٩٠٥.

وبدأ بناء الدولة السعودية وتوحيدها وتنظيمها وتعزيز السلطة فيها. وقد تولى ذلك بحكمة وشجاعة وحزم. وفى عام ١٩١٢ استعاد كامل إقليم الإحساء. وعام ١٩٢٤ دخل مكة. وأصبح عام ١٩٢٥ سيد الجزيرة العربية بلا منازع وبدأت مسيرة السعودية.

لقد أجمع المؤرخون الذين تناولوا تاريخ المملكة العربية السعودية، على أن الكلام يجب أن يبدأ دائماً بالحديث عن الملك عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية، التى يتلازم تاريخها فى نشأته وحداثته، وتطوره وازدهاره، من تاريخ عبد العزيز نفسه.

وكما يجد الباحث فى تاريخ السعودية وجغرافيتها حقائق تظهر مع الوقت أمام ناظريه، كذلك يجد فى تاريخ مؤسس السعودية، حقائق تظهر أمامه فتمكنه من التعرف أكثر فأكثر بالأسباب والعوامل التى ساعدت الملك عبد العزيز على تأسيس الدولة السعودية، وعلى السير بها فى طريق النجاح والازدهار، تلك هى شخصية عبد العزيز، «بقلبه الكبير وعقله الراجح ونفسه المؤمنة».

كان الملك عبد العزيز يتمتع بصفات القائد منذ نشأته، «هادئ المزاج، كريم الأخلاق، حليم الطباع، طيب العشرة ولطيفها، قليل الكلام، ومفيده، كثير التفكير، ولا يغضب إلا نادراً، صبوراً، شجاعاً، متواضعاً، يكره العظمة والكبرياء، رحب الصدر، يصغى إلى متحدثه، ويستقبل زائره ببشاشة وإيناس، يحب العمل، وأحب الأشياء لديه العبادة».

كان «متواضعاً، ولم يكن مغروراً، نشر العدالة والأمان، فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وأيقن أن العدل أساس الملك، واستطاع تحضير البادية، وتعميم أحكام الشريعة، وإقامة الحَدّ، فتمكن من ضبط الأمور، وبناء الدولة بإعجاز يدعو إلى الإعجاب.

وفى هذا قال الجنرال كلايتون إثر فتح الحجاز يخاطب الملك عبد العزيز: «إن هذا المُلك الواسع لم يؤسس إلا بعد مئات السنين، أما أنت ففى ثلاثين سنة أسست مُلكاً واسعاً، إذا اضطرد سيتم لك تأسيس امبراطورية مثل امبراطوريتنا وأكبر منها».

وفى عام ١٩٢٦ زار الدكتور (فون ويزل) الملك عبد العزيز، وتحدث بعدها عنه قوله:

«وفى ابن سعود ميزة أخرى، وهى أنه كريم صادق، وقد جادلته مرتين فى شؤون مختلفة كان بعضها دقيقاً جداً، فلم ألحظ أنه يلبس الباطل ثوب الحق... كان سياسياً أحياناً فى أجوبته. فلا يقول كل ما يعرفه، ولكنه لم يتلفظ بكلمة واحدة غير صادقة. والظاهر أن هذا شأنه مع الجميع لأنى لما قابلت القناصل الأجانب فى جدة قالوا لى: «إذا قال لك ابن سعود شيئاً فثق أنه يقول لك الحقيقة التى لا تشوبها شائبة».

وفى خطابه بمكة ١١ أيار– مايو– ١٩٢٩، قال عن نفسه:

«لقد كنت لا شىء، وأصبحت اليوم وقد استوليت على بلاد شاسعة، لقد فتحت هذه البلاد ولم يكن عندى من الاعتاد سوى قوة الإيمان، وقوة التوحيد، ومن التجدد غير التمسك بكتاب الله وسُنة رسوله، فنصرنى الله نصراً عزيزاً.. لقد خرجت وأنا لا أملك شيئاً من حطام الدنيا، ومن القوة البشرية، وقد تألب الأعداء على ولكن بفضل الله وقوته تغلبت علىّ أعدائى

وفتحت كل هذه البلاد».

ويقول فى مناسبة أخرى:

«أنا لست من رجال القول الذين يرمون اللفظ بغير حساب، أنا رجل عمل، إذا قلت فعلت، وعيب علىّ فى دينى وشرفى أن أقول قولاً لا أتبعه بالعمل، وهذا شىء ما اعتدت عليه، ولا أحب أن أتعوده أبداً».

وفى أقوال (كيرمت روزفلت) عن الملك عبد العزيز - كتاب العرب والتاريخ والزيت، ما يلى:

«وهو يمتلك لب كل زائر يفد عليه من الخارج ويمنحه صبراً لا ينفذ وحباً للاستطلاع لا حد له، وله براعة نادرة فى أن يجعلك تشعر بأنك فرد من أسرته القريبة وسر القوة فى صحبته أن عقله كان يسبق لسانه، وأنه ينسى العاطفة أمام المنطق ولا يقول إلا ما يعتقد».

وفى عام ١٩٤٧ كتب الأمير فيصل موضوعاً لمجلة المصور المصرية، تحدث فيه عن والده الملك عبد العزيز، وتناول فيه المزايا التى هيأت له أن يبنى هذا المُلك والسلطان، على الرغم مما صادفه من شدائد وأهوال لم تثنه عن الوصول إلى غايته، ولم تصرفه عن تحقيق أهدافه، وعدَّد من مزايا والده، قوة الإيمان، وقوة الإرادة، والشجاعة التى كانت تبرز فى أحرج المواقف وأدق الظروف، والحكمة والأناة فى معالجة أمور الدولة».

بعد تحرير كافة الأقاليم فى الجزيرة العربية، كان لابد من إعادة توحيدها فى دولة جديدة. وقد تولى الملك عبد العزيز هذا الأمر وهو يهدف إلى إعادة أمجاد الجزيرة، لتصبح من جديد، ركيزة العروبة والإسلام السياسية، كما هى قبلتهم الدينية، وفى هذا قيل: «كانت رغبة الإمام عبد العزيز أن يصبح حاكماً حقيقياً يستطيع بعث امبراطورية عربية جديدة، تعيش على إمكاناتها كدولة مستقلة محررة من كل نفوذ أجنبى، فقرر أن يسير فى توطيد دعائم الملك على غرار لم يسبقه إليه أمراء الجزيرة من قبل، فاعتزم استئصال الفوضى، كشرط لابد منه لهذا الغرض، وعمل على أن يضع حداً للقتال بين القبائل، ويعود إليه وحده، بصفته أميراً للبلاد، الحكم فى المنازعات، وحماية الممتلكات، وصيانة الحقوق العامة، وغير ذلك من مقومات الدولة. وبدأ بذلك وضع الحجر الأساسى لبناء الدولة الحاضرة، دولة تعيش على إمكاناتها فى نطاق الحرية والاستقلال».

ونظراً لصعوبة الوضع بالنسبة للقبائل، كان لابد من اللجوء إلى القوة فاستعملها فى هالة من الحق والعدل. ولم يكن فى ذلك ممن يرتجل الحلول، بل اعتمد التفكير العميق، لتصريف الأعمال واتخاذ القرارات، بعد أن ألم عن كثب، بالقضايا الأساسية لأبناء شعبه، وتغيرت نظرته للأمور فأصبحت أكثر واقعية وأكثر بعداً عن «الاستنتاج والتخمين». وأدرك أن أول مشاكل شعبه هى «البداوة» التى لا تعرف الاستقرار، ولا يمكن أن تساعد ظروفها القاسية على الهدوء والأمن والسلام، فوضع لذلك مشروعه الناجح، للقضاء على البداوة، وتوفير حياة الاستقرار، وموارد العيش الهادئ المطمئن عن طريق الزراعة، وما يتبعها من توفير الماء والعمل والوسائل والمال واتبع ذلك بمشروع عسكرى، أيضاً لأنه كان يرى «أن مستقبل الجزيرة كله يتوقف على

هذا الاصلاح الاجتماعى والعسكرى والدينى الضخم، وهكذا تعاون مع رجال الدين، فى إقناع الشعب بمشروعه الاصلاحى العظيم. وكان خلاصة المشروع: «وضع حد للبداوة» وتحطيم الإطارات التقليدية للقبائل، وغرس جذور البدو حول آبار المياه، وتجنيد جيش من المجتمعات الزراعية الجديدة، وهو بذلك يقدم مشروعاً إصلاحياً من شأنه أن يبدل وجه الجزيرة العربية، ويوفر لأبنائها مستقبلاً أفضل لم تحلم بمثله حتى الآن، ويهئ فرص انتشال القبائل من الفوضى والبؤس وتحويلها إلى شعب متطور متحضر».

وحالفه التوفيق، فاستطاع تحضير العشائر، وعمل على تخليصها من العادات القديمة التى لا تتفق مع النظام والقانون فى الدولة الحديثة. وبدأ فى توزيع الأراضى على فريق من أهل العشائر، وساعدهم على بناء أول بلدة فى (مطير) ودربهم على الأعمال الزراعية ونظم توزيع المياه، وقدم لهم العتاد والسلاح، ونظم لهم سجلاً للنفوس، على أن يلبوا نداءه للجهاد كلما دعاهم إليه.. ونجحت المحاولة بعد جهد وصبر، وكانت مشجعة لمتابعة الاختيارات المماثلة.

وبعد نجاح عملية «التحضير»، بدأ يبحث عن وسيلة لتحقيق الجامعة القومية، واختار لذلك التمسك بالشريعة السمحة، وإقامة حدود الله، فعمد إلى نشر العلم والمعرفة، وتعليم فرائض الدين وأحكامه الشريفة، وأخذ يشجع تأليف الكتب التى تحقق هذا الغرض، ويوزعها على جميع القبائل، وينشر الخطباء والمرشدين فى ربوع البلاد، وتألفت بذلك فرق «الإخوان».

وبدأ التركيز على التحذير من «الشرك» وانذار البغاة وأرباب البدع والضلال، وكانت التعاليم التى نشرت بين المواطنين من أكبر العوامل على

سيادة روح العدل والطمأنينة والأمن والدعة بين جميع القبائل فى أنحاء البلاد، وتبع ذلك بيانات للعلماء، للتوعية والإرشاد والتوجيه، وبيان للإمام – بمثابة نداء – للتحذير من مخالفة تعاليم الشريعة الإسلامية، وكان لذلك كله أثر بالغ فى نشر المحبة والتآلف وانتشار الأمن والسلام.

وهذا ما أشار إليه الموفد الانجليزى شكسبير إلى الرياض فى ربيع ١٩١٤ الذى أرسله المعتمد البريطانى فى الخليج للتعرف إلى الأمام عن كثب ومشاهدة ملكه الرحيب. فبعث هذا الموفد إلى حكومته تقريراً عن مشاهداته قال فيه:

«إن الإمام قد استطاع إيجاد دولة من العدم، وحجب القبائل عن عوائدها المتوارثة، وأشاع العدل فى البلاد والطمأنينة فى النفوس، بعد أن كانت هذه الصحراء موطن القتال والسلب والنهب».

وحين استتب الأمر للملك عبد العزيز، خطب فى عدة مناسبات يقول:

«ما من رجل يستطيع أن يكون له أثر وأن يقوم بعمل جيد، إذا كان لا يخشى الله وأنى أحذركم من اتباع الشهوات، وأحثكم على الصراحة والصدق فى القول... إنى أحمد الله الذى جمع الشمل، وأمَّن الأوطان، ولكن علىَّ عهد الله وميثاقه، إنى أنصح لكم كما أنصح لنفسى وأولادى.. إننا الآن فى وقت العمل وفى ساعة التأسيس، ولا يستقيم الأمر إلا بحسن التدبير وبالصدق والنزاهة..».

هذه المزايا التى تجسدت فى شخص الملك عبد العزيز، كانت وراء تلقيبه «بنابليون الصحراء» الذى تحدث المؤرخون فى كتبهم عن قدرته على «تحضير البدو وتأسيس الهجر» فكانت آيته الكبرى «جمع شمل

الجزيرة وتوحيد مقاصدها، وإحلال الأمن والاستقرار فى ربوعها فكانت المملكة العربية السعودية أول كيان مستقل فعال يظهر فى عالم العروبة والإسلام». وكان هو أول حاكم عربى يرمى ببصره إلى ما وراء حدود بلاده! باسطاً يده إلى نصرة كل قضية عربية، ومؤازرة كل نضال إسلامى». فتحولت الرياض فى عهده، من بلدة ضائعة فى غمار الصحراء، إلى عاصمة للعرب أجمعين.. واستحقت بذلك مغامرة عام ١٩٠١ لتصبح بعد ذلك عاصمة العرب والمسلمين.

وقد تحدث الملك عبد العزيز فى أكثر من مناسبة عن المواضيع الأساسية فى بناء الدول، كالحرية، والحقوق، والمساواة، والإخوة، والمصارحة، والنصيحة، وخدمة الشعب.. وغيرها.

فى ٣٠ نيسان – أبريل– ١٩٣٠ تعرض فى خطاب القاه فى مكة، إلى موضوع الحرية فقال:

«يقولون الحرية ويدعى البعض أنها من وضع الأوروبيين، والحقيقة أن القرآن الكريم قد جاء بالحرية التامة الكاملة لحقوق الناس جميعاً، وجاء بالإخاء والمساواة المطلقة التى لم تحلم بها أمة من الأمم، فآخى بين الصغير والكبير، والقوى والضعيف، والغنى والفقير، وساوى بينهم.

ويقولون التمدن والمدنية الأوروبية هى الغاية القصوى، وهذا وهم باطل، وأحب شىء إلينا هو العمل الخالص، والنية الحسنة، والإخلاص فى العمل هو أكبر سلاح لنا، فيجب أن نعمل على طاعة الله بإخلاص».

وقال فى ١٧ نيسان – أبريل – ١٩٣٦:

«المقصد من اجتماعنا أن نتناصح ونتعاضد، ويطلع كل منا على ما عند الآخر، والواجب يقتضى أن أصارحكم، إننا فى أشد الحاجة إلى

الاجتماع والاتصال، لتكونوا على علم تام بما عندنا، ونكون على علم تام بما عندكم، وأود أن يكون هذا الاتصال مباشراً لتحملوا إلينا مطالب شعبنا ورغباته، وتحملوا إلى الشعب أعمالنا ونوايانا. إنى أود أن يكون اتصالى بالشعب وثيقاً دائماً. لأن هذا ادعى لتنفيذ رغبات الشعب، لذلك سيكون مجلسى مفتوحاً لحضور من يريد الحضور».

وقال فى ٢٤ أبريل ١٩٣٦:

«إن خدمة الشعب واجبة علينا لهذا فنحن نخدمه بعيوننا وقلوبنا، ونرى أن من لا يخدم شعبه ويخلص له، فهو ناقص. شعبنا العرب، فنحن من العرب وإليهم، وخدمة الإسلام والعرب واجبة علينا بصفة عامة وخدمة شعبنا وأمتنا واجبة علينا بصفة خاصة، ولابد أنكم سمعتم أننا الزمنا ولاة الأمور بالنظر فى شؤون الرعية، وجعلناها أمانة فى أعناقهم، فعليهم أن يقوموا بالواجب والنصح للشعب. وأن يجتهدوا فى تخليص ما عليهم من حقوق وما لهم من واجبات».

على هذه الأسس تم توحيد الجزيرة العربية، وبدأ تأسيس الدولة الجديدة فيها، وأثبتت الأيام نجاح التجربة، وأعطت هذه الممارسة نتائجها المتوخاة.

بعد أن استقر الأمر فى المملكة العربية السعودية، عزم الملك عبد العزيز على اتخاذ خطوات انقلابية جديدة، للاستفادة من الاختراعات الحديثة كالسيارات لحل مشكلة المواصلات، وتسهيل عملية توطيد الأمن والقانون والنظام. ثم رأى الاستفادة من الطائرات واللاسلكى وغيرها للمواصلات والأمن والنظام أيضاً. وبدأ يستعين بالآلات والأدوات لحفر الآبار الارتوازية، وبالوسائل الصحية والأدوية.

وباشر بإنشاء قوة جوية حربية، وأسس مدرسة لتعليم الميكانيكا، وأحدث وزارة المعارف، وطور التعليم، وبدأ تنظيم مالية الدولة، وقوى جهاز الحكومة المركزية.

هذه المشاريع كلها، كانت تمهد لإنشاء المملكة العربية السعودية، وقد اعترضته فى عمله هذا «قلة عدد أصحاب الجدارة والكفاءة، لحل المشكلات التى تواجه سير المملكة فى طريق التقدم الذى يهدف إليه، وهو «توحيد شبه الجزيرة العربية، وبعث الإيمان الصحيح، وتحويل شعب الجزيرة إلى مستوى أمة عصرية».

ولكنه بما عرف عنه من بُعد النظر، والحنكة والمرونة، وجد الحل لهذه المشكلة فى البلاد العربية، فتوجه إلى الكفاءات المتوافرة فى الوطن العربى، ليغرف منها ما يحتاج إليه. ولم يكن يهتم لكون بعض وزرائه من جنسيات غريبة، ماداموا عرباً مؤمنين ومن أرومة نقية... وهنا نشير إلى أن انعدام النزعة الإقليمية، لم يكن وليد الصدف، إنما كان ينبع من اعتقاد راسخ لدى الملك عبد العزيز، فالعربى فى نظره ليس غريباً أبداً لكنه عضو فى مجتمع قومى ودينى واحد».

وبدأ الملك عبد العزيز تنظيم المجتمع، والإدارة، والسياسة،

والاقتصاد، والعلاقات الخارجية، والعمران، والتعليم، والمواصلات، والتطبيب، والانماء، والنهضة العمرانية، والسكانية، والزراعة، والرى، وخلال البحث عن مصدر التمويل لهذه الأعمال والمشاريع، بدأت تظهر الثروة الجديدة عام ١٩٣١/١٩٣٥، وبعد عام انطلقت المملكة العربية السعودية فى مسيرتها الجديدة بين دول العالم.

ومع الوقت، أخذ البترول دوره فى بناء المملكة، إلى جانب الأسلوب الجديد فى الحكم الذى وضعه الملك عبد العزيز، فساعدته الثروة على تحقيق آماله فى بناء دولة قوية واستفاد منها فأحسن توظيفها لصالح الشعب والبلاد. فتوفرت بذلك عناصر النجاح والثروة والمال من جهة، والحكم والحكمة من جهة ثانية.

وحين تفجرت فى المملكة آبار النفط، وتدفقت الثروة الجديدة، لم يكن خافياً عليه «أنه لن يصل بالشعب طفرة واحدة إلى المستوى الذى بلغه إسلافه، بل كان همه بالدرجة الأولى، تزويد الجيل الجديد بالعلم والمعارف الفنية والمهنية الكافية، لتحمل المهام التى يعدها المستقبل القريب، وفى هذا يقول عام ١٩٣٨ فى المعهد الزراعى فى (الخرج) «أن التطور الفنى والصناعى فى الجزيرة العربية يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع الثقافة المهنية للشعب وإلا فسنكون دائماً مرغمين على الاستعانة بالأجانب».

وثروة البترول التى هبطت على السعودية، لم تؤثر فى حياة الملك عبد العزيز الذى حافظ على حياة الخشونة التى تربى عليها فى مأكله وملبسه ومسكنه وراحته اليومية.. «لقد كان يرحب بمحاسن الحضارة الغربية، ولكنه كان يأبى أن تتسرب معها مساوئها الهدامة التى يمكن أن تلقى برعاياه فى خضم من الفوضى أين منها تلك التى عاشها أسلافهم».

لقد أراد الملك عبد العزيز بناء دولة متكاملة تحافظ على التقاليد، وتحفظ التراث وتجسد الرسالة الإسلامية، والحضارة العربية، وتعمل فى نفس الوقت على الاستفادة من المدينة المعاصرة، وتأخذ بأساليب العلم المفيد، ووسائل العيش التى لا تتعارض مع الدين والعقيدة.

وقد أولى هذا الموضوع ما يستحقه من العناية والاهتمام بأفعاله التى ذكرنا وبمشاريعه التى أنشأها بمبادرات رائدة شجاعة كإنشاء المعاهد الفنية والعلمية. وكذلك بأقواله التى كان يلقيها فى شتى المناسبات.

وفى شهر تموز ١٩٣١، استقبل خريجى المعهد العلمى السعودى وتحدث إليهم بقوله:

«إنكم أول ثمرة من غرسنا الذى غرسناه بالمعهد، فاعرفوا ما تلقيتموه من العلم، واعلموا أن العلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر. وأن العلم كما يكون عوناً لصاحبه يكون عوناً عليه، فمن عمل به يكون عوناً له، ومن لم يعمل به يكون عوناً عليه وليس من يعلم كمن لا يعلم، قليل من العلم يبارك فيه، خير من كثير لا يبارك فيه والبركة فى العمل... فى الصحف السيارة ما يصور للقارئ أن قسماً من الناس قطع فى مضمار العلوم، ولاسيما الكونية شوطاً بعيداً، لو حاولتم الوصول إليه فى عشرات السنين لما وصلتم نصف المرحلة التى قطعوها، ولكن ماذا كان وراء هذا العلم الوفير... علم ولكن بالأقوال، وعمل ولكن فى غير النافع.. لا مانع من أن نأخذ من غيرنا المفيد، فالحكمة ضالة المؤمن، يلتقطها حيث وجدها وما حرمت الشريعة شيئاً فيه نفعنا ولا أحلت شيئاً فيه ضرنا، وأن النظرة السليمة لتدرك ذلك».

وقال فى ٥ آذار – مارس – ١٩٣٦:

«إن المدينة الصحيحة هى التقدم والرقى والتقدم لا يكون إلا بالعلم

والعمل».

وفى ٣ نوفمبر ١٩٤٦ أكد أنه: «يجب أن نتعلم من العلوم ما ينفعنا وفى مقدمتها معرفة كلمة التوحيد، وهى كلمة الإخلاص وكلمة السعادة».

ونلاحظ فى هذه الأقوال عن قضية العلم والعمل، والحضارة والمدنية، وفضائل الشريعة، التسلسل المنطقى، والفكر المستمر المتدرج، بوثوق وإدراك كاملين لكل ما يريد، وتنسيق بين الأفكار وتحديد واضح للهدف والمقصود، مع عبرة واعتبار من الممارسات.

******

اقترن تاريخ الدولة السعودية بدعوة المجدد العظيم محمد بن عبد الوهاب، التى انتشرت فى بلاد العرب وفى الهند، والتى تعتبر إحدى انتفاضات ثلاث كان لها فى تاريخ الإسلام الحديث آثار بعيدة المدى: الوهابية فى جزيرة العرب وشمالى الهند، والسنوسية فى شمالى أفريقيا، والمهدية فى السودان..

وهى انتفاضات دينية كانت منبعثة من صميم الإحساس بما وصلت إليه حال المسلمين من الجهل بحقيقة الإسلام، وتدهور العقيدة وتحلل مقوماتها فى النفوس، مما تخلف بهم عن مكانهم الطبيعى فى الصدارة، وجعلهم خولاً للأجنبى، يطأ بلادهم، ويستذل أعناقهم، ويبتز خبراتهم، ويسلبهم ما بقى من مقومات حياتهم وميراث تاريخهم..

ويرى لوثروب فى كتابه «حاضر العالم الإسلامى» أن الدعوة الوهابية تعتبر أساس اليقظة الإسلامية فى العصر الحديث، وإليها يعزو حركات التحرير التى انبثقت فى مختلف الأقطار الإسلامية للتحرر من أغلال

الجهل، والثورة على الاستعمار: فى الهند، وأفغانستان، وجزيرة العرب، وشمالى أفريقيا، ومصر والسودان.

أما صاحب الدعوة الوهابية – محمد بن عبد الوهاب – فقد ولد فى مطلع القرن الثامن عشر فى (العيينة) شمالى الرياض. وقضى صدر شبابه مرتحلاً إلى الأحساء والحجاز والبصرة . . . . وتتلمذ على ما كتبه ابن تيمية وأتباعه وخاصة ابن القيم وابن كثير، وهم من الأئمة السلفيين الذين كان لهم فى تاريخ الفقه الإسلامى جهود ضخمة، ردت إليه اعتباره وجددت شريعته السمحة البيضاء.

إذن فقد اجتمع للرجل فى اتصاله بحياة المسلمين فى كثير من الأقطار، وفى فقهه لأسرار الشريعة، ما ملأ قلبه غيرة على حال المسلمين، وحسرة على ما وصلوا إليه من جهالة وضعف وانحلال، وحفزه ذلك إلى الجهاد فى سبيل تجديد إيمان هذه الأمة، وتسديد عزائمها إلى مواطن العزة والقوة والاتحاد.

وكانت الجزيرة العربية لذلك العهد ممزقة الأوصال، متعددة الولايات والولاة، لا تهدأ بينهم نار الحرب، ولا تخبو الإحن والتارات. وكذلك كان الشأن بين البدو والحضر، وبين القبائل بعضها وبعض، بل بين أبناء البيت الواحد ممن يتنافسون على المناصب والمغانم، حتى إن أحد أشراف مكة لم يتورع عن قتل أخيه، ثم طبخ لحمه وقدمه إلى بقية إخوته فى وليمة ساهرة..

وكانت الخرافات والعقائد الضالة قد استحوذت على العقول، حتى لأوشكوا أن يرتكسوا فى جاهلية عمياء، هى شر من الجاهلية الأولى، لأن أهلها يزعمون مع ذلك أنهم مسلمون..

وبدأت دعوة محمد بن عبد الوهاب بالعمل على إصلاح العقيدة الدينية، وهل إلى ذلك من سبيل غير الرجوع إلى منابعها الصافية الأولى: الكتاب والسُنة؟

ومن خصائص العرب فى جميع العصور أن طبيعتهم السمحة القوية، وبيئتهم البادية المتصلة بالكون، المتفاعلة فيه، هى أقرب الطبائع البشرية إلى روح الإسلام وطبيعته وليست كذلك طبيعة الأمم التى أغرقتها الحضارة واستغرقتها العقائد المادية، وأنهكها الترف العقلى، وخدرتها تهاويل الفنون..

ولذلك استطاع الإسلام أن يحقق بأولئك العرب بعد أن زالت عن طبيعتهم السمحة القوية أدران الجاهلية، وتطهر جوهرها مما شابه من عقائد وأفكار – استطاع أن يحقق بهم أروع وأسرع معجزة فى فتح الأمصار وتحرير الإنسان ونشر كلمة الله..

فلما اتصلت حياتهم بتلك الأمصار، وتذوقوا ما فيها من ألوان الحياة الحضارية وبهرتهم دنياهم الجديدة بما فيها من زينة وزخرف ومتاع، تأثروا بذلك كله فضعفت قواهم المبدعة الغلابة، ولم يستطيعوا أن يتابعوا جهادهم بعد الفتح فى تطوير عقائد تلك الأمصار، وابتعاث صور جديدة للحياة فى شتى مناحيها العقلية والاجتماعية، يتصل إلهامها بروح الإسلام وطبيعته. فكان أن ذَرَّتْ العقائد الموروثة التى حاربها الإسلام بقرونها من جديد، فى صور موشاة بألوان تخيل للرائى أنها صور إسلامية، وإن كانت فى مادتها ووحيها بعيدة كل البعد أو بعضه عن مادة الإسلام ووحيه..

ذلك أن هذا الميراث الضخم الذى خلفته العصور الإسلامية منذ انحسر عنها مدر العروبة المسلمة أو غاض، ومنذ انطلقت تلك العصور تبنى للإسلام حضارته العمرانية والعقلية فى مصر وفارس والهند وتركيا

وغيرها من الأمصار، فتنشئ العمارة، وتنتج للعلم والفلسفة، وتصوغ فنون الحياة..

إن هذا التراث الضخم لا يمكن القول بأنه تراث إسلامى صرف بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، ولكنه صور متعددة لحيوات مختلفة تمتد جذورها إلى أعماق الأمم التى صنعت هذا التراث فى مصر، وفارس، والهند، وتركيا وغيرها من الأمصار.

ولم يكن هذا التعدد فى ألوان التراث الإسلامى مقصوراً على مظاهره وبالقدر الذى تختلف به طبيعة كل أمة ومؤثراتها الخاصة، ولكنه أعمق من ذلك جذوراً وأبعد أُساً، لأن هذا الاختلاف فى المظاهر لا يقاس إلى ما بين العقائد والمشاعر التى تكمن وراءها من تباعد واختلاف، وبالقدر الذى يباعد بين هذه العقائد والأفكار والمشاعر الموروثة، وبين الإسلام فى حقيقته الأولى، وتمثله للكون والحياة، باعتباره ديناً يقوم على «التوحيد» فى كل شىء: التوحيد الذى يسمو بالإنسان عن كل عبودية إلا لله، ويجعل المسلم قَوَّاماً على الحياة والكون، يسيطر عليهما ويسخرهما لتحقيق الرسالة التى جاء بها الإسلام لخير الفرد والمجتمع، لا أن يكون عبداً للكون والحياة، تستخدم مواهبه فى الفنون حتى يكاد يعبد ما خلق، وتستغرق عقله بالفلسفة حتى تصرفه عن العمل..

ولا أظن أننا ابتعدنا كثيراً ونحن نمهد للحديث عن بواعث الدعوة الوهابية وأهدافها فإن هذه هى نقطة الابتداء لكل دعوة إسلامية تقوم على «تجديد» الإسلام فى حياة المسلمين بتنقية عناصره الأولى وإحياء معالمه الأصيلة، والاحتكام إلى معاييره فى الحياة.

وما أحوجنا – ونحن الآن فى مطلع يقظة إسلامية قوية – أن نتدبر

هذه الحقائق، لتصفية التراث الإسلامى مما شابه من مؤثرات العوامل الوراثية الدخيلة، وحمايته من مؤثرات المذاهب الفنية والاجتماعية الأجنبية، التى تستمد أصولها من مبادئ تغاير مبادئ الإسلام ونظرته إلى الكون والحياة، حتى نكفل لليقظة الإسلامية الحاضرة عناصر القوة والذاتية، باعتبار أن الإسلام نظام اجتماعى كامل له خصائصه وأهدافه ورسالته فى الحياة..

****

ولنعد إلى الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب...

أراد هذا الإمام أن ينهض بدعوته تلك... وهل لها إلا تلك «الخامات» العربية التى تنطوى على عناصر الحرية، والاتصال المباشر بالكون، والاستواء على أقطار الحياة، يبرئها مما أصابها من غشاوة الجهالة، ويردها إلى فطرتها السمحة، ويغذيها بوحى الكتاب والسُنة، ثم ينطلق بها خفيفة مؤمنة صابرة، تحمل أعباء الدعوة، فتنشر الهدى المحمدى وتقر الأمن المضطرب، وتحمى البيت الذى يُتَخَطَّفُ الناس فيه، ثم تمضى برسالتها إلى أبعد الآفاق..

ولقد نجح هذا الإمام فى المرحلة الأولى للدعوة، مرحلة الانتصار على أهواء الجاهلية وأدواء الجهالة، واستنفار «الإخوان» للدعوة إلى شريعة الله، نجاحاً كاد يتجاوز حده.

وكانت دعوة محمد بن عبد الوهاب تسير جنباً إلى جنب مع مراحل الدولة السعودية، فلما دانت الجزيرة العربية لآل سعود فى مطلع القرن التاسع عشر، كانت هذه الدعوة تزلزل قلوب كثير من السلاطين والولاة فى البلاد الإسلامية، ويرون فيها خطراً جائحاً يخشى أن تمتد آثاره فتقضى على

الأوضاع الظالمة والعقائد الفاسدة التى يقوم عليها كثير من العروش والتيجان..

أحس بهذا الخطر سلطان تركيا، وكان يعيش فى تلك الأسطورة التى تقول بأنه ظل الله فى أرضه!!، وأحس به محمد على فى مصر... وكان إحساس تركيا بخطر الدعوة الوهابية مزدوجاً، لأنه كان يحس فى الوقت نفسه بخطر محمد على فى مصر، فأراد أن يضرب الضربة يصيب بها الاثنين معاً، فطلب إلى محمد على أن يغزو نجداً، وأن يقضى على أولئك المتمردين العصاة...

ورآها محمد على فرصة يضرب بها ضربته، باسم خليفة المسلمين: ظل الله فى أرضه!. ثم كانت الغزوات والحروب التى ذهب وقودها بمئات الألوف من أبناء مصر وعشرات الألوف من أبناء الجزيرة العربية.

وقد كانت الحركة التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب خطوة أولى فى سبيل تحقيق دعوته، ولكن الدعوة وقفت عند هذه الخطوة ولم تمض إلى ما وراءها من خطوات تبلغ بها الغاية. ويبدو أن للحروب التى حدثت أثراً كبيراً فى توقف هذه الدعوة عند خطوتها تلك، وهى المناداة بالشريعة الإسلامية لتكون أساس الحكم، والرجوع إلى الكتاب والسُنة فى كل أمر، واستنفار أهل البادية ذوى الحمية والبأس للاضطلاع بأعباء هذه الدعوة..

أما ما وراء ذلك من خطوات تتصل بدعم هذه الدعوة بالعلم. وتخريج أفواج الدعاة الذين لا يقتصرون على سورة الحماس الدينى، دون البصر بشريعة الإسلام فى الحياة، وتعبئة قوى الأمة جميعاً لهذه الدعوة، والعمل على تحقيق الجامعة الإسلامية – فذلك ما قصرت عنه الأسباب، وما انتهى

بالدعوة فى الجزيرة العربية إلى أضيق الحدود، وإن ظلت آثارها تتفاعل وتقوى وتتطور فى كثير من البلاد العربية والإسلامية...

ولقد كان من أثر ذلك أن الملك عبد العزيز آل سعود ذاته، حين أراد أن يخرج قليلاً من نطاق تلك الحياة الجامدة الراكدة، وأن يدفع بلاده خطوات يسيرة فى سبيل الحياة، انقلب عليه أشد أنصاره من «الإخوان» أعداء الداء، ووقعت بينه وبينهم فتنة دامية، انتهت بغلبته عليهم، ووقوع زعيمهم «فيصل الدويش» أسيراً فى يده، وعندئذ تنفس الملك عبد العزيز الصعداء وقال: من اليوم سنحيا حياة جديدة..

وما ظنك فى أن تقوم بينه وبين علماء نجد مشكلة ظل يجاهدهم فيها عشر سنوات، بسبب التليفون والتلغراف؟

وما ظنك فى أن يعقدوا مؤتمراً يحضره زعماؤهم، ينكرون عليه فيه أن بعث بابنه سعود إلى مصر بلد الشرك؟

وإن فى هذين المثلن، وهما قُلٌّ من كُثْر، لشاهداً على مبلغ ما أصاب الدعوة الوهابية من جمود، وقعودها عن الانطلاق فى مراحها المتوالية إلى غاياتها البعيدة، باعتبارها انتفاضة دينية تهدف إلى تحرير العقول من أثر الجهالة والأوهام، وتحرير المسلمين من ربقة الذل والاستعمار.

وتعاقبت على آل سعود ألوان من الرخاء والشدة والهزيمة والانتصار، ثم صار الأمر فى نجد لابن الرشيد، بعد أن دالت دولة آل سعود لتنازعهم فيما بينهم، وما كان يقع بين الإخوة منهم من تنافس على الإمارة تسيل فيه الدماء.

وكان الصبى «عبد العزيز بن عبد الرحمن» الذى لم يشهد من تاريخ أسرته التى امتد سلطانها على الجزيرة العربية، إلا اطلالاً من الذكريات

ينطوى عليها قلبه المفئود، يربض إلى جوار أبيه فى منفاه بأرض الكويت.

وظلت ذكريات المجد الذاهب تلهب عاطفة الصبى وهو فى منفاه، حتى إذا استوى عوده فصار شاباً جلداً، كانت فكرة الثأر قد استولت على جميع مشاعره، وأقسم ليستردن ملك آبائه وأجداده، وليعودن بأبيه وأهله إلى عاصمة ملكهم مظفراً منصوراً.

وأطلع أباه الشيخ على ما انتوى من أمره، فحذره العاقبة وأشفق عليه من المصير.. ولكنه أصر على رأيه، وألحف على أبيه فى أن يأذن له فأذن..

****

كانت الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام تضم قبائل متفرقة وثنية تعبد الأصنام وتعي في حروب مستمرة، كل قبيلة لا تعترف بحق الوجود لغيرها من القبائل يتقاتلون لأي سبب وتكون النتيجة نهب القوى للضعيف وكان القوى يتفاخر بظلمه وقوته.

وكان العرب في ذلك الوقت في حالة اجتماعية سيئة، فالجهالة تسيطر عليهم والعادات السيئة هي أسلوبهم في الحياة تتفشى بينهم الرذيلة والمجون والعبث يقتلون أولادهم خشية إملاق، يوأدون البنات ويقتلون النفس ولا يتخلون عن الثأر.

وكانت الجزيرة العربية رغم ذلك يولع أهلها بنظم الشعر وحفظ الأنساب، وقد عاش أهلها بعيداً عن العالم الخارجي فلم يتأثروا بما حولهم من نهضة فكرية أو تطورات حضارية كما كان الحال في بلاد فارس.

إلا أنه في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عرف الناس طريقهم إلى توحيد الله وعبدوه حقاً وصدقاً، ثم توالت العصور وظهرت التجارة فى صور متعددة فتم الاتصال بأطراف الجزيرة عن طريق التجارة... وكانوا يعتقدون أن الربح في التجارة مباح بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة وأن التطفيف في الكيل والميزان أمر عادى لا غبار عليه ولا يضير الضمير الإنساني... وكان النظام الطبقي مكوناً من سادة وعبيد، الأول يملك كل شيء والآخر ليس له أية حقوق حتى حق الحياة كان يملكه سيده، ولم يكن أهل الجزيرة يعرفون شيئاً عن البعث بعد الموت وأن هناك إلهاً قادراً على حسابهم.

وجاء الإسلام فقضى على هذه التقاليد السيئة ووضع نظاماً جديداً لحياة المجتمع واستجاب الناس لدعوة الحق وأصبح هناك إيمان قوى بالتوحيد وتحريم الخمر وتنظيم التجارة والقضاء على الطبقية ووأد البنات وبدأ الحديث عن الحياة الآخرة واحتاجت الدعوة إلى جهود موفقة ومضنية ونجحت ورسخ الإسلام بين الناس بدعائمه القوية.

وقد تفتحت العيون منذ الصغر على سماع كلمات الإيمان والحديث عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وترامت إلى الأسماع مكة والمدينة وجبل عرفات وتبارى المنشدون والحداءين في التغني بأرض الحجاز.. وكانت الآمال لدى الكبار في كل عشيرة هي أن يهبهم الله طول العمل حتى يقوموا بأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام..

هذه الضراعة بزيارة أرض الحجاز يشترك فيها كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها فالأرض نفسها اكتسبت قداسة خاصة لأنها مهبط نبى الإسلام، وسكان هذه الأرض اكتسبوا محبة خاصة لدى بقية الشعوب

الإسلامية لأنـهم من سكان الأرض المقدسة.

ولسنا هنا في مجال سرد تاريخ الحجاز ونجد والعسير والربع الخالي وهبوط الوحي واعتداءات الحبشة وحروب اليمن وتجارة القوافل شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً وظهور الإسلام وما عانه الرسولﷺ من إيذاء وهجرته إلى المدينة وفتح مكة واستقراره ووفاة النبي وحروب الردة وتولى أبى بكر المسئولية ثم وفاته وخلافة عمر ومقتل عمر العادل وتولى عثمان ومقتل عثمان وولاية على... إلخ ليس هذا موضوع الكتاب لأن كل اسم وكل رأس موضوع يحتاج إلى كتاب منفرد وكتبت فيه العديد من الكتب.

بل سوف نتحدث عن التاريخ القريب الذي قد لا يزال البعض يعايشه وهو تاريخ المملكة العربية السعودية منذ الحكم التركي حيث كان الأتراك يسيطرون على العالم العربي من مشرقه إلى مغربه من شماله إلى جنوبه... ويهمنا هنا توضيح كيفية تكوين المملكة العربية السعودية بالصورة التي هي عليها الآن...

****

تقع شبه الجزيرة العربية فى الركن الجنوبى، الغربى من القارة الآسيوية يحدها شمالاً دولة الكويت والعراق وسوريا والأردن وجنوباً جمهورية اليمن وسلطنة عمان والمحيط الهندى وشرقاً خليج عمان والخليج العربى ودولة الإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين وغرباً البحر الأحمر.

وتضم شبه الجزيرة العربية مجموعة من الوحدات السياسية المستقلة أكبرها المملكة العربية السعودية حيث تبلغ مساحتها حوالى ٢.٤ مليون كيلو متر مربع فى الوقت الذى تبلغ فيه مساحة دولة البحرين ٦٠٠ كيلو متر مربع وتبلغ مساحة دولة قطر ٢٠.٠٠٠ كيلو متر مربع..

وتطل المملكة على شاطئين مفتوحين وصالحين للملاحة طوال العام شرقاً وغرباً هما الخليج العربى والبحر الأحمر.

وكان لاتساع رقعة المملكة وترامى أطرافها واختلاف المناخ ما بين منطقة وأخرى داخل أراضيها أثر على تنوع الإنتاج وأثر على تعثر وصعوبة المواصلات وأثر على اختلاف المستوى الاجتماعى ما بين السكان بحيث انقسموا إلى بدو وحضر... والمشكلة الرئيسية هى قلة العنصر البشرى إذا قيست بعناصر الإنتاج.

والمملكة العربية السعودية اليوم بحدودها المترامية الأطراف وثرواتها الطبيعية الضخمة ما هى إلا نتيجة لصراعات ضخمة استمرت عشرات السنين.

فقد بدأ مؤسسها الحقيقى الملك عبد العزيز يحكم من نجد ومنها استطاع أن يحكم معظم الجزيرة...

ولكى نكّون فكرة صحيحة عن تطور الأمور فلابد أن نعرض للأوضاع الخارجية والداخلية التى فى ظلها تكونت الدولة فالظروف الداخلية فى ذلك الوقت كانت تتلخص فى أن الجزيرة عبارة عن مناطق مختلفة متخلفة يسيطر عليها حكام مختلفو العقلية وبعضهم له ارتباط مع قوى خارج الجزيرة والمجتمع مفكك والقبائل متباينة الأهداف والثروة لا يحكمها سوى العادات والقبلية ومن الصعب توحيدها أو أن تتفق على شىء.

أما الظروف الخارجية فكانت تتلخص فى أن هذه الأراضى طبقاً للقانون الدولى خاضعة لسيادة الامبراطورية العثمانية من الناحية الشكلية، أما بالنسبة للواقع العملى فإن بريطانيا كانت لظروف عديدة هى صاحبة الكلمة العليا فى المنطقة.

ويمكن العودة بأصول المملكة العربية السعودية إلى منتصف القرن الثامن عشر حينما تم تحالف بين محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الدينية وبين محمد بن سعود حاكم منطقة الدرعية مؤسسس الأسرة السعودية.

كان محمد بن عبد الوهاب الذى ولد فى نجد – كما ذكرنا – من أكبر أتباع مذهب الإمام أحمد بن حنبل ومن أكبر الدعاة الدينيين للعودة بالإسلام إلى طبيعته الأولى وتخليصه من البدع والخرافات التى أدخلت عليه فهاجم ما جد من أمور دخيلة على الإسلام ووقف ضد الكثير من العادات الداخلية التى تسيئ إليه.

فى عام ١٧٤٥ تم فى نجد التحالف ما بين محمد بن عبد الوهاب الزعيم الدينى ومحمد بن سعود الحاكم الزمنى القوى وتوج هذا التحالف بزواج عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى كريمة محمد بن عبد الوهاب... وكان هذا الزواج فى غاية الأهمية لتقوية أواصر العلاقات السياسية على الصعيد القبلى.. وكان نتيجة ذلك أن قامت قبائل كثيرة تعلن تأييدها وولاءها ومبايعتها للزعيمين وكانت القبلية فى واقع الأمر قد مزقت المجتمع هناك بسبب كثرة الحروب المستمرة ما بين القبائل وبعضها البعض، ولم يكن باستطاعة أى زعيم أن يكون زعيماً قوياً إلا بعد أن ينجح فى توحيد السكان، وكان التحالف بين العقيدة والحكم هما العامل الرئيسى فى جمع شمل القبائل المتنافرة.

وظل محمد بن سعود يحكم بقوة وحزم حتى عام ١٧٦٥، وفى عهده توحدت قبائل نجد سياسياً واجتماعياً وعسكرياً فى ظل القيادة السعودية الوهابية.... وخلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر اشتد ساعد نجد

وتمكنت من غزو العراق فى عام ١٨٠١ وتم الاستيلاء على مدينة كربلاء، وفى عام ١٨٠٣ تم الاستيلاء على مدينة مكة وفى العام التالى تم الاستيلاء على المدينة وما أن حل عام ١٨١٢ حتى كان الحكم يسيطر على معظم الصحراء العربية وامتد نفوذه حتى مدينة حلب فى الشمال... وكان هذا التوسع سبباً فى خلق المشاكل للدولة الجديدة حيث اكتشفوا أنه ليس بمقدورهم الدفاع عن ممتلكاتهم المترامية الأطراف.

وكان الاستيلاء على كل من مكة والمدينة سبباً فى إثارة الباب العالى مما كان له سبب مباشر فى تدخل الباب العالى وقيام السلطان محمود الثانى بتكليف محمد على وإلى مصر بالتوجه لحرب حكام نجد وإخراجهم من الأراضى المقدسة... ولما كان محمد على يود أن يوسع نفوذه خارج مصر فإنه أسرع بإيفاد نجله إبراهيم باشا لمحاربة الوهابيين والاستيلاء على مدينة الدرعية.. وما أن حل عام ١٨٣٠ حتى كان حكم الوهابيين قد تقلص وتركز فى وسط المنطقة الشرقية للجزيرة العربية.. وقد حاول محمد على أن يفرض سيطرته ونفوذه على هذه المنطقة إلا أن الضغط البريطانى أرغمه على الانسحاب.

وكان أول اتصال بين البريطانيين وحكام نجد فى مطلع القرن التاسع عشر بسبب تزايد عمليات القرصنة فى الخليج وكان على انجلترا أن تجد الوسيلة لحماية أمن سفنها حرصاً على تنمية تجارتها وأبعاد أى قوة أجنبية عن المنطقة فى الوقت نفسه.

وكان يسيطر على الساحل العمانى قبيلة القواسم المؤيدين لدعوة محمد بن عبد الوهاب ورغم المحاولات المتكررة من حكومات الهند والحكومات الأوربية لنشر الأمن فى المنطقة إلا أن تلك الحملات لم تنجح

فى وضع حد للإغارة على السفن خاصة البريطانية وانتهى الأمر بتوقيع اتفاقية فى عام ١٨٢٢ بين حكام عمان وحكومة بومباى أصبح بموجبها من حق الحكومة البريطانية السهر على الأمن فى الخليج والقضاء على القراصنة هناك، إلا أن الحكومة البريطانية استغلت المعاهدة وفسرتها كما تشاء وتدخلت فى كل شىء بحيث أصبحت القوة المسيطرة فى الخليج.

وفى عام ١٨٣٥ وقعت معاهدة أخرى لضمان السلام والأمن فى الخليج بين بريطانيا ومشايخ الخليج وكان أهم ما فى هذه المعاهدة هو الرجوع إلى السلطات البريطانية فى حالة وقوع أى نزاع بين المشايخ أنفسهم... ووقعت معاهدات مماثلة فى عام ١٨٥٣ تقضى بقيام سلام دائم وتنهى المنازعات فى المنطقة، وما أن حل النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى أصبح الساحل العربى للخليج يعرف باسم الإمارات المتصالحة.

وخلال حكم فيصل بن تركى (فيصل الكبير) ما بين أعوام ١٨٣٤ – ١٨٣٨ ، ١٨٤٣ – ١٨٦٥ بدأت الاتصالات ما بين الحكام السعوديين والمسئولين البريطانيين.. فعقب عودة فيصل من القاهرة عام ١٨٤٣ (حيث ظل بها أسيراً منذ عام ١٨٣٨ عندما سافر مع الجيش المصرى عقب خروجه من الجزيرة العربية) فكر فى استعادة أملاك عائلته وكان أول ما فكر فيه هو احتلال البوريمى وما حولها فلجأ مشايخ تلك المناطق لبريطانيا يطلبون منها الحماية وكان رد بريطانيا عليهم غير مشجع وأكدوا لهم أنه ليس فى نيتهم التدخل فى الشئون الداخلية للسعوديين وأن مهمتهم فى المنطقة هى حماية أمن الملاحة فى الخليج.

وفى عام ١٨٤٨ طلب فيصل من المقيم البريطانى فى المنطقة أن يساند ممثله فى عمان لكى يتدخل لدى قبائل المنطقة لحماية أمن المؤن

والمواد التى تصل إليه عن طريق الحسا...

ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاة فيصل ظل آل سعود وأتباع محمد بن عبد الوهاب يمارسون نوعاً من السيطرة على المنطقة فى مناسبات مختلفة فى البحرين وقطر والإمارات وعمان.. وفى عام ١٨٤٩ استعان فيصل بشريف مكة محمد بن عون لمد نفوذه على المناطق الساحلية على الخليج رغم ما كان بين الحاكمين من منازعات وتنافس وبرغم أن كليهما المفروض أنه يخضع للحكم العثمانى...

وقد حاول فيصل بسط نفوذه على البحرين مرة أخرى عام ١٨٥١ مستعيناً بالمقيم البريطانى إلا أن الأخير اعتذر بسبب عدم وجود السفن الكافية وكانت حجة فيصل فى غزو البحرين هو امتناعها عن تأدية الزكاة إلا أن بريطانيا أكدت بأنها لا تعترف بسلطة حكام نجد على أى إقليم يقع على ساحل الخليج شرقى الجزيرة العربية وأنهم يتعاملون مع تلك المشيخات على أنها مناطق مستقلة منذ أكثر من ثلاثين عاماً.. وكانت انجلترا حريصة على أن لا يمتد أى نفوذ غير نفوذها إلى منطقة الخليج حتى ولو كان هذا النفوذ عربياً وفى الوقت نفسه فلم يكن يهمها ما يجرى داخل الجزيرة العربية ما دام ذلك لا يؤثر على أمن الملاحة فى الخليج وسلامة طرق مواصلاتها إلى الهند.

ولما فشل فيصل فى الحصول على تأييد بريطانيا بدأ يعمل على تقوية نفسه كممثل مستقل للسلطة العثمانية... وكان المنافس الرئيسى له هو شريف مكة، إلا أن العداوة بينهما بدأت تخمد وحل الوفاق محل النزاع فى عهد خليفة فيصل.

وفى عام ١٨٦٥ بدأ نشاط حكام نجد فى التزايد على ساحل عمان

مما اضطر المقيم السياسى البريطانى (لويس بيلى) التوجه إلى الرياض للبحث فى الموضوع ولكنه وصل فى وقت كانت صحة فيصل فيه متدهورة وكانت العائلة الحاكمة ممزقة بسبب المنافسة على تولى الحكم مما اضطر بيلى إلى العودة دون أن يكمل المهمة التى قدم من أجلها... ومع تزايد النفوذ السعودى الوهابى فى عمان ومقتل بعض الرعايا الانجليز بعث بيلى إلى الرياض يطلب تعويضات عن مقتل هؤلاء الرعايا، ولتأكيد جدية تهديده فقد أرسل بعض السفن الحربية إلى منطقة الدمام وقد ترك هذا التصرف جرحاً فى نفس الحكام السعوديين واضطروا فى عام ١٨٦٦ فى عهد عبد الله نجل فيصل الذى تولى الحكم عقب وفاة والده إلى أن يعقد اتفاقاً مع بيلى يتعلق بالأمن فى المنطقة، وقد اعتبر السعوديون هذا الاتفاق معاهدة مع بريطانيا العظمى فى الوقت الذى كان البريطانيون ينظرون إلى هذا الاتفاق على أنه مجرد اتفاق مع حاكم إحدى الإمارات داخل الصحراء.

وقد تضمن هذا الإعلان اتفاقاً بعدم الاعتداء على مسقط والإمارات المتصالحة وقد شهدت الفترة من عام ١٨٦٥ إلى عام ١٨٩١ أحداثاً كثيرة كان من أهمها استيلاء الأتراك على منطقة الحسا عام ١٨٧١ ومساعدة أسرة ابن الرشيد على الاستيلاء على الحكم فى منطقة جبل شهر شمال منطقة نجد، وتحالف محمد رشيد مع الأتراك هو بداية لتقلص النفوذ السعودى وعلو نجم أسرة ابن رشيد فى وسط الجزيرة العربية...

وقد كان العامل الرئيسى فى تدهور سلطة آل سعود هو المنافسة على الحكم التى قامت منذ عام ١٨٧٣ بين عبد الله بن فيصل وشقيقه سعود والتى انتهت بوفاة سعود مصاباً بمرض الجدرى، إلا أن أنجال سعود حملوا راية التصدى لحكم عمهم وظلت الأوضاع تتدهور داخل العائلة

الحاكمة وفى الوقت نفسه استغل الأتراك هذه الظروف وبدأوا يوطدون أقدامهم فى شرق الجزيرة العربية... وفى الواقع لم يكن الأتراك قبل عام ١٨٧١ يمارسون أى نوع من السلطة فى تلك المناطق إلا أنه مع الأوضاع السائدة ومع تعيين مدحت باشا حاكماً عاماً لبغداد بدأ الباب العالى يتبنى سياسة نشطه فى شرق الجزيرة ويتوسع فى ذلك فى كل المناطق التى تتكلم اللغة العربية وخاصة فى عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ – ١٩٠٩).

وعندما غادر مدحت باشا بغداد عام ١٨٧٢ كانت الأمور قد استقرت فعلاً فى شرق الجزيرة وفى منطقة نجد لصالح تركيا، إذ أصبحت تسيطر على خطوط المواصلات من الخليج إلى داخل الجزيرة واتبعت سياسة حازمة تقوم بمقتضاها بالقضاء على قوة أى قبيلة تقوى وبدأوا يثيرون القبائل بعضها ضد البعض لتحطيم قوتها..

وفى عهد عبد الرحمن بن سعود ١٩٨٩ – ١٨٩١ هاجمه ابن رشيد واستولى على نجد فلجأ عبد الرحمن إلى الكويت هو وأسرته وكان الباب العالى يقوم بصرف معاش له.. وظلت الأمور تسير كذلك لمدة عشر سنوات.

وفى عام ١٨٩٦ استولى الشيخ مبارك على السلطة فى الكويت، وفى العام التالى طرأ تغيير كبير على الأوضاع فى داخل الجزيرة العربية عقب وفاءة محمد بن رشيد حيث خلفه ابنه وكان ضعيفاً غير مهيأ للقيادة وبدأت القبائل تخرج على طاعته وتمزق ملك والده، وكانت هذه هى فرصة عبد الرحمن بن سعود إلى العودة إلى نجد والتى انتهزها نجله عبد العزيز وهو بعد فى العشرين من عمره.

وبتحالف مبارك مع عبد الرحمن قام الأخير فى عام ١٩٠٠ بغزو

نجد وعهد بقيادة جيوشه إلى نجله عبد العزيز الذى كان يبلغ من العمر حوالى ٢٢ عاماً واكتفى الوالد بأن يكون إماماً دينياً تاركاً تصريف الأمور الدنيوية لنجله عبد العزيز..

وكان نجاحه فى الاستيلاء على الرياض فى عام ١٩٠٢ تثبيتاً لمركزه كقائد للأسرة السعودية ١٥ يناير ١٩٠٢ خاصة وأنه قضى على قوات ابن رشيد الكثيرة العدد والتى كانت تستمد العون من تركيا.

وقد أصبح استيلاء عبد العزيز على الرياض أسطورة من الأساطير العربية، ونتيجة ذلك، أصبح يعد من المشايخ المشهود لهم بالشجاعة والإقدام وحسن الرأى رغم صغر سنه وقد شجعه ذلك على أن يستمر فى غزواته لتحقيق الانتصار تلو الآخر لتوسيع مناطق نفوذه وكان يحلم بالعودة بملكه إلى أيام أجداده فى القرن الماضى.. وبعد أن استقر الأمر لعبد العزيز فى الرياض فكر فى أن يتحالف مع بريطانيا، حتى يضمن مساندة قوة لها أثرها فى المنطقة له، فقام بإيفاد بعثة فى عام ١٩٠٣ لمقابلة المقيم البريطانى فى البحرين مستر / بريدو) للحصول على مساندة بريطانيا وأوضحت البعثة للمقيم البريطانى أن هدفهم هو طرد الأتراك من منطقة الإحساء ولا يمكن تحقيق هذا الهدف إلا بمساعدة بريطانيا لابن سعود حيث إنهم يخشون أن يشن الأتراك هجوماً بحرياً عليهم وقد تهرب المقيم البريطانى من إعطاء تعهد حاسم للبعثة بذلك ووعد بدراسة الموضوع من كافة زواياه وإبلاغهم.

وخلال المحادثات الدائرة بين بريطانيا وممثلى الأمير عبد العزيز عرض القنصل الروسى فى إيران على ممثلى الأمير عبد العزيز استعداد بلاده لتقديم المعونة التى يحتاجها ومع ذلك لم تهتم انجلترا بهذا العرض

كما لم يستجب له ابن سعود.. وفى عام ١٩٠٤ وعقب تحقيق الأمير عبد العزيز انتصارات حاسمة فى أكثر من منطقة بدأ البريطانيون يراجعون أنفسهم خاصة وأن عبد الرحمن طلب المساندة ولوح بالعرض الروسى... وكان أقصى ما فعلته بريطانيا هو أن طلبت من وزارة الخارجية فى الهند من لندن أن تبعث بتحذير للباب العالى ضد تقديم أى مساعدة عسكرية لأى حاكم فى الجزيرة وعدم تدخلها فى الشئون الداخلية للجزيرة العربية..

ولما كانت سياسة بريطانيا منذ البداية هى السيطرة على الخليج، فقد وجدت أن انتصار ابن رشيد معناه سيطرة غير مباشرة لتركيا على المنطقة وبالتالى تهديد للسيطرة البريطانية ومع ذلك ظلت بريطانيا مترددة فى اتخاذ موقف حازم تجاه طلب الأمير عبد الرحمن.

وبعد الانتصارات التى حققها عبد العزيز بن سعود وتوسعاته فقد كان فى حاجة إلى المساندة لكى يحافظ على الأقل على ما استولى عليه ولما كان قد فشل فى الحصول على المساندة البريطانية فقد اتجه للحصول على تأييد تركيا .

****

وقد عمل عبد العزيز على توطيد دعائم ملكه فى نجد والقضاء على كل معارضة له وتم له ذلك فى عام ١٩٠٦ بمقتل ابن رشيد وتم تحالفه مع حاكم الكويت وبدأ يسعى من خلال صداقاته معه بأن يتوسط له لدى بريطانيا لكى تعترف به وعرض أن يقبل مبعوثاً سياسياً فى نجد وأن يوقع معاهدة عدم اعتداء وغيرها مع بريطانيا، إلا أنه رغم محاولات المقيمين السياسيين لبريطانيا فى المنطقة وحتى فى الهند لحث وزارة الخارجية فى لندن للموافقة على ذلك إلا أن كافة المحاولات قد فشلت فى عقد أى نوع

من التحالف بين البلدين وكان رد لندن دائماً بأن ما يهم السياسة البريطانية هو الخليج فقط وليس داخل الجزيرة العربية..

إلا أنه يمكن القول بأنه رغم عدم وجود مساندة مباشرة من انجلترا للأمير عبد العزيز إلا أن علاقة بريطانيا الوثيقة بالشيخ مبارك حاكم الكويت وعلاقة الأخير بأسرة سعود التى كانت علاقة مساندة مطلقة فإنه يمكن القول بأنه كانت هناك مساندة غير مباشرة لنظام ابن سعود من بريطانيا من خلال الشيخ مبارك فى البداية.

منذ عام ١٩١٠ بدأ الأمير عبد العزيز بن سعود يعلو نجمه وتستقر أوضاعه الداخلية ولم يكن شغله سوى الاعتراف الدولى به أو بالأحرى اعتراف بريطانيا بالذات حيث إنها كانت فى ذلك الوقت صاحبة اليد العليا فى المنطقة.. ومن ناحية بريطانيا فقد انقسم الرأى بين المسئولين بالنسبة للاعتراف به ففريق يرى ضرورة ذلك حيث إنه سيصبح له شأن فى المنطقة وهم فى حاجة إلى قوة يعتمدون عليها فى المستقبل وفريق آخر خاصة المسئولين عن وزارة الخارجية فى لندن يفضلون عدم الزج بأنفسهم فى مثل هذه الموضوعات حتى لا يثيروا أية حساسية لدى الباب العالى وخاصة أنه كان هناك كثير من الموضوعات المعلقة بين بريطانيا وتركيا يراد تسويتها ولا داعى لاتخاذ أى اجراء مساند لحاكم نجد يثير الحساسية وقد يعرقل المفاوضات بين البلدين.

وعلى الصعيد الداخلى كان الأمير عبد العزيز يرى أن علاقاته مع شريف مكة الحسين بن على ودية خاصة وأن كل منهما يعمل فى مجاله وليس هناك ما يدعو للمنافسة بينهما، إلا أن شريف مكة طلب فجأة من حاكم نجد أن يقوم بدفع الجزية عن إحدى المناطق التى يسيطر عليها

والتى لم تدفع جزيتها منذ ثلاثين عاماً، وحجة شريف مكة فى هذا الطلب أن سكان هذه المنطقة من رعايا تركيا وإذا لم يتم عبد العزيز بدفع الجزية فسوف يحرضهم على إنهاء تحالفهم معه. ولما امتنع عبد العزيز عن تنفيذ ما طالب به الشريف حسين قام الأخير بإيفاد جيش استطاع أن يأسر سعد شقيق عبد العزيز، مما اجبر الأمير عبد العزيز على أن يخضع لطلبات الشريف حسين حتى يستطيع استعادة شقيقه من الأسر، وما أن تم ذلك حتى تنكر ابن سعود لما تم الاتفاق عليه مع الشريف حسين بحجة أن ما تم الاتفاق عليه كان تحت ضغط الظروف ولم يكن عن رضاء مطلق منهم.. واستعد عبد العزيز لمواجهة شريف مكة وحاول الحصول على تأييد بريطانيا والشيخ مبارك إلا أنه فشل فى ذلك، حيث إن المفاوضات كانت قد بدأت بين انجلترا وتركيا بالنسبة لموضعات دولية هامة.

وخلال تلك الفترة تدهورت العلاقات ما بين نجد والحجاز وبدأت التهديدات بين الجانبين، وقامت تركيا من جانبها بالاتصال بالأمير عبد العزيز فى مطلع عام ١٩١٢ لكى تكسبه إلى جانبها واقترح بن سعود على تركيا أن تظل الدول العربية وحدات سياسية مستقلة وكما هو عليه الحال، على أن تخضع لإدارة واحدة ولتكن تركيا أو أن تكون عدة دول يتم اختيار قادتها بالانتخاب وفى كلتا الحالتين سيظل العرب تحت السيادة التركية... إلا أن تركيا لم توافق على أى من الاقتراحين.

وفى عام ١٩١٣ انتهز عبد العزيز فرصة انشغال تركيا فى حروبها فى شبه جزيرة البلقان بالإضافة إلى هزيمتها على يد إيطاليا، فقام بالاستيلاء على منطقة الإحساء وطرد الحامية التركية منها والتى كانت موجودة هناك منذ عام ١٨٧٢، ورغم محاولات تركيا استعادة المنطقة بكافة

الوسائل إلا أنها لم تستطع. وأخيراً توقفت تركيا عن محاولاتها الفاشلة لإعادة الإحساء إلى سيطرتها.

ومع ذلك كان الأمير عبد العزيز راغباً فى التعاون مع تركيا خاصة وأنه تأكد من أن بريطانيا لن تسانده، فحتى ذلك التاريخ ورغم صداقته مع المندوب السامى البريطانى المقيم فى الكويت ورغم التلميح والتصريح بضرورة إيجاد علاقات بين الجانبين إلا أنه لم يتم أى شىء على الإطلاق بل كانت الآراء مختلفة حتى فى مدى أهمية صداقة عبد العزيز بالنسبة لبريطانيا العظمى ولكن الشروط التى فرضتها تركيا لهذا التعاون لم تكن مقبولة من جانبه حيث طلبت اثباتاً لولائه ما يلى:

١ – أن يقوم بإيفاد أبنائه للدراسة بالقسطنطينية.

٢ – أن يؤدوا الخدمة العسكرية هناك.

٣ – أن يعترف بالسيادة التركية على نجد ويتمثل ذلك فى قبوله لقبا تركيا ويصدر مرسوم تعيينه حاكماً على نجد من تركيا.

٤ – أن يقوم بتسليم جميع المراسلات والوثائق التى ترد إليه أو يتبادلها مع الحكومة البريطانية إلى الباب العالى.

ولما كان عبد العزيز يعلم أن الحكام العرب جميعهم غير راضين عن سياسة تركيا بالنسبة لهم وأنهم ينظرون إليه شخصياً كمثل يحتذى به فى علاقاتهم مع تركيا فإنه رفض أن يقبل الشروط التركية وفضل أن يستقل فى معاملاته خاصة وأنه كان على ثقة من المتاعب التى تواجهها تركيا فى أوربا وأنه لن يلحقه أى أذى بالنسبة لتصرفاته هذه واتجه مرة أخرى تجاه بريطانيا يحاول إيجاد علاقات معها، ومع تأييد المندوب السامى البريطانى فى المنطقة وتحمسه للأمير عبد العزيز إلا أن وزارة الخارجية البريطانية

أصمت الأذان ورفضت قيام أية علاقة مع حاكم نجد.

ووجد ابن سعود نفسه فى خضم بحر سياسى متلاطم فلا هو بقادر على الحصول على مساندة من بريطانيا ولا هو بقابل للتوصل إلى حل مع تركيا خاصة وأن الأخيرة بدأت تسبب له بعض المتاعب الداخلية... وفى الوقت نفسه ظلت اتصالاته مستمرة مع المندوبين البريطانيين فى المنطقة الذين نصحوه بضرورة التوصل إلى حل مع الباب العالى ولما قبل ذلك كانت شروط تركيا فى هذه المرة محددة وواضحة وأقسى من شروطها السابقة وهى:

١ – عودة تمركز الحامية التركية فى منطقة الإحساء.

٢ – يعين القضاة ورجال العدل بفرمانات يصدرها السلطان.

٣ – طرد جميع التجار والممثلين السياسيين والأجانب الموجودين فى نجد.

٤ – جميع الاتصالات مع الدول الأجنبية ترسل إلى الباب العالى.

٥ – دفع ثلاثة آلاف جنيه تركى جزية للباب العالى.

٦ – عدم منح أى امتياز أو تقديم أى خدمات للدول الأجنبية.

ولم يقبل عبد العزيز هذه الشروط وأبلغ المندوب البريطانى أنه أصدر تعليماته لرجاله فى الأقاليم للسماح لرعايا بريطانيا بالإقامة ومزاولة التجارة فى مدن نجد وحمايتهم وطلب مقابل ذلك أن تمده بريطانيا بكمية من الأسلحة والذخيرة، ورغم توصية المندوب السامى البريطانى بضرورة إجابة عبد العزيز لطلبه خوفاً من أن يقوم بالحصول على هذه الأسلحة بطريقة غير شرعية إلا أن رد المسئولين فى الخارجية البريطانية كان تجاهل الطلب وإبلاغ المندوب البريطانى بأنهم على استعداد للتوسط بين عبد العزيز

والسلطان لتحسين علاقاتهم وأن بريطانيا ستساند عبد العزيز فى هذا الموقف خاصة وأن بريطانيا كانت تتعامل مع نجد كأحد الأقاليم التركية فى الوقت الذى كانت ترفض فيه الاعتراف بأى نوع من السيادة التركية على الأقاليم الواقعة على الخليج.. بل وأكثر من ذلك نجد أن بريطانيا حرصت فى البداية أن تكون هناك علاقات قوية وأخوية بين عبد العزيز وحاكم الكويت فلما قوى عبد العزيز خشيت انجلترا من تحالف قوى بينهما أو خافت أن تمتد سيطرته إلى الكويت نفسها بعد أن استولى على الإحساء فبدأت تزرع بذور الشك فى نفس حاكم الكويت للتخلى عن مساندته لابن سعود.

****

وما أن قامت الحرب العالمية الأولى حتى أصبح واضحاً أن الرجل المريض قد أشرف على نهايته خاصة أن السنوات السابقة على الحرب كانت قد قطعت أوصاله، وأصبح عدم الاستقرار الداخلى هو طابع الدولة التركية منذ قيام حركة تركيا الفتاة، وأن ما بذله السلطان عبد الحميد من تتويج لمجده كخليفة للمسلمين فى كافة أنحاء العالم لم يكن سوى ضوء واه لم يلبث أن خبى بقيام الحرب..

وبقيام الحرب وجدت بريطانيا نفسها فى مأزق سياسى، فهى ملزمة بالتعامل مع الدول العربية حتى تستطيع أن تكسب الحرب، والدول العربية تابعة لتركيا التى دخلت ضدها حرباً لم تعرف نتائجها بعد – فقد كانت سياسة بريطانيا السابقة المحافظة على الامبراطورية العثمانية لا حباً فيها ولكن للمحافظة على التوازن الدولى فى أوربا ثم المحافظة على خطوط مواصلاتها داخل الامبراطورية العثمانية ورغم الاتفاقات الجانبية بين الدول الكبرى والوعود التى أعطيت للعرب إلا أن ما يهمنا فى هذا المجال ما كان

يجرى داخل الجزيرة العربية... فالجزيرة يحكمها أكثر من شخص بينهما شخصان كل منهما أقوى من الآخر بطريقة أو بأخرى ولا يمكن الاتفاق مع شخص وتجاهل الآخر، لا يمكن الاعتماد على عبد العزيز وتجاهل الشريف حسين ولا يمكن الاتفاق مع الشريف حسين وتجاهل عبد العزيز لأن ذلك لن يكون فى مصلحة بريطانيا والاتفاق الصريح مع كليهما فى وقت واحد أمر من الصعب الوصول إليه وغير مضمون العاقبة فى الوقت نفسه. ووجدت بريطانيا أن علاقاتها مع الجزيرة العربية تحكمها النقاط التالية خلال الحرب العالمية الأولى:

أولاً: المفاوضات التى جرت بين بريطانيا وعبد العزيز عام ١٩١٥ كانت تشكل نقطة تحول فى علاقات بريطانيا به.

ثانياً: كان القرار البريطانى هو مساندة الشريف حسين على أساس أنه قائد الثورة العربية.

ثالثاً: كانت أهمية عبد العزيز بالنسبة لعرقلة النشاط البريطانى فى الشرق الأوسط أمراً ثانوياً فى حين أن الدور الذى كان يقوم به الشريف حسين كان عكس ذلك.

وعلى ذلك قررت بريطانيا مساندة الشريف حسين على أساس أنه العامل المؤثر فى السياسة العربية آنذاك، وكانت نتيجة تلك السياسة توتر للعلاقات بين بريطانيا وابن سعود ومع ذلك استمر ابن سعود فى تصميمه على عقد معاهدة تحالف ولو شكلية مع بريطانيا.

والواقع أن عبد العزيز كان بعيد النظر وكان حريصاً وقد بدأت الحرب بين قوة المفروض أنه خاضع لسلطاتها وقوة أخرى واقعها أنها على مدى خطوات منه وتسيطر على الخليج، وهو يواجه المتاعب داخل الجزيرة،

فهناك منافسون هم آل رشيد والشريف حسين وحتى القبائل الخاضعة له لا تستقر على ولائها لمدة طويلة وكثيراً ما تسبب له المتاعب والحكم الذى كان يسانده فى الكويت أصبح مشكوكاً فى مساندته نظراً لوفاة حاكم الكويت صديقه.

لذلك ظل عبد العزيز يلح على بريطانيا لعقد معاهدة تحالف يستطيع من خلالها أن يضمن الاعتراف الدولى به وألا يقع من جهة أخرى تحت طائلة السلطة العثمانية ومؤملاً أن يجد نفسه فى موقع يستطيع منه أن يواجه الشريف حسين الذى بدأ سلطانه يتزايد يوماً بعد يوم ومعاملته مع عبد العزيز تتسم بالكبرياء والغطرسة...

ومع استمرار رفض بريطانيا الدائم عقد معاهدة معه أرغم على توقيع معاهدة مع تركيا فى ١٥ مايو ١٩١٤ رغم كراهيته للأتراك ولكن خوفاً من أن تقوم القوات التركية بغزو أراضيه انتقاماً منه لاستيلائه على منطقة الإحساء.

ولما تم ذلك بدأت انجلترا فى التودد إلى ابن سعود مخافة أن ينضم بقواته إلى المعسكر التركى المعادى لها فأعادت الاتصالات معه لعقد معاهدة بين الجانبين وبعد مداولات استغرقت وقتاً طويلاً اقترحت بريطانيا عقد معاهدة عامة يتلوها التفاصيل بعد ذلك وتتضمن أربع نقاط أساسية هى:

أولاً: اعتراف بريطانيا بالأمير عبد العزيز كحاكم مستقل لمنطقة نجد والإحساء والقطيف وضمان استمرار وراثة الحكم فى عائلته على أن تتم الموافقة على الحاكم الجديد من القبائل وتوافق عليه حكومة صاحبة الجلالة.

ثانياً: فى حالة الاعتداء على أراضى عبد العزيز من أى قوة أجنبية فإن الحكومة البريطانية مستعدة لمساعدته إلى الحد المعقول وبالطريقة التى يتطلبها الموقف.

ثالثاً: فى مقابل ذلك يتعهد حاكم نجد بألا يتعامل مع أية قوة أجنبية أخرى ماعدا الحكومة البريطانية ويكون ملزماً باتباع هذا النصح.

رابعاً: يتعهد الجانبان بتوقيع اتفاقية مفصلة لتنظيم العلاقة بينهما تتضمن النقاط الأخرى التى تهم الجانبين طالما تسمح الظروف بذلك.

ولم يوافق ابن سعود على هذه النقاط ولم ينفذها خاصة وأنه كان يرتبط بمعاهدة مع تركيا، ومع ذلك فإننا نجد أنه هاجم ابن رشيد الخاضع لسطان تركيا... وقد رفض عبد العزيز أن يرسل قواته إلى البصرة لمساندة الانجليز ضد العثمانيين حينما طلبوا ذلك منه اثباتاً لحسن نواياه تجاههم، وبدأ يقوم ببعض التصرفات التى توحى للبريطانيين بأنه سينضم لمعسكر الأعداء ولما كانت بريطانيا حريصة على كسب وده خاصة فى ظروف الحرب فقد قامت بتعديل النقاط السابق عرضها عليه طبقاً لما اقترحه عليهم فألغت شرط موافقة الحكومة البريطانية على المرشح للحكم كما ألغت شرط موافقتها أيضاً على قيامه بالاتصال بالدول الأجنبية وبالنسبة لمساعدته وقت الحرب فقد ألغى شرط ترك الأمر لتقدير بريطانيا وأصبحت بريطانيا ملزمة بتقديم المساعدة له فى أى مكان وتحت أى ظرف من الظروف. وقد وافق عبد العزيز على ذلك ووقعت الاتفاقية بين الجانبين فى ٢٦ ديسمبر عام ١٩١٥، وحينما أراد عبد العزيز بعد ذلك أن يطلب معونة بريطانيا لمواجهة الشريف حسين طبقاً للمعاهدة بين الجانبين اعتذرت بريطانيا بأنها حينما حددت الدول الأجنبية لم تقصد على الإطلاق تقديم المساندة فى وجه

العرب الآخرين .

وبعقد هذه المعاهدة خرقت بريطانيا سياستها التقليدية فى المنطقة والتى حافظت عليها لمدة طويلة وهى البعد عن التدخل فى الشئون الداخلية داخل الجزيرة العربية.

وواقع الأمر أن الأمير عبد العزيز لم يقدم لبريطانيا المعونة التى كانت تتوقعها منه خلال الحرب العالمية الأولى فحينما طلبت منه إيفاد قوات معينة طلب مدافع وأسلحة وذخيرة وأموال لم تسلمها له وكان كل ما فعله لإرضاء بريطانيا هو إيقاف موجة العداء بينه وبين الشريف حسين لمساندة الأخير لبريطانيا واعتمادها عليه فى جمع كلمة العرب للوقوف خلفها لمواجهة الأتراك..

وحينما قدمت له بريطانيا معونة عسكرية ومالية لمساندته عن طريق حكومة الهند كانت معونة لا تغنى ولا تسمن من جوع أو التصدى لأى مواجهة عسكرية... فى الوقت الذى ازدادت فيه معونة بريطانيا المادية والمعنوية للشريف حسين حتى أنه أعلن نفسه ملكاً على الحجاز وضم إليه الأراضى التى يحكمها عبد العزيز مما آثار حفيظة الأخير عليه واتجه يطلب الرأى والمشورة من بريطانيا التى استطاعت أن تهدأ الموقف بينهما بل وتقنع حاكم نجد وحاكم الكويت لمساندة الشريف حسين خلال هذه المرحلة لأنها لا تعتبر مساندة شخصية له بل مساندة للحفاظ على حقوق العرب فى كل مكان من أن تذهب أدراج الرياح وسط خضم حرب شعواء أتت على العالم كله ولا يعلم أحد متى ستنتهى ومن المنتصر ومن وقود تلك الحرب وماذا سيكون عليه المستقبل بعد أن تضع الحرب أوزارها...

وكان الوضع نفسه داخل الجزيرة العربية غير مفهوم فالشريف

حسين يحاول أن يساعد الانجليز بكل ما يملك من ماديات ومعنويات على أمل أن يحظى بحكم العرب وخلافة المسلمين إذا انتصر الانجليز.. وعبد العزيز يحاول أن يحتفظ بأرضه كما هى ويخشى أن يغزوه الأتراك وأن يطغى عليه الشريف حسين خاصة بعد أن أعلن نفسه ملكاً، وابن رشيد داخل الجزيرة لا يعلم مع من يقف فهو حليف الأتراك، والأتراك هزموا فى بغداد. والمدينة نفسها وتقع فى قلب الجزيرة العربية لازال يسيطر عليها الأتراك ويحكمها فخرى باشا الحاكم التركى ورغم حصارها من قوات الشريف حسين فإن المؤن تصل إليها عن طريق ما يمده بها الشيخ سالم حكم الكويت ومساعدة ابن رشيد والقواسم. وعبد العزيز المفروض أنه حليف الانجليز عاجز عن القضاء على وقف الامدادات مما جعل الشريف حسين يشكك الانجليز فى مدى جدية معاونة ابن سعود له... وانجلترا لا يهمها فى ذلك إلا تجميع العرب فى مواجهة تركيا حتى تكسب الحرب وليكن بعد ذلك ما يكون خاصة أنها وقعت فعلاً معاهدة سايكس – بيكو – مع فرنسا بتقسيم المشرق العربى دون علم هؤلاء الذين يخلصون لها من العرب ويتبارون فى مساعدتها حتى تكسب الحرب.

وكانت سياسة بريطانيا داخل الجزيرة العربية متناقضة فهى متعهدة لكل من الشريف حسين وعبد العزيز بالمساعدة وكلاهما يود الانقضاض على الآخر والشريف حسين كل همه ألا يقوى منافسه لأن فى قوته امتداداً ونشراً لدعوة محمد بن عبد الوهاب الذى يحاربه، وانجلترا لا تريد اغضاب أحدهما وهى فى شدة الحاجة لأى مساعدة لأن تركيا لازال لها مؤيدون فى الحجاز ومن الممكن أن ينقضوا عليها فى أى وقت فتعرقل خطط الحلفاء.

وكانت السياسة التى حرصت بريطانيا على تنفيذها داخل الجزيرة

العربية هى سياسة التوازن، وتنفيذاً لتلك السياسة قامت بإحياء وجود ابن رشيد المنافس الثالث لكل من الشريف حسين وابن سعود لا حباً فيه ولكن لكى يكون ورقة فى يدها فى المستقبل تهدد به من يخرج على طاعتها من الجانبين... وكانت قوة الشريف حسين ظاهرة وعبد العزيز لو أتيحت له فرصة الحصول على المال والسلاح لفاقت قوته قوة الشريف حسين، لذلك وبناء على نصيحة حكومة الهند أوقف إرسال السلاح لعبد العزيز، وكان يحصل فقط على ما يستطيع أن يواجه به الموقف المتأزم فى الجزيرة وبحيث لا يمكن أن يكون لديه مخزون فى المستقبل يستخدمه ضد منافسه الشريف حسين.

والواقع أن عبد العزيز فى تلك المرحلة لم يكن لديه أية نوايا توسعية فكان يكفيه أن يكون حاكماً لنجد دون أن تمس أو تهدد سيادته عليها إلا أن الشريف حسين بمساندة بريطانيا كان يطمع فى كل شىء ولما لم يكن لدى عبد العزيز إمكانيات مادية فى الوقت الذى يقود فيه العديد من القبائل القوية فقد عمل على إنشاء تنظيم عسكرى جديد أطلق عليه اسم «الإخوان» عام ١٩١٢ والإخوان هؤلاء فرع من فروع أتباع محمد ابن عبد الوهاب ولكنهم ليسوا أصحاب عقيدة فقط بل يؤمنون بأن العقيدة لابد أن تساندها القوة وقد استغل فيهم عبد العزيز هذه الروح وبدأ يقيم لهم القرى بالقرب من مدينة الرياض ويمدهم بحاجاتهم وخاصة السلاح وفعلاً سانده هؤلاء وقويت شوكتهم وظلت تقوى إلى إن سببت له مشاكل فى المستقبل.

ومن خلال الإخوان وبسبب تصرفات الشريف حسين قامت معارك جانبية بين مؤيدى الشريف حسين ومؤيدى عبد العزيز وخاصة فى منطقتى (الخرما وتربة) وتدخلت انجلترا بجميع أجهزتها لاقناع كل من الجانبين بأن

الوقت ليس مناسباً لمثل هذه المعارك الجانبية، فالحرب مع تركيا لازالت مستمرة ولا زالت حامية تركية تقيم فى المدينة، وهددت بريطانيا كلاً من الحاكمين بالتخلى عنه إلا أنها فى الواقع كانت تساند الملك حسين إلى أقصى مدى وتعتبره رمزاً لنجاح سياستها مع العرب عكس الحال بالنسبة لابن سعود.

وكانت دبلوماسية عبد العزيز باعثاً على استمرار علاقته مع بريطانيا كما أن عصبية وتشدد الشريف حسين وخلقه الصعوبات دون مناسبة، كان من عوامل فشله فى كسبه الكثير من الأمور.. وكان وضع عبد العزيز أمام القبائل التى تسانده فى نجد فى منتهى الحرج فقد منعت هذه القبائل من أداء فريضة الحج عامين متتاليين بناء على عناد الشريف حسين خشية أن يقوم حجاج نجد بخلق متاعب له فى مكة ونصحت بريطانيا عبد العزيز بأن يقبل ذلك خشية تصعيد الموقف..

وحاولت بريطانيا أن توفق بين النقيضين إلا أن كل منهما أصر على أن منطقتى (الخرما وتربة) تخضعان لسلطاته وكادت أن تنشب الحرب بين الجانبين وانشغلت الأجهزة البريطانيا فى الهند والقاهرة وبغداد والكويت بمحاولة تجنب مثل هذه الحرب الداخلية وفى الوقت نفسه محاولة القضاء على قوة «الإخوان» المساندة لعبد العزيز.

ثم فكرت انجلترا فى أن تجمع بين الطرفين لكى يحلا مشاكلهما بعيداً عن بريطانيا التى كانت مشاكل الحرب والدمار داخل بلادها تشغلها عن المساهمة فى أى شىء، وأخيراً انتهى الأمر فى عام ١٩٢٠ بلقاء ممثلين لكل من عبد العزيز والشريف حسين فى الحجاز لبحث الوصول إلى وسيلة لتحقيق السلام بين الجانبين وفعلاً تم التوقيع على اتفاقية للهدنة وبذلك عاد

السلام المؤقت للجزيرة العربية لمدة لم تتجاوز أربع سنوات.

إخوان نجد:

أثار الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود فور استيلائه على الرياض عام ١٩٠١ اهتمام وتأييد سكان المدن والواحات الصغيرة القريبة من الرياض، وهى مواطن عرفت بتأييدها التقليدى للأسرة السعودية. وبعد أن ضم إليه الخرج والمحمل والوشم، نجح فى القضاء على منافسه الرئيسى ابن الرشيد (أبريل عام ١٩٠٦) وباحتلاله بريده عام ١٩٠٨ أصبح تهديده للأتراك حقيقياً. ونظراً لقيام الأتراك بتقديم مساعداتهم العسكرية لابن الرشيد والقتال معه جنباً إلى جنب، أخذ هؤلاء يوسعون من نطاق معاركهم ضد قوات «ابن سعود». ولعدم استطاعتهم مواجهة أساليب الكر والفر التى كان يستخدمها فى قتاله، أخذ الأتراك تدريجياً يفقدون سيطرتهم وفى النهاية توصل ابن سعود إلى اتفاق مع الأتراك قبل بموجبه سيادتهم الأسمية فأعطاهم بذلك الفرصة لحفظ ماء وجههم بالانسحاب من الجزيرة العربية.

وعندما غادرت آخر القوات التركية الإحساء سنة ١٩١٣، اعترف الباب العالى بوحدة نجد والإحساء تحت حكم ابن سعود، وفى المقابل أقر ابن سعود سيادة الباب العالى الشكلية على هاتين المنطقتين دون السماح بأى وجود عسكرى تركى فيهما على الإطلاق. غير أنه لم يقتنع بانتصاراته هذه، فبدأ يخطط لاستعادة المناطق التى خسرها أجداده فى الجزيرة العربية. وتحقيقاً لهذا الهدف، قرر أن يعيد تنظيم البدو وإعدادهم بشكل لم يسبق له مثيل، وأن يستخدمهم كرأس حربة فى حملته لتوحيد شبه الجزيرة العربية.

وكان ولاء البدو لأنفسهم فقط، وكانت الصحراء، مع رحابتها، هى موطن إقامتهم. وكانوا يستغلون الشيوخ الطموحين، مثلما كان هؤلاء

يستغلونهم بدافع من المصلحة والكسب المادى.

ولم يكن من الممكن تطبيق العقوبات عليهم، إذ لم يكونوا يملكون أرضاً وإنما ثروات مادية ضئيلة جداً.

وكانوا ينظرون إلى المعارك على أنها ضرب من الفروسية، لا على أنها حرب فعلية إلا فيما ندر، فإنهم لم يكونوا محاربين جيدين، ولا يشكل البدو عنصراً يمكن الاعتماد عليه فى تكوين جيش ما نظراً لما يتميزون به من اهتمام بتحقيق غاية محددة كالحصول على المال أو الرغبة فى الانتقام وإحداث الانقسام، ولكونهم يقاتلون من أجل تحقيق غاية محددة قد تكون ثروة أو ثارا أو نحوها.

وعلى النقيض من ذلك كان رجال المدن فى نجد لا يميلون إلى شن الغارات أو الاقتتال فيما بينهم، إذ كان المزارعون والتجار والحرفيون والمعلمون منهم يفضلون اتباع الأساليب التقليدية المتصلة بحياتهم السلمية أكثر من ممارسة القتال وكأناس حضريين يخضعون لزعيم يستمدون منه الحماية، ويخلصون له، فإنهم إذا ما استنفروا كان لهم عزم راسخ على القتال كأى قوات خاصة. ولكونهم منظمين فقد كانوا يتبعون أوامر زعيمهم.

وكان هؤلاء الحضريون هم نواة الجيش الذى حارب به ابن سعود الأتراك وبه طردهم من نجد. أما جموع البدو فقد شاركوا فقط فى القتال عندما كان ذلك مناسباً لاحتياجات «ابن سعود» ورغبتهم أنفسهم، وكلما خسر الأتراك إحدى المدن سارع السكان إلى تقديم الولاء لابن سعود وعملوا على تدبير أمر حماية مدينتهم بأنفسهم دون الحاجة إلى وضع حامية عليها، وهذا مكن له من القتال بقوات صغيرة، قادرة على التحرك فى

مساحات شاسعة تعتبر أساساً موالية له ومعادية لعدوه. وباتساع مناطق القتال وابتعادها عن الرياض أدرك ابن سعود أن القوة العسكرية التى استطاع بها تحرير نجد لم تعد قادرة على تحقيق الانتصارات العسكرية التى كان يطمح ويخطط لتحقيقها فى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية فلم يكن باستطاعة الحضر، رغم موالاتهم لابن سعود أن يتركوا حقولهم وواحاتهم وحوانيتهم ليخوضوا المعارك فى الحجاز وغيرها من الأقاليم ولذلك، فإنه كان بحاجة إلى قوة مقاتلة لها قدرة البدو على الحركة وولاء وشجاعة واستماته وتصميم الحضريين. ولم يكن فى رغبة ابن سعود أو فى قدرته تحويل الحضر إلى قوة عسكرية ضارية ذات طابع بدوى.

وكان البدو المصدر البشرى الوحيد لجيشه. غير أنه كان يعلم جيداً صعوبة الاعتماد على البدو، بوضعهم التقليدى خاصة فى مسيرة طويلة بعيداً عن نجد حيث احتمالات هجرهم المفاجئ له أو انضمامهم لصفوف الأعداء. وكان يدرك جيداً التأثير المأساوى للحملة المصرية ضد الوهابيين فى أوائل القرن التاسع عشر. فالقبائل البدوية فى نجد والحجاز والتى كانت أصلاً موالية للأسرة السعودية، خانت العهد وتحالفت مع إبراهيم باشا، قائد الحملة المصرية، وقادت القوات المصرية عبر الصحراء إلى أسوار «الدرعيه» كما كان ابن سعود يعلم أيضاً بأن القرويين الشجعان فى نجد هم وحدهم الذين أعاقوا تقدم الحملة المصرية وقتل منهم الكثيرون إلى أن استسلموا فى النهاية أمام تفوق القوة العسكرية العادية.

ولكى يحل هذه المشكلة جمع ابن سعود بين معرفته للتاريخ العربى القديم الواسع وجرأته، من أجل أن يحول البدو، خلال سنوات قليلة، إلى مقاتلين مهرة قادرين على التحرك بسهولة وقطع شبه الجزيرة العربية طولاً

وعرضاً، وأن يجعلهم انضباطيين إلى الحد الذى يضمن تواجدهم فى الموقع المعين فى حال احتياجه لهم.

وقد نجح فى تحقيق ذلك بصمت وهدوء وعندما ظهروا على مسرح الجزيرة العربية، كانوا كإخوان متأهبين وتواقين للحرب.

ويمكن تعريف إخوان نجد بأنهم هم أولئك البدو الذين تلقوا مبادئ الإسلام على المذهب الحنبلى الذى نادى به «محمد بن عبد الوهاب» تلك المبادئ التى نسيها آباؤهم وأجدادهم أو حرفوها. وهم أولئك البدو الذين تم إقناعهم بواسطة البعثات الدينية ومساعدات ابن سعود المادية ليتخلوا عن حياة البداوة ويستقروا فى الـ «هجر» التى بنيت خصيصاً لهم.

ويرتبط مفهوم «الهجر» بشكل وثيق مع تعريف جماعة «الإخوان» فتعلم مبادئ الإسلام وحدها ليس كافياً لتأهيل الفرد لأن يكون «أخاً» إذ ينبغى على المؤمن أن يترك حياة البداوة وأن يبيع قطعاته وينصرف إلى «الهجرة» وعلى غرار هجرة النبى ﷺ من مكة إلى المدينة، وهى الهجرة التى بدأ معها فجر الإسلام فإن هجرة البدو تمثل انفصاماً أبدياً عن حياة البداوة.

وفى الوقت الذى كان فيه كل الإخوان من أنصار محمد بن عبد الوهاب إلى الحد الذى جعلهم يتلقون تعاليم الإسلام وفق ما ورد فى مؤلفات وتفسيرات ومواعظ محمد بن عبد الوهاب فإن جميع اتباعه لم يكونوا من الإخوان.

ومع أن معظم أهالى القرى والمدن فى نجد كانوا من المتحمسين للدعوة الوهابية إلا أنهم لم يكونوا من الإخوان ولم يدعوا إلى الانتماء إلى هذه الحركة وكانوا من الحضر لا من البدو وكان لهذه الاعتبارات أهميتها إذ

أن هؤلاء الوهابيين القرويين كانوا نواة القوة التى استخدمها ابن سعود فى النهاية لقمع تمرد الإخوان ومن جهة أخرى فإن البدو الذين استأنفوا حياة البداوة مع أنهم تعلموا مبادئ الإسلام لم يكونوا من الإخوان لأنهم لم يرحلوا نحو «الهجرة» وقد أفلح ابن سعود أيضاً فى تجنيد بعض رجال القبائل وضمهم إلى قواته المؤلفة من القرويين والإخوان الموالين له ليحارب بها الإخوان المتمردين. ولعل عدم ظهور حركة الإخوان إلا بعد عام ١٩١٢ – عقب نجاح «ابن سعود» فى استعادة المناطق التى كانت خاضعة لأجداده فى نجد يمكن أن يفسر منطقياً برغبته فى تنفيذ مخططاته بشأن الحجاز حيث اعتبر كل أراضى شبه الجزيرة العربية فى الغالب ممتلكات لأسرته فى السابق مما يستوجب منه استرجاعها.

ولعل السرية التى اتسمت بها حركة «الإخوان» منذ بداياتها الأولى هى السبب فى أن الغموض وعدم الوضوح والتناقض هى صفات تكتنف أصل ومنشأ هذه الحركة. ويرجع هذا فى جانب منه إلى ابن سعود نفسه حيث رأى أنه من المناسب اخفاء هذا التطور الجديد عن الانجليز لأطول مدة ممكنة بسبب تأييدهم للشريف حسين. وفى البدايات الأولى لحركة الإخوان، كان باستطاعته أن ينفى وجود أية سلطة له عليهم، وبعد ما اتضح ارتباطه بهذه الحركة بشكل لا سبيل إلى إنكاره أصبح بإمكانه التهديد بهجوم من الإخوان كوسيلة لتحقيق أهداف معينة، أحد هذه الأهداف كان محاربة مسلمى الحجاز الذين لم يكونوا من الوهابيين والذين كان قادة الإخوان ينظرون إليهم فى الاجتماعات العامة مثل «مؤتمر الوجهاء فى الرياض» على أنهم من الكفار.

وبالرغم من أن الحكومة البريطانية قد بدأت تتسلم تقارير عن ازدياد

نفوذ الإخوان من ممثليها فى المنطقة ومن حكومة الشريف حسين فى جدة إلا أنه لم تتوافر لديها معلومات كافية عن هذه الحركة لفهم دلالاتها جيداً.

ولعل سوء الفهم الأساسى حول الإخوان يرجع إلى أنهم شكلوا حركة سرية ذات طقوس غامضة وعضوية سرية وغيرها من الصفات التى تتميز بها الجمعيات السرية المغلقة على نفسها.

ولقد بولغ وبشكل مكثف فى سوء فهم حركة الإخوان إلى الحد الذى يزيد من بساطة هذه الحركة فى واقعها كنقيض للأسطورة التى خلقت عنها. فالإخوان لم يكونوا أعضاء فى طائفة إسلامية جديدة ولا أتباع مدرسة جديدة. بل كانوا كما يعتبرون أنفسهم من أتباع المدرسة الحنبلية كما طورها وفهمها محمد بن عبد الوهاب، فهم لم يدخلوا إلى الإسلام أية طقوس أو ممارسات أو محرمات أو وصايا جديدة لتكون بمثابة مبادئ إسلامية أساسية رغم أنهم انفردوا ببعض أنماط السلوك الاجتماعى والفردى الذى دعوا له وحاولوا فرضه، مثل تحريم تدخين السجائر. والفرق بين الوهابية والإخوان يكمن فى الفرق فى حدة كل منهما، فالإخوان يطالبون بقيم دينية أشد حدة وتطرفاً من تلك التى تطالب بها الوهابية ومزيداً من إنكار الذات يفوق ذلك الذى تدعو إليه تعاليم محمد بن عبد الوهاب.

ولم يكن للإخوان أية طقوس أو سلوك أو دلالات سرية أو غيرها مما تتسم به الجمعيات السرية. لقد حرمت مثلاً أكل لحم الخنزير وشرب الخمر مستندة إلى النصوص القرآنية بشأن ذلك. وكانت تعتبر التدخين اثماً فاحشاً كما كانت تحرم لبس الحرير ويبدو أن الكماليات الوحيدة التى تتغاضى عنها هذه الحركة هى البخور والقهوة والشاى.

وكانت الحركة تدين لعب القمار والتنبؤ بالمستقبل وغيره من أنواع

الشذوذ عن السلوك الدينى الصحيح.

وكان الإخوان يشعرون بأن الله قد خولهم حق مراقبة تنفيذ أوامره كما كانوا يشعرون بأن تدخلهم فى شئون غيرهم هو نوع من التفانى فى سبيل الله. أما ضحاياهم فكانوا يرون فيه تعصباً أعمى.

أن تحويل البدو من حياة البداوة إلى حياة حضرية كان الخطوة الأولى فى خطة ابن سعود لإعدادهم كقوة عسكرية تكون طليعة قوته التى سيخضع بها جنوب نجد والجوف وعسير والحجاز. أما الخطة الثانية فكانت بناء مستوطنات زراعية صغيرة لإسكانهم فيها.

وفى الفترة ما بين استيلائه على الرياض وسنة ١٩١٢ تاريخ تأسيس أول «هجرة» بدأ ابن سعود تنفيذ خطته لتحويل البدو وإسكانهم وبدأت الأفواج من طلاب الدين الشبان الذين يشرف عليهم أو يقودهم رجال دين أكبر منهم سناً فى الانتشار بين البدو لتعليمهم كلام الله تعالى وأحاديث النبى محمد ﷺ .

وفى الرياض بدأ هؤلاء الزعماء يتعلمون على يد العلماء الوهابيين أصول الإسلام كما يتاح لهم أن يروا نفوذ ابن سعود عن كثب. إذ يشاهدون علّية القوم من عرب وأجانب فى مجلسه وهم ينتظرون الفرصة لمقابلته وزعماء قبائل أكبر وأقوى من قبائلهم يلتمسون التحالف معه ومئات الأشخاص الذين يشاركونه الطعام يومياً، ومئات من أفراد القبائل ممن يرجعون إلى قبائلهم وهم يرتدون ثياباً جديدة أو حلياً من الذهب كتذكار أو وعد بالمساعدة من ابن سعود، ولدى عودة أولئك الشيوخ إلى قبائلهم فإنهم يصفونه بأنه رجل المستقبل ويقنعون رجال قبائلهم بأن من مصلحتهم الارتباط بابن سعود. ومتى اعترف زعيم القبيلة ووجهاؤهم بزعامته عن

طريق «البيعة» فإن أى خروج منهم على الولاء له سيثير نقمته عليهم ويعتبرهم متمردين على السلطة الشرعية.

وقد نشبت الخلافات بين زعمائهم وابن سعود حول التطبيق المتزمت لتعاليم الوهابية إذ اتهموه بالتساهل فى تطبيقها وبالتعامل مع الكفار (الإنجليز) وظهور عادات أجنبية محرمة (مثل استخدام الهاتف والبرق والمذياع) وبالفشل فى تحقيق انتصارات خارج حدود شبه الجزيرة العربية أى فى العراق والأردن. وخلال عشرين سنة من نشوب هذا الخلاف تحول إلى شكله التقليدى كمعركة حامية بين ابن سعود والإخوان الموالين له من جهة وبين الإخوان المتمردين بزعامة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد من جهة أخرى.

وقد حسم النزاع بين الطرفين لصالح ابن سعود بعد معركة جرت عند هضبة السلة التى لا تبعد كثيراً عن «الأرطاوية» مُنى الإخوان بالهزيمة وتم أسر زعمائهم وحل تنظيمهم.

وبعد العفو عن زعماء الحركة واطلاق سراحهم بعد معركة «السبلة» حاول هؤلاء الزعماء القيام بحركة تمرد جديدة لم يكتب لها النجاح أيضاً. ولم يعامل ابن سعود زعماء الإخوان المتمردين باللين هذه المرة بل قضى عملياً على حركة الإخوان كقوة ديناميكية قضاء نهائياً.

والواقع أن الحركة لم تعد ذات فائدة له لأنه وصل إلى مناطق جديدة فى شبه الجزيرة العربية حيث لم يكن باستطاعة الإخوان أن يلعبوا أى دور هناك. فاعتكفوا فى الهجرات وهم مازالوا مقتنعين بعدالة قضيتهم فخورين بالدور الذى لعبوه فى توحيد شبه الجزيرة العربية بقيادة إمامهم الوهابى ابن سعود.

وقد ظل الإخوان قوة سياسية ودينية هامة فى البلاد العربية حتى بعد أن حلت حركتهم. وبدلاً من أن يعودوا إلى حياة البداوة فقد ظل معظمهم مستقراً ومرتبطاً بالهجر. لقد ظلوا محتفظين بكبريائهم على الرغم من فقرهم وظل تفانيهم فى سبيل الدين والتزامهم بالشريعة قائماً. ورغم أن حدة تعصبهم لم تخف إلا أن الناس أحسوا بأن هذا التعصب لم يعد بنفس الحدة. وعندما لم يعد نظام الحكم يخشاهم كقوة عسكرية وسياسية بدأوا يعملون على كسب ثقة الحكم بهم. فبالإضافة إلى حملهم السلاح وكونهم يشكلون العمود الفقرى للميليشيا المحلية فإن العديد من المناصب الحساسة وذات المسئولية فى الحكم الآخذة بالتوسع آنذاك كانت تسند إليهم وإلى أولادهم إذ أنهم كانوا يعتبرون أكثر المواطنين رسوخاً فى ولائهم وإيمانهم وأنهم ملتزمون بشدة بالدين الإسلامى كعقيدة وبنظام الحكم المحلى كأفضل شكل من أشكال الحكم. ومقابل خدماتهم وولائهم للملك فقد منحهم وكان ذلك مطلبهم – حق المثول فى قصره ومقابلته بسهولة.

ولايزال هذا العرف قائماً حتى يومنا هذا. واعترافاً بمساهمتهم فى تاسيس الدولة السعودية فإن الحكومة تدفع لقدماء الإخوان الذين لايزالون إحياء منحاً شهرية لهم ولأولادهم من بعدهم – ولو بنسبة أقل – كرمز دائم على أن آباءهم وأجدادهم ساروا فى موكب ابن سعود بشجاعة حاملين رايات خفاقة عندما كان ابن سعود لايزال قائداً شاباً لم يشتد ساعده سياسياً وليست لديه سوى بنادق قديمة وقدر كبير من التصميم والطموح لاستعادة ملك أجداده.

* * * *

بداية التوسع:

كانت طموحات ابن سعود محدودة بالعودة إلى حكم المناطق التى كان يحكمها أجداده فى منتصف القرن التاسع عشر ومعنى ذلك أن يستولى على معظم الجزيرة العربية... وكانت بريطانيا تعلم بينها وبين نفسها أن قبوله الهدنة مع الشريف حسين ليس إلا مسألة مرحلية وإلا لماذا يحتفظ بهذا العدد الضخم من الإخوان ولماذا يطلب الحصول على السلاح دائماً.. لابد أن هناك ما يخفيه.

وقد ساعدت الظروف عبد العزيز حينما توفى ابن رشيد وترك الحكم لابنه البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً تحت وصاية عمه، وكانت هذه هى الفرصة السانحة لكى يمتد نفوذ عبد العزيز على مناطق جديدة فى الجزيرة العربية دون إراقة دماء وفعلاً تم الاتفاق بينه وبين آل رشيد عام ١٩٢٠ على ما يلى:

١ – أن يقوم ابن سعود بتولى الشئون الخارجية لمنطقة جبل شمر وتكون الرياض مسئولة عن ذلك.

٢ – تكون منطقة شمر بكاملها تحت إدارة حاكم نجد وتعرض كافة المنازعات على عبد العزيز مباشرة للنظر فيها.

٣ – تظل المنطقة مستقلة فى إدارة شئونها الداخلية على أن يرجع إلى عبد العزيز فى المسائل الهامة.

وقد وافقت حكومة الهند على هذه الاتفاقية خاصة أن بريطانيا كانت قد وصلت إلى اقتناع بمقتضاه تخلت عن اتباع سياسة توازن القوى داخل الجزيرة، ولما كان ابن رشيد محدود القوة من البداية وكان مجرد ورقة تلعب

بها بريطانيا للتأثير على عبد العزيز أو على الملك حسين فإن هذه الورقة عندما سقطت لم تكن ذات أهمية لأنها لم تكن مهمة أصلاً...

وبموافقة بريطانيا على هذه الاتفاقية تضاعفت المساحة التى يسيطر عليها عبد العزيز وزاد نفوذه داخل الصحراء، وأصبح ملاصقاً للحدود السورية وملاصقاً للحدود العراقية وازداد حقد الشريف حسين على هذا التوسع وبدأت بعض قبائل شمر تشعر أن حكم ابن سعود قد فرض عليهم بالقوة وبدأت فى مناوءته فتصدى لهم الإخوان وانتهى الأمر بقيام عبد العزيز باحتلال المنطقة بالكامل دون إراقة دماء وأسر أسرة ابن رشيد الحاكمة وبعث بها إلى الرياض حيث أقامت معززة مكرمة مما كان له أحسن الأثر فى نفوس القبائل المتمردة للمعاملة الكريمة غير المتوقعة من حاكم شديد البأس انتصر عليهم وكان بوسعه التخلص منهم... وبذلك امتدت حدود ابن سعود حتى شرق الأردن...

وبقضاء عبد العزيز على حكم آل رشيد بدأ يفكر فى وضع حداً لخلافاته مع الكويت فقد كان شيخ الكويت آنذاك على عداء مستحكم مع عبد العزيز وكثيراً ما وقعت المصادمات بين الجانبين على الحدود، والحدود بينهم غير واضحة المعالم وكانت بريطانيا قد وعدت فى اتفاقيتها مع عبد العزيز عام ١٩١٥ بضرورة تعيين الحدود مستقبلاً.. وكانت بريطانيا قد وقعت معاهدة مع تركيا عام ١٩١٣ عينت بموجبها حدود الكويت مع عبد العزيز دون اشتراك الأخير.. إلا أن الاتفاقية لم يتم التصديق عليها بسبب قيام الحرب العالمية الأولى، كما أن عبد العزيز لم يعترف بتلك الحدود على أساس أن الحدود بين المناطق الصحراوية يحددها العرف القبلى وليست القوى الخارجية. فالحدود لكل دولة طبقاً للأعراف القبلية تمتد إلى المدى

الذى يمكن للحاكم أن يحصل الضرائب من القبائل المقيمة تحت سلطاته وعلى ذلك تمتد الحدود وتتقلص طبقاً لقوة الدولة وضعها وطبقاً لقوة الحاكم وضعفه.. ولم يقبل شيخ الكويت هذا المنطق وتمسك بالحدود التى رسمتها انجلترا عام ١٩١٣ وقامت حروب بين الجانبين وانتصر عبد العزيز، وأخيراً تدخلت بريطانيا الملتزمة تجاه الجانبين واتفقا على التحكيم وفعلاً سافر وفد كويتى إلى الرياض فى يناير ١٩٢١ وهناك أعلن بنبأ وفاة حاكم الكويت فأعلن عبد العزيز فى الحال أن الخلافات قد انتهت وليس هناك حاجة إلى تعيين حدود بين أراضيه والكويت وبذلك انتهت الخلافات مؤقتاً بين نجد والكويت ولم تعين الحدود آنذاك.

ثم اتجهت أنظار عبد العزيز إلى حدوده مع العراق، ففى عام ١٩٢١ وقعت مصادمات بين قبائل شمر المقيمة فى نجد على حدود العراق والقبائل المقيمة فى العراق على حدود ولاية نجد وبدأت الغارات الكثيفة يشنها الإخوان على القبائل العراقية وكانت بريطانيا تمارس السيطرة والسيادة فى ذلك الوقت وملزمة بالدفاع عنها، وفى الوقت نفسه مرتبطة بمعاهدة مع عبد العزيز وتود أن تستمر علاقاتها الطيبة معه فتدخلت فى الأمر وتم عقد معاهدة تم بمقتضاها تحديد نوع من الحدود طبقاً للعرف القبلى بحيث أصبحت هناك قبائل تابعة لنجد وأخرى تابعة للعراق ومن حق كل منها الرعى فى أراضى الأخرى طبقاً لشروط وظروف معينة..

إلا أنه فى ١١ مارس ١٩٢٢ قام «الإخوان» بهجوم على القبائل العراقية واستولوا على أبلهم وقطعانهم ومنقولاتهم وقتلوا الكثير منهم مما أدى إلى تدخل الطيران البريطانى الموجود فى العراق للقضاء عليهم وبدأت بريطانيا تمارس ضغطها على الأمير عبد العزيز لعقد اجتماع فى ٥ مايو

١٩٢٢ تم بموجبه اتفاق بين الجانبين كانت نقاطه ما يلى:

١ – قسمت قبائل شمر ما بين العراق ونجد.

٢ – الحدود بين البلدين تسير طبقاً لمواقع المراعى والآبار التى تستعملها القبائل على أن يتم اجتماع بين الجانبين فى بغداد مستقبلاً تحت إشراف بريطانيا لتعيين الحدود النهائية.

٣ – تحددت مسئولية عبد العزيز نحو حماية الحجاج العراقيين.

٤ – عودة العلاقات التجارية الطبيعية بين البلدين إلى سابق عهدها.

٥ – حرية الانتقال للجانبين.

٦ – إذا ما حدث أى نوع من خرق هذه الاتفاقية بين العراق ونجد وبريطانيا فإن الاتفاقية تصبح لاغية.

لا تصبح الاتفاقية ملزمة إلا بعد توقيعها من الأمير عبد العزيز حاكم نجد وفيصل ملك العراق وبذلك هدأت الأمور نسبياً بين نجد والعراق وبدأت أنظار ابن سعود تتجه إلى الحجاز، وكان موسم الحج على الأبواب وشعب نجد مضى عليه سنوات ثلاث لا يستطيع الذهاب إلى الأراضى المقدسة خشية حساسية الشريف وإثارة غضبه من ناحية وبناء على نصيحة بريطانيا للأمير عبد العزيز من ناحية أخرى.. وقد وجد عبد العزيز أن الوقت مناسب للتحرك خاصة وقد هدأت الأمور على حدوده الشمالية وأصبحت له اليد العليا هناك، إذن لماذا لا يضغط ويصر على ضرورة سفر حجاج نجد إلى بيت الله مهما كانت الظروف، وتم ذلك فعلاً رغم الاعتراضات والمشاكل التى أثارها الشريف حسين.. وكانت معاملة الشريف حسين للحجاج النجديين خالية من المجاملة. مما دفع عبدالعزيز أن يعلن بعد انتهاء موسة

الحج عدم موافقته على الاتفاقية التى عقدت بينه وبين العراق وأصر على أن جميع القبائل التى تعيش فى شمال الجزيرة هى قبائل تابعة لسلطانه وليس من حق العراق أن تخضع بعضاً من قبائل شمر لسلطانها فهذه القبائل كانت تعيش فى ظل حكم أجداده منذ مطلع القرن التاسع عشر ولا حق للعراق فى المطالبة بضمهم إلى أراضيها أو إخضاعهم لسلطاته. وهنا ظهر بوضوح أن المستقبل يحمل فى طياته الكثير خاصة وأن قواته فى تزايد وحكمه يتسم بالعقل والحكمة وخطواته تسير بتؤدة. وأصر عبد العزيز على تحكيم القانون القبلى فى تعيين الحدود بين البلدين. وهنا تدخلت بريطانيا مرة أخرى، وبعد مفاوضات ومداولات تم رسم الحدود على خريطة للعالم العربى كانت نتيجتها أن حرمت الكويت جزءاً من أراضيها وأضيفت للمناطق التابعة لحاكم نجد تعويضاً له عن جزء استقطع من أراضيه وأضيف للعراق. وقامت بريطانيا بتعيين مناطق محايدة على حدود كل من الكويت ونجد والعراق.

ولما استفسر عبد العزيز عن السبب أوضحت بريطانيا أن هناك احتمالات تواجد بترول فى ذلك المناطق مستقبلاً وفى هذه الحالة تقوم الدولتين باقتسام عائده..

وطبعاً لم يكن عبد العزيز راضياً على ذلك ولكنه كان مرغماً على قبوله فهو لا يستطيع أن يقف فى وجه بريطانيا والآخرين دفعة واحدة، وهو قد تعود أن يرضى بالواقع ويسعى مستقبلاً لتغييره لتحقيق ما يريد..

وبذلك انتهت قصة حدوده مع كل من الكويت والعراق إلا أن بريطانيا بدأت تنظر لازدياد وتطور قوة عبد العزيز نظرة قلق.

وبدأت بريطانيا تأخذ موقفاً معادياً لعبد العزيز تمثل أولاً فى قطع

المعونة المالية التى كانت تبعث بها إليه منذ عام ١٩١٦، ثم بدأت توحى إليه بضرورة حل الخلافات مع الهاشميين الذين تساندهم بقوة وأنها على استعداد لإعادة المعونة إذا ما وصل إلى اتفاق مرضى مع الهاشميين ورفضت بريطانيا أن تمنح عبد العزيز، قرضاً كان قد سبق أن طلبه ووافقت عليه بريطانيا. وكان رد عبد العزيز على تصرفات بريطانيا قيام الإخوان بهجوم شرس على شرق الأردن، وكانت بريطانيا ترى أن وقوع مناطق استراتيجية هى فى حاجة إليها بين يدى الأمير عبد الله خير من أن تكون تحت سيطرة عبد العزيز لأنها تستطيع التعامل بسهولة مع الأول فى حين أنها لا تضمن نتائج تعاملها مع الآخر.

وكان أقصى ما استطاعت بريطانيا أن نفعله مع عبد العزيز أنذاره بعدم القيام بأى عمل عدائى تجاه شرق الأردن.

ورغبت بريطانيا وقد استقر بها الحال فى المنطقة أن تضع نهاية لمشاكل الحدود فى مناطق تعلم أنها ستستقر بها لأمد طويل فاقترحت عقد مؤتمر فى الكويت يحضره فيصل ملك العراق والأمير عبد الله حاكم شرق الأردن والملك حسين ملك الحجاز والأمير عبد العزيز بن سعود حاكم نجد ووافقت جميع الأطراف على حضور المؤتمر باستثناء الملك حسين الذى اشترط لحضوره شروطاً غير مقبولة من جانب الأمير عبد العزيز وحتى من جانب بريطانيا نفسها.

وقررت بريطانيا عقد المؤتمر دون حضور الملك حسين وفعلاً عقد فى الكويت فى ١٧ ديسمبر ١٩٢٢ وكان لكل دولة مطالبها.

ودارت المناقشات حول تلك المطالب وكان بعضها مقبولاً من جانب الأمير عبد العزيز والآخر مرفوضاً خاصة ما يتعلق بالتنازل عن أرض أو

الحد من حرية حكام نجد فى التصرف السياسى أو فرض أى قيود على حركة رعايا نجد... وبذلت بريطانيا المستحيل لتقريب وجهات النظر إلا أن الخلافات على الجانب الهاشمى والتصرفات التى كان يقوم بها الملك حسين وشعور الأمير عبد العزيز بأنه سيد الموقف كل ذلك أدى إلى عدم الوصول إلى حل، وانتهى مؤتمر الكويت دون الوصول إلى نتيجة وإن كان قد أضاء الطريق أيام السلطان عبد العزيز للتقدم تجاه الحجاز.

التقدم نحو الحجاز:

وكانت الظروف القائمة فى المنطقة كلها تشجع على أن ينفذ الأمير عبد العزيز مخططه الذى رسمه لنفسه بالاستيلاء على الحجاز والقضاء على غطرسة الشريف حسين.

كما أن الأوضاع العامة داخل الحجاز قد تدهورت، فالأمن غير مستتب والشكوى عامة من حجاج العالم عما يلاقون من متاعب ونهب وسلب أثناء تأديتهم الفريضة، والمعونات المادية التى يحصل عليها الشريف حسين من بريطانيا يوجه معظمها إما لشراء سلاح أو ترسل إلى سوريا لتأييد الثوار هناك ضد فرنسا، كما أن حكم ابنه فيصل فى سوريا فشل ولم يستمر طويلاً ومع ذلك استمر الملك حسين يطمع فى أن يكون هو خليفة المسلمين بعد أن ألغيت الخلافة من تركيا... وكلما مرت الأيام وجد أن آماله تتبخر فلا هو بقادر على الوصول إلى حل مع بريطانيا التى فقدت الثقة فى قدرته على قيادة المسلمين، ولا هو بقادر حتى على تثبيت دعام حكمه فى الحجاز نفسها حيث يهدده الأمير عبد العزيز من كل جانب، وتخلى الإنجليز عملياً عن مساندته وتقطعت أوصال المشرق العربى على

مائدة مؤتمر فرساى وذهبت معوناته لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى أدراج الرياح، ولم يكن أمامه لكى يحقق من أحلامه سوى الاسم فقد أعلن نفسه خليفة للمسلمين فى الخامس من مارس ١٩٢٤.

وقد أثار هذا العمل فى حد ذاته ثائرة الأمير عبد العزيز وأجرى اتصالات مع بريطانيا فى هذا الشأن، إلا أن انجلترا كانت قد قررت فى وقت سابق قطع المعونة التى ترسلها إلى الأمير عبد العزيز رغم ضآلتها ونفذت ذلك فعلاً فى نهاية شهر مارس عام ١٩٢٤ وكان قطع المعونة فى حد ذاته إشارة بدء لعبدالعزيز كى يتصرف طبقاً لما يراه هو محققاً لمصالحه.

وكانت الأنباء مؤكدة بأن أتباعه قد ازداد عددهم فى الحجاز، والقبائل ثائرة على حكم الحسين وأنه لن يجد مقاومة جادة إذا ما هاجمه، وفعلاً وضح ذلك فى اعتباره ووضع أيضاً فى حسبانه أن ذلك قد يغضب بريطانيا ولكن ماذا يهمه الآن من غضبها فهو لا يتلقى منها مساعدة معنوية ولا مادية، كما أن انجلترا لن تقدم على التدخل العسكرى مباشرة ضده لأنها خرجت من الحرب العالمية الأولى وأوضاعها الداخلية فى غاية السوء، وكل همها المحافظة على وضعها فى العراق وشرق الأردن، وموقفها من الحسين معروف فقد وضح منذ مدة تخليها عن مساندته، كما أنها غررت به فى مؤتمر الصلح، مما يدعو إلى الاعتقاد بأنه إذا تقدم تجاه الحجاز فالمعارضة ستكون محصورة فى بعض القبائل المساندة للشريف حسين، وقد تتحرك بريطانيا وتنذر ولكنها ستكون غير جادة فى تحركاتها أو انذاراتها.

وفعلاً صح ما توقعه الأمير عبد العزيز، فما أن بدأت التحرشات بين رجاله وبين رجال الملك حسين حتى أعلنت بريطانيا حيادها بحجة أن سبب

الحرب بين الجانبين يرجع إلى أمور دينية وهى لا تريد أن تزج بنفسها فى هذا المضمار... والواقع أن انجلترا كانت فى موقف لا يسمح لها بالتدخل حتى إذا أرادت ذلك، فقد كان يواجهها معارضة شديدة من المسلمين فى الهند والخاضعين للحكم البريطانى خاصة جماعة (الخلافة) والتى كانت تعارض أى تدخل بريطانى فى الأراضى المقدسة، كما أنها أيضاً لا تستطيع أن تهدد عبد العزيز بقطع معونتها عنه حيث أنها قطعتها فعلاً وبذلك لم يعد فى يدها ورقة تلعب بها أمام عبد العزيز. وتمهيداً لغزو الحجاز قام الإمام عبد الرحمن بن سعود والد الأمير عبد العزيز بعقد مؤتمر فى الرياض فى الرابع من يونيو عام ١٩٢٤ ضم زعماء القبائل والعسكريين ورجال الدين وقادة الإخوان وكان موضوع المؤتمر هو مناقشة مشكلة سفر الحجاج من رعايا نجد والإعداد لهجوم إخوانى على الحجاز، وقد طلب الأمير عبد العزيز من أتباعه ضبط النفس وأوضح لهم أنه مهما كان يسر استيلاء النجديين على مكة والمدينة بالقوة من الملك حسين، إلا أن الأمر الأخطر من ذلك هو إثارة مشاعر المسلمين فى كل أنحاء العالم إذا ما وقع اعتداء على الأراضى المقدسة لأن هذه الأماكن تعتبر ملكاً لكافة المسلمين فى العالم خاصة فى موسم الحج.

وقد خطط عبد العزيز لغزو الحجاز بدقة وعناية حققت الأهداف التى رسمها، ففى الوقت الذى عينه للغزو قام بإرسال قواته للهجوم على كل من العراق وشرق الأردن لكى يشغلها عن تقديم أى مساعدة للحجاز، كما قام بقطع سكة حديد الحجاز حتى لا تستخدم فى إرسال أية معونة للملك حسين..

واضطرت انجلترا أن تعترف بالأمر الواقع وهو غزو الأمير عبد العزيز

للأراضى الحجازية، وانحصرت مطالب انجلترا فى تأمين سلامة الحجاز وحماية الطرق الموصلة إلى الأماكن المقدسة والمحافظة على أرواح وأملاك البريطانيين الموجودين فى الحجاز.

وفى الثالث من أكتوبر عام ١٩٢٤ اجتمع وجهاء «مكة وجدة» وطلبوا من الملك حسين أن يتخلى عن عرش الحجاز ولم يكن أمامه سوى أن يخضع لمطالبهم وعين فى اليوم الثانى الأمير على وصياً على العرش على رأس حكومة مؤقتة لإدارة شئون الحجاز..

وكانت المهانة الكبرى للملك حسين هو عدم الموافقة على سفره للإقامة فى عمان، حيث أوضح الحاكم الانجليزى صمويل أن وجود الملك حسين فى عمان سيدفعه إلى التدخل فى شئون الإمارة مما يسبب له المشاكل وقد يدفع الأمير عبد العزيز إلى غزو شرق الأردن مما أدى إلى تدبير إقامة مؤقتة له فى العقبة. وقد كان لعدم ترحيب انجلترا بإقامة الملك حسين فى كل من العراق أو شرق الأردن أثر سيئ على ولديه عبد الله وفيصل.

ولما تأكد الأمير على أن الاستيلاء على مكة أصبح أمراً واقعاً لا محالة، عرض على الجانب السعودى التفاوض إلا أنهم رفضوا ذلك. وفى الثانى عشر من أكتوبر دخلت قوات السلطان عبد العزيز إلى «مكة» وأعادت الأمان لكافة السكان، وأن أحداً لن يحرم من أداء فريضة الحج ولن تمس أمواله ولم تحدث أية مذابح عند فتح مكة... وباستيلاء ابن سعود على مكة وبعض الموانى الأخرى أصبح الأمير على لا يسيطر إلا على مدينتى «جدة» و«المدينة» وميناء «ينبع».. وفى تلك الأثناء بعثت لجنة الخلافة فى الهند تطلب من الأمير عبد العزيز ضرورة أن يغادر حسين

وأنجاله الحجاز، وضرورة وضع دستور خاص للأراضى المقدسة يشترك فى وضعه المجتمع الإسلامى عامة، وأن المنطقة لابد وأن توضع فى ظل حكومة ديمقراطية... وفى السادس عشر من أكتوبر أعلن الأمير عبد العزيز موافقته على مطالب لجنة «الخلافة الإسلامية» وأن نجد ليس لديها النية لضم الحجاز أو السيطرة عليها ولكنها ستترك للعالم الإسلامى حرية تقرير كيفية إدارة الأماكن المقدسة، ولكن لن يستتب السلام إلا بمغادرة كل من حسين وعلى البلاد.

وتحقيقاً للوعود التى قطعها على نفسه قام عبد العزيز يبحث أوضاع الأراضى المقدسة بمعرفة المسلمين فى كل أنحاء العالم، فقد دعى إلى عقد مؤتمر فى نجد ضم العديد من القادة العسكريين وممثلين عن المناطق المختلفة فى الجزيرة العربية وكثيراً من الشخصيات العراقية والمصرية والسورية حتى لا يكون هناك مجال للخلاف داخل المؤتمر أو التعرض لمعتنقى دعوة محمد بن عدب الوهاب أو غيره من المذاهب الإسلامية، وقد أعلن عبد العزيز منذ البداية أن الهدف الوحيد لغزو الحجاز كان لتأمين حرية الحجاج ورسم سياسة ثابتة لإدارة الأماكن المقدسة بالطريقة التى ترضى العالم الإسلامى... لذلك فإنه سيدعو المسلمين كافة لعقد مؤتمر فى «مكة» لتقرير مصير الأراضى المقدسة، وكان الأمير عبد العزيز واثقاً من أنه سيحصل على تأييد مطلق خاصة وأن مسلمى الهند وهم غالبية كبرى يؤيدون سياسته، ثم أكد من جديد الخطر على عائلة الملك حسين بكاملها وضرورة مغادرتها البلاد حماية لها.

ثم تم عقد اتفاق آخر بين بريطانيا والأمير عبد العزيز فى نفس الوقت يعرف باسم اتفاقية «بحره» وتتضمن تسوية مشاكل الحدود بين

الأمير عبد العزيز والعراق وقد تم بموجبها تسوية المشاكل التى كانت معلقة أو اختلف عليها فى مؤتمر الكويت، وكان عبد العزيز أكثر تساهلاً هذه المرة عما كان عليه أثناء مؤتمر الكويت ويرجع ذلك إلى ثقته فى قوته وأنه أصبح يحكم فعلاً الجزيرة العربية وليس هناك ما يدعو لإيجاد شك فى نواياه تجاه جيرانه فى الشمال.. وكان لهذا الموقف أثر فى تهدئة كل من الملك فيصل والأمير عبد الله وعودة العلاقات الطبيعية ما بين كل من نجد والعراق. ونجد وشرق الأردن، رغم أن مشاكل الحجاز لم تنته بعد... ويبدو أن كلاً من الملك فيصل والأمير عبد الله قد آثرا السلامة بما ملكت أيديهما.

ومع تعاظم قوة الأمير عبد العزيز ونشر سيادته على الجزيرة بعث فى شهر يوليو عام ١٩٢٥ بخطاب إلى قنصل بريطانيا فى جدة يخطره فيه بأن حاكم عسير على حدود الحجاز واليمن قد بعث إليه لكى يسلمه سلطة إدارة بلاده... وفى الشهر التالى هاجمت قوات عبد العزيز مدينة «المدينة» ثم هاجمت «ينبع»، وقد عرضت انجلترا وساطتها بين الأمير على والأمير عبد العزيز إلا أن عبد العزيز رفض هذه الوساطة لأنها لا محل لها فى ذلك الوقت فالأرض ستقع بين يديه إن عاجلاً أو آجلاً، وليس للوساطة أدنى معنى فى مثل هذا الموقف.

وفى الخامس من ديسمبر ١٩٢٥ استسلمت المدينة للأمير عبد العزيز وبعد أسبوعين استسلمت ينبع، وحينذاك تأكد الأمير على أن استمرار بقائه بالحجاز أكثر من ذلك أمر لا داعى له فطلب من القنصل الانجليزى أن يقوم بدور الوسيط بينه وبين الأمير عبد العزيز لكى يستسلم له.

وفى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٢٥ أعلن الأمير على انسحابه من الحجاز وفى اليوم التالى دخلت قوات عبد العزيز بهدوء إلى

جدة دون إراقة دماء.

وفى الحادى والعشرين من ديسمبر صحب القنصل الانجليزى المسئولين فى جدة إلى معسكر عبد العزيز حيث أعلنوا رسمياً استسلامهم.

وفى اليوم التالى أبحر الأمير على متوجهاً إلى العراق.

وفى الثالث والعشرين من ديسمبر دخل عبد العزيز إلى مدينة جدة وبعد ذلك بيومين أعلن رسمياً انتهاء القتال بين نجد والحجاز.

وفى الثامن من يناير عام ١٩٢٦ قدم وجهاء الحجاز يبايعون عبد العزيز وينصبونه ملكاً على الحجاز وسلطاناً لنجد وملحقاتها.

وفى الشهور الثلاثة التالية اعترفت به كل من بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتيى وفرنسا وهولندا وجميع رؤساء الدول الأجنبية التى يتواجد بها رعايا مسلمون.

ما أن حل شهر ديسمبر عام ١٩٢٦ حتى كان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود فى أوج مجده السياسى.. فقد وحد معظم الجزيرة العربية ووضع الأساسى لقيام المملكة العربية السعودية.

ولم يكن الأمر سهلاً أمام الملك عبد العزيز.. فيوم أن هدأت الأمور فى عام ١٩٢٦ كانت خزينة الدولة خاوية ولم تكن الصحراء الواسعة تدر دخلاً ما، وكانت هناك محاولات للبحث عن البترول فى الصحراء منذ عام ١٩١٨ وحصلت فعلاً إحدى الشركات البريطانية على امتياز للبحث عن البترول عام ١٩٢٢ فى منطقة نجد مقابل ألفى جنيه سنوياً إلى حين اكتشاف البترول إلا أنه حتى عام ١٩٢٨ لم تعثر هذه الشركة على أى بترول وتخلت عن التزاماتها وكانت كل ما حصلت عليه نجد من وراء هذا الامتياز أربعة آلاف جنيه فقط لاغير!!

وباستقرار الحكم فى الجزيرة العربية وجدت بريطانيا أن من صالحها أن تعقد اتفاقية جديدة مع الملك عبد العزيز لكى تحل محل ما سبق عقده من اتفاقيات ومعاهدات خاصة تلك التى عقدت عام ١٩١٥ وفعلاً تم توقيع اتفاقية فى جدة بين بريطانيا والملك عبد العزيز فى العشرين من مايو عام ١٩٢٧.. ألغيت بموجبها ما سبقها من اتفاقيات وكانت مدة صلاحيتها سبع سنوات وبموجب هذه الاتفاقية اعترفت انجلترا بالاستقلال المطلق لكافة الأراضى التى يحكمها الملك عبد العزيز وفى مقابل ذلك تعهد الملك عبد العزيز بأن يحترم المعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع حكام الإمارات المتصالحة وأن يقضى على تجارة العبيد إن وجدت وأن ييسر عملية الحج

بالنسبة لرعايا بريطانيا..

وقد كانت مشكلة تأمين الحجاج من أكبر المشاكل التى واجهت الملك عبد العزيز بسبب عمليات السلب والنهب والقتل التى كانت يتعرض لها الحجاج وبذل الجهد للقضاء على هذه المساوئ كما شجع على قيام جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحرم على السكان شرب الخمر (وحتى التدخين على الأقل فى الأماكن العامة) كما كان من بين مهام الجماعة دعوة الناس إلى الصلاة فى مواقيتها.

وبالإضافة إلى الناحية الاجتماعية وتطويرها بدأ الملك عبد العزيز فى وضع الأساس لإدارة بلاده على أسس حديثة وسليمة ولما لم يكن بين أبناء الجزيرة خبرات متعددة لإدارة شئون الدولة فإنه استعان بالخبرات والمستشارين من الدول العربية وعين منهم الوزراء ومبعوثين سياسيين وكان حريصاً على ألا يلى أحد من أفراد أسرته أى منصب سياسى إلا إذا كان قد تأهل فعلاً لأداء مهام هذا المنصب على أكمل وجه، وتحمل مسئولياته وحاول أن يقود شعبه ويخرجه من القبلية المتعصبة إلى المشاركة فى بناء دولة عصرية...

وتجدر الإشارة أنه فى عام ١٩٣٤ أصبح اسم مملكة الحجاز وسلطنة نجد هو المملكة العربية السعودية.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنه حتى عام ١٩٣٠ لم تكن السعودية قد حصلت على أى دخل نتيجة منحها امتيازات للبحث عن البترول رغم أنه كانت هناك محاولات من جانب أكثر من شركة أجنبية إلا أن شروط تلك الشركات لم تكن مقبولة على الإطلاق من الملك عبد العزيز.

وكانت أول اتفاقية وقعت للبحث الجدى عن البترول بين الملك عبد

العزيز وشركة استاندرد فى ٢٩ مايو ١٩٣٣ مدتها ستون عاماً وكانت منطقة البحث هى منطقة الإحساء شرق الجزيرة العربية مقابل دفعة أولى قدرها ثلاثون ألف جنيه ذهب وعلى أن يدفع مبلغ خمسة آلاف جنيه سنوياً على الأقل ويقدم قرضين قيمة كل منها خمسون ألفاً من الجنيهات حينما يتم اكتشاف البترول وندفع الشركة ضريبة قدرها ٤ شلنات على كل طن بترول مستخرج على أن تعفى واردات وممتلكات الشركة من الرسوم والضرائب.

وبدأ خبراء شركة استاندرد فى العمل فى سبتمبر ١٩٣٣، وفى ربيع عام ١٩٣٥ تفجر أول بئر للبترول فى منطقة الظهران ولم يكن الإنتاج آنذاك مشجعاً وظل الحال كذلك حتى عام ١٩٣٨ حيث بدأ يتفجر بكميات معقولة وقامت الشركة بمد خط أنابيب إلى الساحل فى منطقة الخبر ورأس تنورة لكى تستقبل ناقلات البترول لتصديره وحضر الملك عبد العزيز بنفسه شحن أول ناقلة بترول إلى رأس تنورة فى أول مايو عام ١٩٣٩... وفى هذا العام كان دخل المملكة العربية السعودية من البترول يعادل مائتى ألف جنيه ذهباً...

ولم يدع الملك عبد العزيز للثروة التى حصل عليها أن تطغى على تفكيره أو على طريقة حياته فقد ظل يحكم حتى أواخر أيامه بنفس الطريقة التى كان يتبعها منذ بداية حكمه.

****

توحيد المملكة

ووصية الملك عبدالعزيز لمن يليه

في ١٢ جمادى الأولى ١٣٥١هـ (١٠/٨/١٩٣٢م) اجتمع لفيف من كبار الوطنيين، في الطائف، واتفقوا على أن يرفعوا إلى الملك عبدالعزيز (قرارا) وضعوه، بالرغبة في تحويل اسم (المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها) إلى اسم (المملكة العربية السعودية) ووضع نظام خاص بالحكم وتوارث العرش وكان ذلك ما يجول في نفس عبدالعزيز.

وصدر (نظام توحيد المملكة) وتسميتها (المملكة العربية السعودية) يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى.

وأمر بوضع نظام لتوارث العرش من بعده، فانعقد مجلسا الوكلاء والشورى وأبرما قرارا في ١٦ محرم ١٣٥٢ (١١/٥/١٩٣٣م) بمبايعة كبير أبنائه (الأمير سعود) وليا للعهد.

الوصية لمن يلي الملك

وأبرق على الأثر إلى ولي العهد برقية جاء فيها ما نصه الحرفي:

(تفهم أننا نحن والناس جميعا، ما نُعز أحدا ولا نذل أحدا، وإنما المعز والمذل هو الله سبحانه وتعالى. ومن التجأ إليه نجا، ومن اغترّ بغيره (عياذ الله) وقع وهلك. موقفك اليوم غير موقفك بالأمس، ينبغي أن تعقد نيتك على ثلاثة أمور:

أولا: نية صالحة، وعزم على أن تكون حياتك وأن يكون ديدنك إعلاء كلمة التوحيد. ونصر دين الله، وينبغي أن تتخذ لنفسك أوقاتا خاصة لعبادة الله والتضرع بين يديه في أوقات فراغك. تعبّد إلى الله في الرخاء تجده في الشدة. وعليك بالحرص على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يكون ذلك كله على برهان وبصيرة في الأمر، وصدق في العزيمة، ولا يصلح مع الله سبحانه وتعالى إلا الصدق، وإلا العمل الخفي الذي بين المرء وربه.

ثانيا: عليك أن تجد وتجتهد في النظر في شؤون الذين سيوليك الله أمرهم بالنصح سرا وعلانية والعدل في المحب والمبغض، وتحكيم الشريعة في الدقيق والجليل، والقيام بخدمتها باطنا وظاهرا، وينبغي أن لا تأخذك في الله لومة لائم.

ثالثا: عليك أن تنظر في أمر المسلمين عامة، وفي أمر أسرتك خاصة، اجعل كبيرهم والدا ومتوسطهم أخا وصغيرهم ولدا، وهن نفسك لرضاهم وامح زلتهم وأقل عثرتهم، وانصح لهم، واقض لوازمهم بقدر إمكانك. فإذا فهمت وصيتي هذه، ولازمت الصدق والإخلاص في العمل، فأبشر بالخير.

(وأوصيك بعلماء المسلمين خيرا. احرص على توقيرهم ومجالستهم وأخذ نصيحتهم. واحرص على تعليم العلم لأن الناس ليسوا بشيء إلا بالله ثم بالعلم ومعرفة هذه العقيدة. احفظ الله يحفظك.

هذه مقدمة نصيحتي إليك، والباقي يصلك إن شاء الله في غير هذا).

* * * *

أمر ملكي

بتحويل اسم المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها إلى اسم المملكة العربية السعودية

بعد الاعتماد على الله، وبناء على ما رفع من البرقيات من كافة رعايانا في المملكة الحجازية ونجد وملحقاتها، ونزولاً على رغبة الرأي العام في بلادنا وحباً في توحيد أجزاء هذه المملكة العربية، أمرنا بما هو آت:

المادة الأولى:

يحول اسم (المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها) إلى اسم (المملكة العربية السعودية)، ويصبح لقبنا الآن (ملك المملكة العربية السعودية)

المادة الثانية:

يجري مفعول هذا التحويل اعتباراً من تاريخ إعلانه.

المادة الثالثة:

لا يكون لهذا التحويل أي تأثير على المعاهدات والاتفاقات والالتزامات الدولية التي تبقى على قيمتها، ومفعولها، وكذلك لا يكون له تأثير على المقاولات والعقود الإفرادية بل تظل نافذة.

المادة الرابعة:

سائر النظامات والتعليمات والأوامر السابقة والصادرة من قبلنا تظل نافذة المفعول بعد هذا التحويل.

المادة الخامسة:

تظل تشكيلات حكومتنا الحاضرة سواء في الحجاز ونجد وملحقاتها على حالها الحاضر مؤقتاً إلى أن يتم رفع تشكيلات جديدة للمملكة كلها على أساس التوحيد الجديد.

المادة السادسة:

على مجلس وكلائنا الحالي الشروع حالاً في وضع نظام أساسي للمملكة ونظام لتوارث العرش، ونظام لتشكيلات الحكومة، وعرضها علينا لاستصدار أوامرنا فيها.

المادة السابعة:

لرئيس مجلس وكلائنا أن يضم إلى أعضاء مجلس الوكلاء أي فرد أو أفراد من ذوي الرأي حين وضع الأنظمة السالفة الذكر، للاستفادة من آرائهم والاستنارة بمعلوماتهم.

المادة الثامنة:

إننا نختار يوم الخميس الواقع في ٢١ جمادي الأولى سنة ١٣٥١ الموافق لليوم الأول من الميزان يوماً لإعلان توحيد هذه المملكة العربية ونسأل الله التوفيق..»

صدر في قصرنا في الرياض في هذا اليوم السابع عشر من شهر جمادي الأولى سنة ١٣٥١هـ.

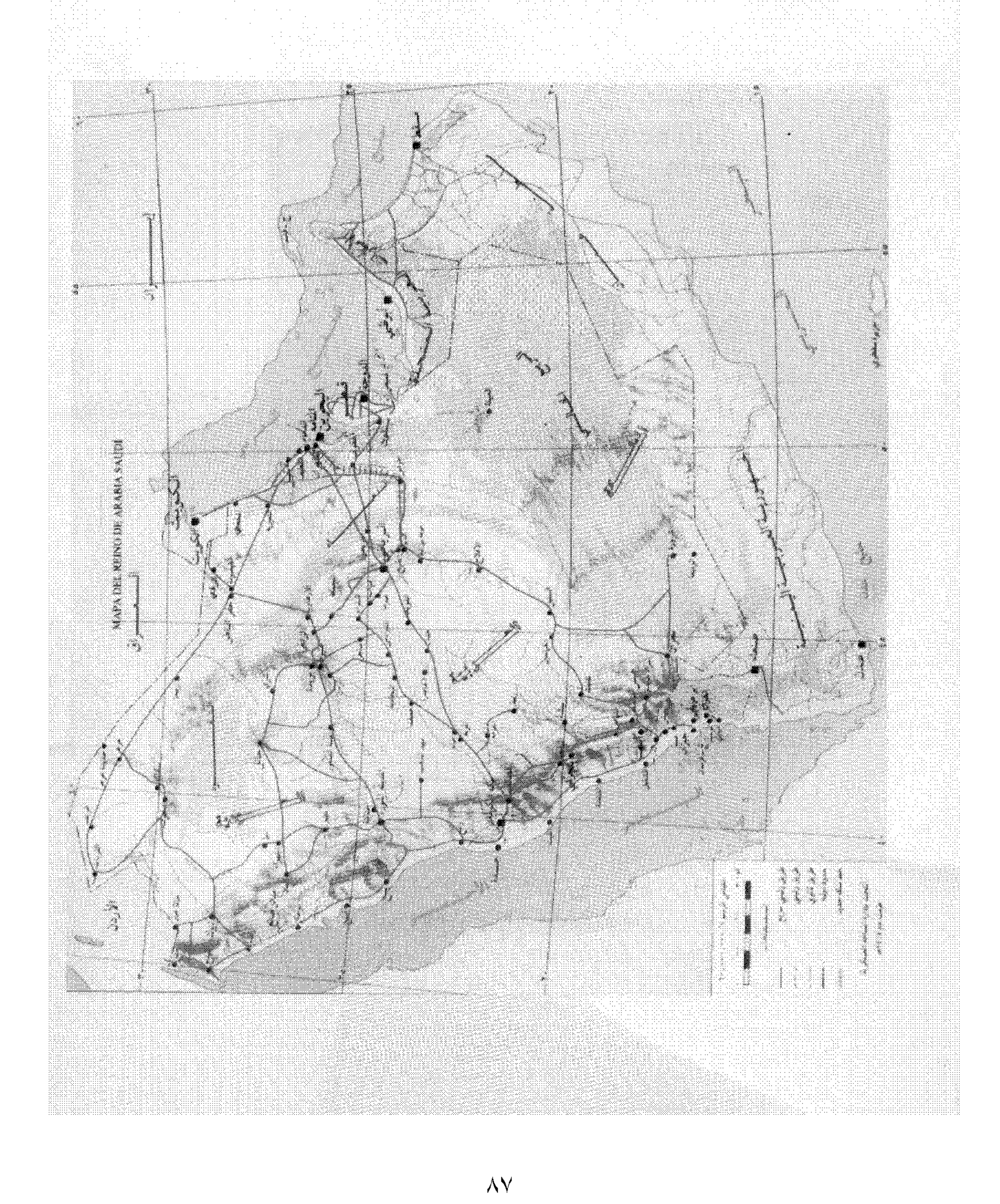
(التوقيع)

عبد العزيز آل سعود

○ النص الكامل للوثيقة التاريخية

تأسيس المملكة العربية السعودية .. نص الوثيقة التاريخية ..

خارطة المملكة العربية السعودية



ركائز الدولة السعودية
التي وضعها الملك عبد العزيز
لأبنائه من بعده

بعد أن انتهى الملك عبد العزيز من مرحلة النضال بدأ مرحلة البناء والتنظيم وترسيخ الأمن، وتأمين طرق الحج، وتعمير البلاد وتوطين البادية، وتثبيت كيان المملكة وتحسين علاقاتها مع الدول العربية والإسلامية والصديقة، والوقوف إلى جانب القضايا العربية والإسلامية العادلة، وجعل القرآن الكريم والسُنة النبوية الشريفة دستور المملكة، وأسس مجلس الشورى، وهيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وافتتح المدارس الحديثة، واستقدم المدرسين، وأرسل البعثات وطبع الكتب ووزعها مجاناً، وعمل على تحديث وتطوير أساليب الحياة فى مملكته الفتية حيث انتفع بالمخترعات الحديثة. وعندما أنعم الله عليه بتدفق البترول عام (١٩٣٨م) أخذت البلاد تتقدم فى النواحى التعليمية والصحية وإنشاء الطرق والسكك الحديدية وغير ذلك من المنجزات المفيدة للوطن والمواطنين، وعمل على سك العملة ووضع موازنة للدولة، وابتدأ فى تنفيذ مشروعات توسعة الحرمين الشريفين، وساهم فى تأسيس جامعة الدول العربية عام (١٩٤٥م)، وأصبحت المملكة عضواً فى الأمم المتحدة، ودعا إلى التضامن الإسلامى وجمع كلمة المسلمين، ودافع بكل قوة عن القضايا العربية والإسلامية.

الملك عبد العزيز فى أواخر أيامه، ووفاته

كان عبد العزيز يحب الحياة. ويحب أن يتمتع بكل ما يستطيع المتعة به، مما أحل الله له ولسواه. ومرض بتصلب الشرايين، فلم يترك شيئاً من عاداته فى أعماله المنظمة مواعيدها.

وانتقل من الرياض بالطائرة إلى الحجاز، فى ٢٨ ذى القعدة ١٣٧٢ (١٩٥٣/٨/٨) فنزل فى الحويه (مصيفه المعتاد) وتوجه بالسيارة إلى الطائف متجلداً، ليسلمّ عليه الناس ويروه.

ولم يتمكن من ترؤس الحج، ذلك العام، فناب عنه ولى عهده.

وأمضى زهاء ثلاثة أشهر بين الحويه والطائف. أكثرها فى الأولى وقد اشتد عليه المرض فيها، إلى أن ابتدأت سكرات الموت.

وممن كان إلى جانبه فى حال النزع. ولداه سعود وفيصل، فكان لا يرفع بصره عن أحدهما حتى يرمق به الآخر. ولم ينقطع عن ترديد حضهما على التعاون والعمل معاً. وآخر ما سُمع منه: فيصل.. أخوك سعود.. سعود! أخوك فيصل. وكرر جملة «لا حول ولا قوة إلا بالله، الحمد الله أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» وأسلم الروح.

وكانت وفاته ضحى الاثنين ٢ ربيع الأول ١٣٧٣ (١٩٥٣/١١/٩) وصلى عليه فى الحوية. ونُقل فى الحال بالطائرة إلى الرياض، فدفن فى مقبرة أسلافه من آل سعود.[١]

وبعد وفاة الملك عبد العزيز – رحمه الله – والذى جاهد أصدق الجهاد فى سبيل تأسيس هذه المملكة الفتية والتى وضعها على عتبة المستقبل المضئ. تسلم مقاليد القيادة من بعده الملك سعود (رحمه الله) الذى اضطلع بمهام الحكم على نهج والده (١٣٧٣ – ١٣٨٤ هـ) (١٩٥٣ – ١٩٦٤م) حيث تنازل لأخيه الملك فيصل بن عبد العزيز نظراً لظروفه الصحية. واستطاع الملك فيصل (رحمه الله) خلال فترة حكمه (١٣٨٤ – ١٣٩٥هـ) (١٩٦٤ – ١٩٧٥م) أن يرسى التغيير الاجتماعى، وأن يحقق للمملكة استقراراً اقتصادياً

---

[١] الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز لخير الدين الزركلى.

ضخماً، كما عمل على تقوية الروابط بالدول العربية والإسلامية الشقيقة من خلال التضامن الإسلامى، وفى عهده قطعت خطة التنمية الأولى شوطاً كبيراً. وبعد وفاته عام (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م) بويع الملك خالد (رحمه الله) وواصل المسيرة على نهج أسلافه من حيث التمسك بتعاليم الدين الإسلامى الحنيف، ومواصلة البناء والتعمير، فبعد الانتهاء من خطة التنمية الثانية بنجاح بدأت خطة التنمية الثالثة عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) وفق ما حدد لها من أهداف وكان، رحمه الله، ذا ثقة كبيرة بأخيه وولى عهده فهد بن عبد العزيز حيث فوضه بالإشراف على خطة التنمية الثالثة، وكثير من شئون الدولة الأخرى، فشهدت البلاد نهضة شاملة وعم الرخاء جميع أنحاء المملكة، وأصبحت تتمتع بمكانة مرموقة واقتصاد قوى. وانتقل الملك خالد إلى جوار ربه بعد أن اضطلع بمقاليد الحكم خلال الفترة من (١٣٩٥ - ١٤٠٢ هـ) (١٩٧٥ - ١٩٨٢م) وفى يوم الأحد ٢١ شعبان ١٤٠٢هـ الموافق ١٣ يونيو ١٩٨٢م، إثر وفاة الملك خالد، تمت مبايعة ولى العهد فهد بن عبد العزيز ملكاً على البلاد كما بويع صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولياً للعهد وفى اليوم نفسه صدر أمر ملكى بتعيينه نائباً لرئيس مجلس الوزراء إلى جانب رئاسته للحرس الوطنى، كما تم تعيين صاحب السمو الملكى الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران والمفتش العام نائباً ثانياً لرئيس مجلس الوزراء.

لقب خادم الحرمين الشريفين:

فى ٢٩ صفر ١٤٠٧هـ صدر توجيه ملكى من الملك فهد بن عبد العزيز إلى سمو ولى العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطنى يطلب

إحلال عبارة خادم الحرمين الشريفين محل عبارة صاحب الجلالة فى كل المخاطبات والمكاتبات وأن يمنع استعمال كلمة «مولاى» أو كلمة «المعظم» أو أى عبارة أخرى تدل على التبجيل والتعظيم. وكان خادم الحرمين الشريفين قد ألقى خطاباً فى حفل افتتاح مركز تليفزيون المدينة المنورة مساء الاثنين ٢٤ صفر ١٤٠٧هـ الموافق ١٩٨٦/١١/٢٧م قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. يطيب لى أن أعلن لكم اليوم من مدينة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عن رغبة ملحة تخامرنى منذ شاء الله أن أتسلم زمام الحكم فى وطنى العزيز باستبدال مسمى صاحب الجلالة بلقب أحبه ويشرفنى أن أحمله وهو خادم الحرمين الشريفين وسوف يعمد هذا رسمياً منذ الآن فى الخطاب وفى الكتاب وسوف تصدر من الديوان الإيضاحات اللازمة لاستخدام الصيغة الجديدة».

وبعد وفاة الملك فهد خادم الحرمين الشريفين فى ٢٦ جمادى الآخرة عام ١٤٢٦هـ الموافق الأول من أغسطس عام ٢٠٠٥م تسلم مقاليد القيادة من بعده الملك عبدالله بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود

والذى ولد عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) وعاش فى ظل ورعاية والده الملك عبد العزيز، الذى كان يحرص دائماً على تلقين أبنائه العلم والأدب إلى جانب التخلق بالأخلاق الإسلامية والتحلى بالعادات والتقاليد العربية الأصيلة. وقد أخذ عن والده جل المناقب الحميدة كاتباع شريعة الله ومحبة المواطنين والنهوض بالمسؤوليات الجسيمة على كل صعيد، وتكريم العلماء ومساعدة الضعفاء وقضاء حوائج الناس بكل ما عرف عنه من أريحية وحب وتواضع جم

وأخلاق عالية. وفى عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢م) عين رئيساً للحرس الوطنى فعمل على إعادة تنظيم وتطوير هذا الجهاز الفعال وتجهيزه بالعلم والسلاح المتقدم والتدريب والتأهيل وتزويده بالثقافة الدينية والعسكرية حتى أصبح الحرس الوطنى بحق خلال عقدين من الزمن قوة لا يستهان بها ودرعاً لحماية الوطن والمقدسات ولنصرة الدين، وأثبت الحرس الوطنى وجوده وكفاءته فى كل مهمة كلف بها.

وقد عُنى بإنشاء المستشفيات والمستوصفات فى الحرس الوطنى والمدن السكنية وتوفير الرعاية الصحية لأفراد الحرس الوطنى وعائلاتهم.

وفى عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) عين نائباً ثانياً لرئيس مجلس الوزراء إلى جانب مسؤولياته كرئيس للحرس الوطنى. وأصبح بحكم هذا المنصب يرأس بعض جلسات مجلس الوزراء.

وفى عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢) اختاره الملك فهد ولياً للعهد وصدر أمر ملكى بتعيينه نائباً لرئيس مجلس الوزراء إلى جانب رئاسته للحرس الوطنى وقد كان دائماً العضد القوى والساعد الأيمن لأخيه خادم الحرمين الشريفين فى تصريف شؤون الدولة وفى السهر والمتابعة لمشروعات التنمية الشاملة وعلاوة على ذلك فقد كان لجلالته دور كبير وملحوظ فى إنهاء الخلافات التى كانت تنجم بين الدول العربية الشقيقة والعمل على المصالحة بينها وخدمة القضايا العربية الإسلامية بتوجيهات من أخيه خادم الحرمين الشريفين. وكانت لجلالته ولا تزال عناية خاصة بالجوانب الثقافية والاجتماعية، فقد تبنى إقامة مهرجان سنوى ثقافى واجتماعى فى الجنادرية تحت اسم «المهرجان الوطنى للتراث والثقافة» الذى تشارك فيه الفعاليات الثقافية والاجتماعية والتراثية من داخل المملكة، ويحضره جمع كبير من الأدباء والمثقفين والمفكرين من معظم البلاد العربية

والإسلامية. كما تبنى إنشاء مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض ومؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والإنسانية بالمغرب. وحرصاً من جلالته على إحياء التراث والتقاليد العربية الأصيلة أنشأ «نادى الفروسية» الذى يرعى رياضة الفروسية العريقة حيث تقام السباقات أسبوعياً وشهرياً وسنوياً وذلك من أجل وصل ماضى هذه المملكة المجيد بحاضرها الزاهر.

وفى ٢٦ جمادى الآخرة عام ١٤٢٦هـ الموافق الأول من أغسطس عام ٢٠٠٥م تسلم مقاليد الحكم بعد وفاة الملك فهد رحمه الله.

صاحب السمو الملكى الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود

ولى العهد والنائب الثانى لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام

يأتى صاحب السمو الملكى الأمير سلطان بن عبد العزيز فى الصف الأول بين رجالات المملكة العربية السعودية الذين قامت على عواتقهم نهضتها الشاملة الحديثة. تقلد المسؤوليات، ومارس العمل العام. منذ عهد والده الملك عبد العزيز إلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله وكان فى قلب السياسة السعودية، داخلياً وخارجياً.

ولد سموه فى ١٣٤٦/٧/١٣هـ الموافق (١٩٢٨/١/٥م)، ونشأ فى رعاية والده المؤسس الملك عبد العزيز، وفى غرة ربيع الثانى ١٣٦٦هـ الموافق (١٩٤٧/٦/٢م) عينه الملك عبد العزيز أميراً لمدينة الرياض وعند تشكيل أول مجلس للوزراء فى المملكة العربية السعودية عُين سموه وزيراً للزراعة فى ١٨ ربيع الثانى ١٣٧٣هـ الموافق (١٩٥٣/١٢/٢٤م)، وكان من أهم المشروعات التى عنى بها سموه إذ ذاك مشروع توطين البادية الذى يُعد أحد التوجهات

الأساسية للدولة فى خطواتها التطويرية، وفى ٢٠ ربيع الأول ١٣٧٥هـ (٥ نوفمبر ١٩٥٥م) عين وزيراً للمواصلات، وفى ٣ جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ الموافق (١٣ أكتوبر ١٩٦٢م) عين وزيراً للدفاع والطيران ومفتشاً عاماً. ومنذ ذلك التاريخ، شهدت القوات المسلحة (البرية والجوية والبحرية) تطورات واسعة استهدفت إعادة تنظيمها، وتحديث سلاحها ومعداتها، وإنشاء الكليات والمعاهد والمدارس العسكرية فى مختلف التخصصات، وحققت جميع أسلحة القوات المسلحة قفزات واسعة، بحيث باتت فى مستوى العصر تسليحاً وتجهيزاً تنظيماً وتدريباً.

تضاف إلى ذلك المشروعات المتممة كالمستشفيات العسكرية والمدن العسكرية التى أقيمت وفق أرقى المستويات. ويحرص صاحب السمو الملكى الأمير سلطان بن عبد العزيز على قضاء عطلات الأعياد بزيارة الوحدات والمعسكرات فى أنحاء المملكة، حيث يلتقى بمنسوبى القوات المسلحة، ضباطاً، وضباط صف، وجنوداً. وفى عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) عُين نائباً ثانياً لرئيس مجلس الوزراء إضافة إلى مسؤولياته وزيراً للدفاع والطيران ومفتشاً عاماً وأصبح بحكم هذا المنصب يرأس بعض جلسات مجلس الوزراء. ومثل المملكة فى كثير من المؤتمرات الدولية كما زار معظم الدول الشقيقة والصديقة، وفى عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) ألقى سموه خطاباً تاريخياً فى هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك بمناسبة الاحتفال بمرور أربعين عاماً على إنشائها وعلى صعيد آخر، فإن سموه يرأس عدداً من الهيئات واللجان ذات التخصصات المختلفة، ومن أهمها:

- المؤسسة العامة للصناعات الحربية.
- البرنامج السعودى للخزن الاستراتيجى.

- لجنة التوازن الاقتصادى.
- مجلس إدارة الخطوط الجوية العربية السعودية.
- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها.

وعُرف عن سموه إسهاماته فى أعمال البر والخدمات الإنسانية حيث تأسست بمبادرة من سموه «مؤسسة سلطان بن عبد العزيز آل سعود الخيرية»، التى يشرف على إدارتها مجلس برئاسة سموه وعضوية أنجاله الكرام وعدد من المواطنين وتعنى بالمعاقين وكبار السن.

ركائز الدولة السعودية

أصدر خادم الحرمين الشريفين بتاريخ ١٤١٢/٨/٢٧هـ الموافق ١ مارس ١٩٩٢م ثلاثة مراسيم ملكية تتضمن إقرار النظام الأساسى للحكم، ونظام مجلس الشورى، ونظام المناطق مما عُدَّ نقلة حضارية متميزة فى مسيرة بناء المملكة العربية السعودية. وقد جاءت هذه الأنظمة على هدى من كتاب الله الكريم وسُنة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، كما جاءت مستفيدة من التجربة الغنية للتطبيق التى عاشتها المملكة خلال تاريخها مما حقق لها الازدهار والاستقرار والرخاء. وعند صدور هذه الأنظمة وجه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود كلمة ضافية إلى المواطنين، أوضح فيها الاستراتيجية العامة لسياسة المملكة ورسالتها وغايتها المستمدة من دين الله وشريعته ورسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وفيما يلى نص الكلمة الملكية التاريخية.

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها الأخوة المواطنون..

إن الله إذا أراد بقوم خيراً هداهم إلى التى هى أقوم. ونعم الله علينا كثيرة لا تحصى، ولا شك أن أعظم هذه النعم على الإطلاق هى نعمة الإسلام فهو الدين الذى إن تمسكنا به لن نضل أبداً بل نهتدى ونسعد كما أخبر الله تعالى بذلك وكما أخبر رسوله عليه الصلاة والسلام.. وحقائق التاريخ والواقع خير شاهد على ذلك. فقد سعد المسلمون بشريعة الإسلام حين حكّموها فى حياتهم وشؤونهم جميعاً. وفى التاريخ الحديث قامت الدولة السعودية الأولى منذ أكثر من قرنين ونصف على الإسلام حينما تعاهد على ذلك رجلان صالحان مصلحان هما الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمهما الله.. قامت هذه الدولة على منهاج واضح فى السياسة والحكم والدعوة والاجتماع.. هذا المنهاج هو الإسلام عقيدة وشريعة.

وبقيام هذه الدولة الصالحة سعد الناس فى هذه البلاد حيث توفر لهم الأمن المكين الكلمة فعاشوا أخوة متحابين متعاونين بعد طول خوف وفرقة. لئن كانت العقيدة والشريعة هى الأصول الكلية التى نهضت عليها هذه الدولة، فإن تطبيق هذه الأصول يتمثل فى التزام المنهج الإسلامى الصحيح فى العقيدة والفقه والدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى القضاء وفى العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

وبذلك كانت الدولة السعودية نموذجاً متميزاً فى السياسة والحكم فى التاريخ السياسى الحديث.. وقد استمر الأخذ بهذا المنهج فى المراحل التالية جميعاً

حيث ثبت الحكام المتعاقبون على شريعة الإسلام وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.. ويستند هذا الثبات المستمر على منهج الإسلام إلى ثلاث حقائق هى:

(١) حقيقة أن أساس المنهج الإسلامى ثابت لا يخضع للتغيير والتبديل قال الله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ﴿الحجر/٩﴾

(٢) وحقيقة وجوب الثبات على المنهج. (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ﴿الجاثية/١٨﴾

(٣) وحقيقة وفاء حكام هذه الدولة لإسلامهم فى شتى الظروف والأحوال واستمر الوفاء للإسلام عقيدة وشريعة فى عهد الملك عبد العزيز، رحمه الله، حيث بنى المملكة العربية السعودية ووحدها على ذات النهج على الرغم من أنه واجه ظروفاً تاريخية صعبة وعلى الرغم من الصعوبات التى واجهته فى أثناء توحيد البلاد، فقد حرص الملك عبد العزيز على إنقاذ منهج الإسلام فى الحكم والمجتمع مهما كانت الصعوبات والتحديات.

ويتلخص هذا المنهج فى إقامة المملكة العربية السعودية على الركائز التالية.

أولاً:

عقيدة التوحيد التى تجعل الناس يخلصون العبادات لله وحده لا شريك له ويعيشون أعزة مكرمين.

ثانياً:

شريعة الإسلام التى تحفظ الحقوق والدماء وتنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وتضبط التعامل بين أفراد المجتمع وتصون الأمن العام.

ثالثاً:

حمل الدعوة ونشرها حيث إن الدعوة إلى الله من أعظم وظائف الدولة الإسلامية وأهمها.

رابعاً:

إيجاد (بيئة عامة) صحية صالحة مجردة من المنكرات والانحرافات تعين الناس على الاستقامة والصلاح وهذه المهمة منوطة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

خامساً:

تحقيق (الوحدة الإيمانية) التى هى أساس الوحدة السياسية والاجتماعية والجغرافية.

سادساً:

الأخذ بأسباب التقدم وتحقيق (النهضة الشاملة) التى تيسر حياة الناس ومعاشهم وتراعى مصالحهم فى ضوء هدى الإسلام ومقاييسه.

سابعاً:

تحقيق (الشورى) التى أمر الإسلام بها ومدح من يأخذ بها إذ جعلها من صفات المؤمنين.

ثامناً:

أن يظل الحرمان الشريفان مطهرين للطائفين والعاكفين والركع السجود – ما أرداهما الله – بعيدين عن كل ما يحول دون أداء الحج والعمرة والعبادة على الوجه الصحيح وأن تؤدى المملكة هذه المهمة.. قياماً بحق الله وخدمة الأمة الإسلامية.

تاسعاً:

الدفاع عن الدين والمقدسات.. والوطن والمواطنين والدولة..

هذه هى الأصول الكبرى التى قامت عليها المملكة العربية السعودية.

وقد استدعى تطور الحياة الحديثة أن ينبثق عن هذا المنهج أنظمة سياسية فى عهد الملك عبد العزيز.. ونظراً لتطور الدولة وتكاثر واجباتها فقد أصدر الملك عبد العزيز، رحمه الله، فى عام ١٣٧٣هـ أمره بتأسيس مجلس الوزراء والذى يعمل الآن وفقاً لنظامه الصادر فى عام ١٣٧٣هـ وما طرأ عليه من تعديلات.

وقد استمر العمل بهذا المنهج حتى يومنا هذا بحمد الله وتوفيقه.. ولذلك لم تعرف المملكة العربية السعودية ما يسمى (بالفراغ الدستورى) فمفهوم (الفراغ الدستورى) – من حيث النص – هو ألا تكون لدى الدولة مبادئ موجهة وقواعد ملزمة ولا أصول مرجعية فى مجال التشريع وتنظيم العلاقات.

إن المملكة العربية السعودية لم تشهد هذه الظاهرة فى تاريخها كله لأنه طوال مسيرتها حكم بموجب مبادئ موجهة وقواعد ملزمة وأصول واضحة يرجع إليها الحكام والقضاء والعلماء وسائر العاملين فى الدولة.. وكافة أجهزة الدولة تسير فى الوقت الراهن وفق أنظمة منبثقة من شريعة الإسلام ومضبوط بضوابطها....

إن المملكة العربية السعودية هى موئل مقدسات المسلمين ومكان حجهم وعُمرتهم وزيارتهم، ولها مكانة خاصة فى نفوس المسلمين، وقد أكرم الله هذه الدولة بخدمة الحرمين الشريفين وتيسير سُبل الحج والعُمرة وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد بذلنا كل ما نستطيع فى سبيل توسعة الحرمين الشريفين وتطوير المشاعر المقدسة، وقدمت الدولة ما فى وسعها من خدمات لقاصدى الأماكن المقدسة، وإذ نحمد الله على ذلك نسأله المزيد من

فضله ومتابعة خدمة هذه الأماكن وخدمة المسلمين والتعاون معهم فى كل مكان. لقد التزمت المملكة العربية السعودية فى مختلف مراحلها منهج الإسلام حكماً وقضاء ودعوة وتعليماً، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وأداء لشعائر الله، التزم الولاة بذلك والتزمه المسؤولون فى الدولة، التزمه الشعب فى تعامله وحياته، فالإسلام هو منهج الحياة ولا تفريط فى ما جاء فى كتاب الله وثبت عن رسوله أو أجمع عليه المسلمون. إن دستورنا فى المملكة العربية السعودية هو كتاب الله الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم. الذى لا ينطق عن الهوى، وما اختلف فيه من شيء رددناه إليهما وهما الحاكمان على كل ما تصدره الدولة من أنظمة، وقد كان الحكام والعلماء فى المملكة العربية السعودية ولا يزالون متآزرين متعاونين، وكان الشعب – ولايزال ملتفاً حول قيادته متعاوناً معها مطيعاً لها بموجب البيعة الشرعية التى تتم بين الحاكم والمحكوم، والحاكم يقوم بالتزاماته تجاه تطبيق الشريعة وإقامة العدل بين الناس وإعطاء كل ذى حق حقه. وبذلك سعد المجتمع بالأمن والاستقرار ورغد العيش.

إن المملكة فى حاضرها كما فى ماضيها ملتزمة بشرع الله تطبقه بكل حرص وحزم فى جميع شؤونها الداخلية والخارجية وسوف تظل – بحول الله وقوته – ملتزمة بذلك حريصة عليه أشد الحرص. إننا ثابتون – بحول الله وقوته – على الإسلام نتواصى بذلك جيلاً بعد جيل وحاكماً بعد حاكم لا يضرنا من خالفنا حتى يأتى وعد الله. وإننا لا نغلق باباً دون المنجزات الحضارية النافعة لكى نستفيد منها بما لا يؤثر على ثوابتنا وهويتنا.

إن المملكة العربية السعودية دولة عربية إسلامية يهمها ما يهم العرب والمسلمين وتحرص على تضامنهم وجمع كلمتهم وتسهم بكل طاقاتها فى ما

يعود عليهم بالخير، وقد أثبتت الأحداث والوقائع صدق مواقفها ووفاءها بالتزاماتها تجاه أمتها العربية والإسلامية والتزاماتها الدولية الأخرى.

سنمضى – بعون الله – على منهجنا الإسلامى متعاونين مع كل من يريد الخير للإسلام والمسلمين حريصين على التمكين لدين الإسلام ودعوته وتقدم هذه البلاد وسعادة شعبها سائلين الله تعالى لشعبنا وأمتنا العربية والإسلامية كل خير وصلاح وتقدم ورخاء وسعادة والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات).

يتفق المؤرخون على تقسيم تاريخ الدولة السعودية إلى ثلاثة أدوار:

الدول الأول:

ويبدأ منذ عام ١١٥٧هـ (١٧٤٤م)، وهو العام الذى وفد فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية واتفق مع أميرها محمد بن سعود على تأييد دعوته، وبذلك تأسست الدولة السعودية الأولى.

وقد استمر هذا الدور (٧٥) عاماً تقريباً. وتولى الحكم فى هذه المدة أربعة من كبار مؤسسى الدولة السعودية هم:

(١) الإمام محمد بن سعود

(١١٣٩ – ١١٧٩هـ / ١٧٢٦ – ١٧٦٥م).

(٢) الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود

(١١٧٩ – ١٢١٨هـ / ١٧٦٥ – ١٨٠٢م).

(٣) الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود المعروف بسعود الكبير

(١٢١٨ – ١٢٢٩هـ / ١٨٠٣– ١٨١٣م).

(٤) الإمام عبد الله بن سعود

(١٢٢٩ – ١٢٣٣هـ / ١٨١٣ – ١٨١٧م).

وينتهى هذا الدور فى عام ١٢٣٣هـ (١٨١٧م) عندما دفعت الدولة العثمانية بالحملة الثالثة على الجزيرة العربية بقيادة إبراهيم باشا.

الدور الثانى:

ويبدأ هذا الدور منذ عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤م) وهى السنة التى استولى فيها الإمام تركى بن عبد الله على مدينة الرياض، وحرر سائر نجد من سيطرة

محمد على باشا. واستمر هذا الدور (٧٥) عاماً، تناول على الحكم خلالها تسعة أمراء، هم:

(١) الأمير مشارى بن سعود الكبير

(١٢٣٥- ١٢٣٥هـ / ١٨١٩ - ١٨١٩م).

(٢) الأمير تركى بن عبد الله (للمرة الأولى) (١٢٣٥ - ١٢٣٦هـ / ١٨١٩ - ١٨٢٠م).

(٣) الأمير تركى بن عبد اللله (للمرة الثانية) (١٢٤٠ - ١٢٤٩هـ / ١٨٢٤ - ١٨٣٣م).

(٤) الأمير فيصل بن تركى للمرة الأولى (١٢٥٠ - ١٢٥٤هـ / ١٨٣٤ - ١٨٣٨م)

(٥) الأمير خالد بن سعود (١٢٥٤ - ١٢٥٧هـ / (١٨٣٨ - ١٨٤١م).

(٦) الأمير عبد الله بن ثنيان (١٢٥٧ - ١٢٥٩ هـ / ١٨٤١ - ١٨٤٣م).

(٧) الأمير فيصل بن تركى (للمرة الثانية) (١٢٥٩ - ١٢٨٢ هـ / ١٨٤٣ - ١٨٦٥م).

(٨) الأمير عبد الله بن فيصل (١٢٨٢ - ١٢٨٦هـ / ١٨٦٥ - ١٨٦٩م).

(٩) الأمير عبد الرحمن الفيصل (١٣٠٧ - ١٣٠٩ هـ / ١٨٨٩ - ١٨٩١م).

وينتهى هذا الدور باستيلاء محمد بن رشيد أمير حائل على الرياض وضمها إلى إمارته ورحيل الإمام عبد الرحمن وأسرته إلى الكويت عام ١٨٩١م.

الدور الثالث:

ويبدأ من عام ١٣١٩ هـ (١٩٠٢م) وهو العام الذى فتح فيه الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود مدينة الرياض، ثم انطلق منها إلى تحقيق أهدافه النبيلة.

المملكة في عهد الملك عبد العزيز
وحمل هموم العرب وفلسطين

ما أن استقرت الأوضاع الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، حتى كانت المملكة العربية السعودية تواكب النهضة السلمية فى كل مكان، فأطلت على العالم منذ مطلع الخمسينات دولة فتية متطورة، شملت النهضة جميع أرجائها بتوفيق الله الذى وهب الأرض المباركة ثروة مباركة زرعت العمران والتقدم فى كل بقاع السعودية.

وبعد هذا انصرف الملك عبد العزيز إلى تعزيز علاقة الدولة بالخارج، فعقد لذلك المعاهدات، واتبع سياسة عربية رائدة، فكان سباقاً فى التفكير بتحقيق الجامعة العربية.

واتبع فى الحقل العربى. سياسة الدفاع عن كل قطر وإقليم عربى، والمحافظة على استقلال وحرية الدولة العربية، والسعى لتحرير الأقطار الأخرى التى مازالت خاضعة للاستعمار.

وفى هذا يقال إن البيت السعودى حمل هموم العرب فى قلبه منذ تأسيس الدولة السعودية، وأن الملك عبد العزيز حمل هم القضية الفلسطينية منذ تأسيس المملكة العربية السعودية.

وقد كانت الدول الأجنبية تحترم مواقف الملك عبد العزيز وتقدر شخصيته، وتحسب حساباً لكل تصرفاته، وحين سعى روزفلت إلى لقائه أرسل إليه بواسطة قنصله فى جدة يقول: «سأكون سعيداً جداً بالتعرف إليكم خلال مرورى بالإسكندرية». وقد أزعجت هذه المحاولة الرئيس تشرشل فسعى إلى معرفة أهداف اللقاء، فجاء الجواب أن الملك عبد العزيز سيبحث مع الرئيس روزفلت الحالة فى فلسطين.

وتمت المقابلة وكانت المفاجأة فيها قول الملك للرئيس «لقد سعدت باستقبالكم الودى، ولكن ليس لى أى مطلب أتقدم به، وأنتم الذين رغبتم فى

رؤيتى، ولهذا افترض أن لديكم ما تقولونه لى».

وفى هذا يقول – هارى هوبكنز – «لا ريب أن الرئيس كان يجهل تماماً حقيقة الرجل الذى دعاه لزيارته، أنه ملك مهيب، ذو سلطة كبيرة، جندى بالفطرة وعربى صميم أولاً... لقد طلب إليه الرئيس أن يوافق على مجئ مهاجرين جدد من اليهود إلى فلسطين، فأصيب بصدمة عندما سمع ابن سعود يجيب لا»... وأعلن الملك بصراحة أنه سيكون بصفته الدينية والسياسية فى طليعة المحاربين إلى جانب إخوانه فى فلسطين».

ويقول روزفلت عن اجتماعه بالملك عبد العزيز:

«بين جميع الأشخاص الذين تقابلت معهم فى حياتى، ما وجدت واحداً حصلت منه أقل مما حصلت عليه من هذا الملك العربى ذى الإرادة الحديدية».

هذه المواقف كانت كلها لمصلحة القضايا الإسلامية العربية بشكل عام، ولصالح القضية الفلسطينية بشكل خاص. ومن يستعرض مواقف الملك عبد العزيز وتصريحاته وأقواله عن قضية فلسطين، يجد كأن الدولة السعودية التى أسسها الملك أنما كانت تهدف أول ما تهدف حل قضية فلسطين.

فى عام ١٩٣٨ أرسل مذكرة إلى الحكومة البريطانية جاء فيها:

«إن قلق العرب والمسلمين هو من تصريحات اليهود المتكررة بأن غرضهم هو إنشاء مملكة يهودية فى فلسطين، وسيل الهجرة فى السنوات الأخيرة جعل المسلمين والعرب يقلقون على مستقبل فلسطين كبلد عربى له قداسته الدينية، وإذا ظل باب الهجرة مفتوحاً فإنه ستصبح الأكثرية فى فلسطين لليهود وتتحقق المخاوف التى تساور العرب فى طردهم من

بلادهم».

ثم اتبع ذلك بمذكرات إلى الحكومة البريطانية فى عام ١٩٣٨، ومذكرة إلى اللجنة البريطانية الأمريكية فى عام ١٩٤٦ بالمعنى نفسه.

وفى ١٥ كانون الثانى - يناير - ١٩٣٨ استقبل وزير بريطانيا المفوض وتحدث إليه عن قضية فلسطين، ومما قاله: «إن مشروع تقسيم فلسطين، يحسب بحق، نكبة عظيمة على العرب والمسلمين. ولكنه نكبة مهددة لبريطانيا أيضاً، فلا تغتر الحكومة البريطانية ولا تسر على ضلال، فإنه لا يوجد مسلم أو عربى يستطيع أن يقنع عرب فلسطين، فضلاً عن العرب فى سائر الأقطار، بالقبول بهذا، ولو ادعى أى زعيم أو ملك أن فى استطاعته ذلك فإن ادعاءه كاذب، فإذا جدت الأمور لا يمكن مقاومة تيار العواطف القوية فى المسلمين والعرب، ولا يمكن أن يقف أحد مع الانجليز فى ذلك. أما اليهود فلو تركوا هم والعرب فإن أمرهم سهل، ولكن المشكل أن العرب يشتبكون مع الانجليز من أجل اليهود».

فى ١٩ آذار – مارس - ١٩٣٩، استقبل مندوبى عدد من الصحف العربية ودار بينه وبينهم حديث مطول تناول فيه عدداً من المواضيع من بينها قضية فلسطين حيث قال:

«أتمنى كل خير وسعادة لفلسطين لأنها بلد عربى وفيها ثالث الحرمين الشريفين وهو المسجد الذى قال الرسولﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدى هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى». ففلسطين بلاد العرب... والذى أتمناه أن يجمع الله كلمة العرب على الاتفاق بينهم ليسلموا من شرور أنفسهم فتسلم نيتهم ويحفظوا أنفسهم من الأذى، فالعرب بتخاذلهم آذوا أنفسهم أكثر مما آذاهم الأجنبى».

وفى ١٧ شباط – فبراير – ١٩٤٦ استقبل وفد اللجنة العربية العليا للبحث فى قضية فلسطين وأدلى فى نهاية المقابلة بما يلى:

«لازلت أضع قضية فلسطين فى قلبى، فاعمل لخيرهم وأرجو الله أن يوفقنى لما فيه الحق، وأننى دائم الاتصال بمن فى يده الأمر. وما كنت لأرغب فى الأقوال، فطريقتى هى العمل الصامت، وسوف يأتى يوم تفشى فيه الرسائل مع من بيده الحل والربط. وأننى أبذل الجهد لحل هذه القضية حلا يتفق مع مصلحة العرب، وعليكم أنتم عرب فلسطين، أن تكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ولست أخدم هذه القضية حباً بفلسطين فحسب بل بدافع الإيمان بالدين الحنيف فضلاً عن أن قضية فلسطين هى قضية العرب كلهم».

وقد أشار الملك عبد العزيز فى كلمته عن الرسائل إلى ما بعثه إلى الرئيس روزفلت عام ١٩٣٨، وإلى البرقيات المتبادلة بين وزير الخارجية الأمير فيصل، ووزير الخارجية البريطانية عام ١٩٣٨ أيضاً. ورسالته الثانية والثالثة إلى الرئيس روزفلت عام ١٩٤٣، ورسالته إلى الرئيس ترومان عام ١٩٤٦.

وإذا كان وضع مسؤولية قضية فلسطين على عاتق شعبها بالدرجة الأولى، ومساعدته بالمال والسلاح قد أصبح اليوم سياسة عربية رسمية، فإن الملك عبد العزيز قد نادى بهذا الرأى منذ عام ١٩٤٨، فقد كان رأيه ألا تدخل الجيوش العربية فلسطين بحكم أوضاع بلادها، وأن تقدم هذه الدول لشعب فلسطين المساعدات اللازمة ليقاتل العدو بنفسه وعلى أرضه فلا يكون لأية قرارات يتخذها مجلس الأمن صفة الزامية بالنسبة للشعب الفلسطينى».

وفى عام ١٩٥٢ ألقى خاطاباً فى مأدبة تكريمية للحجاج، تناول فيه قضية فلسطين بقوله: «إن مسألة فلسطين هى أهم ما يشغل أفكار المسلمين والعرب، وهى المسألة التى يجب أن تكون موضع عناية الجميع ومدار اهتمامهم، وأن السكوت عن قضية فلسطين لا يوافق المصلحة».

وإذا عرضنا أفكار الملك عبد العزيز عن القضية الفلسطينية طيلة الأعوام العشرة التى سبقت حرب عام ١٩٤٨ التى أدت إلى تشريد العرب من فلسطين وإنشاء الدولة الصهيونية، وجدناها تدور حول نقاط أساسية مازالت قائمة حتى اليوم.

منها المطامع الصهيونية بإنشاء مملكة يهودية، وقضية الهجرة، وارتداد المخاطر الصهيونية على أرباب إسرائيل الانجليز والأمريكان فيما بعد، نظراً للمطامع التوسعية الصهيونية.

ومنها أيضاً اعتبار القضية الفلسطينية قضية إسلامية عربية ذات صلة بالعلاقات الدينية والمعتقدات الإسلامية والقومية العربية والشعور القومى..

ومنها أيضاً الاهتمام الخاص الذى توليه السعودية لهذه القضية بشكل عام، وتركيزها هذا الاهتمام بشكل خاص على من بيدهم الحل والربط، وقيام السعودية بدور مستمر وفعال بالاتصالات الدائمة سواء عن طريق الزيارات واللقاءات أو عن طريق المراسلات والمذكرات.

ومنها أيضاً تشجيع الفلسطينيين على القيام بالدور الأساسى لحل مشكلتهم، ومساعدتهم بالمال والسلاح والتأييد فى هذا السبيل.

ومنها أيضاً ارتباط القضية الفلسطينية بالمصلحة العربية العليا التى لا يستطيع أى مسؤول احتكارها أو ادعاء تمثيلها أو التفريط بها.

لقد كان للملك عبد العزيز موقف واضح حول الاتحاد العربى والتضامن الإسلامى، أوضحه فى الخطاب الذى ألقاه فى ١٢ نيسان – إبريل – ١٩٣٢، حين تحدث عن الملابسات التى تحيط بالموقف السياسى، ورد على الشائعات المغرضة، وتناول قضية الاتفاق ووحدة الرأى فقال:

«ما دَمَّر الدِّين أكثر من الفتن بين المسلمين لم يكن ذلك إلا من اختلاف المسلمين وعدم اتفاق كلمتهم، وإذا أعدنا النظر إلى أيام الإسلام الأولى وما افتتحوا من أقطار وما كسروا من أصنام وما نالوا من خير عميم، نجد هذا كله ما حصل إلا باجتماع الكلمة على الدين والإخلاص فى العمل والخلوص فى النية».

وفى ١٩ آذار – مارس – عام ١٩٣٥ تحدث فى الاحتفال بتكريم الحجاج فقال:

«إن أحب الأمور إلينا أن يجمع الله كلمة المسلمين، فيؤلف بين قلوبهم، وأن يجمع كلمة العرب، فيوحد غاياتهم ومقاصدهم، ليسيروا فى طريق واحد يوردهم موارد الخير.. فإلى مثل هذا التضامن أدعو المسلمين إليه والعمل به».

وفى ٥ آذار – مارس – ١٩٣٦، تعرض إلى نفس الموضوع فقال:

«يجب أن يعتبر المسلمون مما هم عليه من كثرة أقوالهم وعدم أفعالهم. أن العمل هو أساس النجاح، والعقيدة الصحيحة هى أساس الفلاح، يجب على المسلمين عموماً، والعرب خصوصاً، أن يتدبروا الموقف ويرجعوا إلى ربهم... إن حال المسلمين اليوم لا تسر، وهذا ما لا يقره الإسلام، يجب على المسلمين أن يتدبروا موقفهم جيداً ويعملوا لتطهير قلوبهم من الأدران، فالموقف دقيق، والفرقة أول التدهور والانحلال، بل هى العدو الأكبر

للنفوس، والغاوية للبشر، والاتحاد والتضامن أساس كل شيء، فيجب على المسلمين أن يحذروا الفرقة وأن يصلحوا ذات بينهم ويبذلوا النصيحة».

وفي ٩ كانون الثانى – يناير – ١٩٤١، قال عن موضوع التضامن ووحدة الصف:

يجب على المسلمين عامة والعرب خاصة أن يتمسكوا بعرى الإسلام حتى لا تذهب ريحهم.. وكل ما ندعو إليه هو جمع كلمة المسلمين واتفاقهم، ليقوموا بواجبهم أمام ربهم، وأمام بلادهم، والذى نشهد الله عليه ونحن أوسطكم فى الإسلام، وأوسطكم فى العروبة، أننا ما ننام ليلة إلا وأمر جميع المسلمين يهمنا، ويزعجنا كل أمر يدخل عليهم منه ذل أو خذلان. ونرجو الله أن يوقظ المسلمين من غفلتهم ليتعاضدوا ويتعاونوا».

وفى ٧ كانون الأول – ديسمبر – عام ١٩٤٣ تحدث عن الاتحاد العربى فقال:

«الاتحاد العربى أو الاتفاق العربى أقل مراتبه جمع الكلمة، ويجب علينا نحن المسلمين، أن تتخذ لنا جامعة من عقلائنا الذين ليست لهم مطامع حتى تلتئم الأحوال. ثم أضاف فى موقف آخر: ولازلت أوصى المسلمين بالاتحاد والتعاضد، وإذا كنا ننكر أفعال اليهود أو غيرهم، فيجب ألا نعمل أعمالهم، ولا يجب أن نعيب عليهم ونحذر حذوهم».

****

هذا هو الملك عبد العزيز مؤسس المملكة العربية السعودية، الذى كان زعيماً عربياً موهوباً، بكل ما تحمله الكلمة من المعنى والمفاهيم. انهارت أمام عزمه الحصون. وانهزمت الجيوش بحكم فطنته وذكائه، ورفع المملكة على قدميها مرهوبة الجانب موفورة الكرامة بعد أن نظمها، ووجه

الحكم فيها، ورفع المواطنين من الجهل والفقر والمرض والمنازعات وأعلى كلمة الحق والعدل..

لقد وَحَّدَ عرب الجزيرة وجمع شتاتها وعشائرها، وطهر جسمها من الأمراض، وجعلها شيئاً واحداً وأقام فيها حكماً صالحاً، وبقى كذلك حتى انتقل إلى رحمته تعالى فى التاسع من تشرين الثانى – أكتوبر – عام ١٩٥٣. وسطر بذلك أعظم ملحمة لرجل: «بدأ حياته وهو لا يملك سقفاً يأوى إليه، فأصبح يحكم مملكة يزيد عدد سكانها على ستة ملايين نسمة وتبلغ مساحتها ميلوناً و٩٠٨ آلاف كيلومتر مربع.

لقبه الانجليز «بنابليون الجزيرة العربية» الذى حكم مملكة تبلغ مساحتها نصف مساحة أوروبا وبلداً هو الثالث فى العالم فى إنتاج البترول وأصبح الزعيم المرموق فى العامل العربى».

وحين توفى الملك عبد العزيز عام ١٩٥٣ لم تخسره السعودية وحدها كمؤسس دولة، بل خسره العالم العربى والإسلامى فى كل مكان، وافتقده العالم كله لأنه كان قد فرض نفسه فى الأوساط الدولية.

واللقب الذى أطلق على الملك عبد العزيز – «نابيلون الجزيرة العربية» – يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن المال وحده لا يبنى الدول، بل الرجال هم الذين يفعلون ذلك، وقدرة الرجل على بناء الدولة أو هدمها هى كقدرته على جمع المال أو تبذيره، ومن لا يحسن كيف يستعمل المال لا يحسن كيف يبنى الدولة..

لقد استطاع الملك عبد العزيز أن يوحد الجزيرة العربية.. ولكن قدرة الرجل وعظمته أنه استطاع أن يبنى دولة دستورها القرآن والسُنة.. ولم يستورد لها قانوناً من الخارج ولكنه اعتمد الشريعة الإسلامية قانوناً..

وتقاليد العرب ميثاقاً للأخلاق.. وطريقاً لتحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

والرجل كما يصف نفسه.. «أنا رجل بدوى ربيت تربية بدوية.. ما أجيد صوغ الكلام ورصفه.. وليس عندى شىء من هندسة الكلام.. وما يجول فى قلبى اتكلم به» ورجل بهذه الصفات بينى دولة بهذه العظمة لابد أن يكون رجلاً شجاعاً صادقاً مؤمناً.. وفى منتهى الذكاء..

لقد بدأ كفاحه من نقطة الصفر.. وعاش حوالى نصف قرن مقاتلاً.. ليس معه سوى مصحفه وسيفه ورجاله المخلصين.. وكان العالم يراقب هذا الرجل.. وأطلقوا عليه فهد الصحراء.. واحتل مكانه فى التاريخ بطلاً وقائداً وإماماً..

واستطاع الرجل أن يجمع حوله الشعب.. لأنه كما يقول.. يرى الكبير كوالده والوسط كأخيه والصغير كابنه.. كان يهتم بالشعب.. ويتفقد مصالح الناس بقلب كبير.. ويقدر الجهد والاستطاعة كما كان يعلق.. ويطلب من الناس أن يساعدوه حتى يصل الحق إلى أصحابه.. وحتى لا يكون فى المملكة مظلوم.. وفى هذا العهد كانت المملكة مترامية الأطراف.. والمواصلات صعبة.. والاتصالات ضعيفة.. لم تكن هناك ثورة اتصالات وطائرات وطرق.. ولذلك كان الرجل يتحرك طوال العام بين مدن المملكة.. يسأل عن أحوال الرعية ويناقش العدل.. وكان يشكو إذا تأخرت أى قضية لمدة عامين.. كان يعتبر أن العدل البطئ نوع من غياب العدل نفسه..

ويعلن الملك أن باب العدل مفتوح للجميع.. وكل الناس أمامه سواء حتى يبلغ الحق مستقره.. وجعل على أبواب القصر صندوقاً للشكاوى.. مفتاحه معه.. حتى لا يخشى صاحب الحق.. ولكنه أيضاً كان يحاسب من يقدم بلاغاً كاذباً.. ولم يكن ينظر فى شكوى مجهولة..

لقد استطاع الملك عبد العزيز أن يقيم العدل فى مملكة واسعة.. عاشت فترة من الزمان ممزقة.. يضيع فيها حق الضعيف.. ويعتدى فيها القوى على غيره فلا يجد من يردعه..

****

الملك عبد العزيز
الأسطورة التى وحدت الجزيرة العربية

الملك عبدالعزيز نشأته الأولى وثقافته

إن الخلائق العظيمة وليدة التربية والنشأة الحسنة. وعليه، فالبيئة تلعب دورا في التدريب الروحي والخلقي. بالنسبة للملك عبدالعزيز كطفل، فقد حظي بأبوين صالحين، متميزين بذكاء حاد وخبرة بالحياة. فغرست والدته روح الإيمان فيه، مع إرشاده لفهم الحياة، لا علي أنها مظهر، بل على أنها معنى وجوهر.وطبعا، فلهذا أهميته، لأنه يحمل توجيها نحو الانطلاق مستقبلا، لطريق العمل الفعال، دون الانبهار بالمظاهر التي قد تقف حائلا دون ذلك. ولو أن والدته غطت هذا الجانب الهام من حياته منذ طفولته، فإن والده الإمام عبدالرحمن غرس فيه ضرورة عدم التهاون بأمور الدين، وأخذ يدربه على الرجولة والخشونة. وما أن بلغ الخامسة من العمر، حتى عهد به إلى الشيخ عبدالله الخريجي.. فختم القرآن خلال مدة أربع سنوات، وبعد ذلك عهد به للشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ، لكي يتفقّه في الدين[1]. وذلك تنفيذا للحديث النبوي الشريف (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين).. على أنه في أثناء كل ذلك، فقد عمد والده لتعويده على الصحو المبكر في أيام البرد القارس، كما عوده علي المشي حافيا على الرمل الحار لمدة من الوقت. ودرّبه أيضا على كيفية إطلاق النار كمقدمة لغرس روح الفروسية، المتطلبة في الحروب، فيه، مدربا إياه، زيادة على هذا، على استخدام السيف[1]. وغدا بذلك يصطحبه لساحات القتال. هذا إضافة إلى تزويده بالفرصة لحضور مجالسه بصدد قضايا الحكم. على أنه بعد اضطرار الإمام عبدالرحمن للذهاب مع عائلته إلى الكويت، عمد إلى تلقين ابنه لدروس أكبر في مجال الدين ثم الوطنية.

---

[1] من حياة الملك عبد العزيز. للأستاذ محمد الأحيدب.

[1] الملك الراشد للأستاذ عبد المنعم الغلاوى.

ويذكر له أمجاد عائلته، ويغرس فيه ضرورة العمل على استعادتها· على أن كل ذلك يبين بأن عبدالعزيز، الملك الذي حقق أمنية الإمام عبدالرحمن، حظي بتربية باعثة على خلق عظيم في نفسه·· خلق القوة المعنوية التي تتكون روافدها من الاستقامة، والصدق، والعزم، وقوة البصيرة، والصبرعلى الشدائد والثبات المصطحب بالتوكل على الله عز وجل حتى تحقيق الهدف· وبذلك أصبح قادرا على تحمل أعباء التحرير للرياض، بل وتوحيد الجزيرة برمتها، وتوطيد الأمن في المناطق التي تعرضت للغزو والسلب فيها، فأصبح قدوة للاحتذاء به كبطل أو كرجل عظيم.

مكونات عظمته

١ – الالتزام بالتوحيد[١]

من أهم مكونات العظمة لأي بطل، الإيمان الصادق وذلك لأن الإيمان يعني تقديم الطاعة لله تعالى وحده، لا شريك له، والخضوع لقضائه، خيره وشره، والاستعانة به في أموره· إن الذي يطيع الله تعالى، هو إنسان ملتزم بالتوحيد، مع فهم صحيح لأهميته كمبدأ روحي جوهري في حياته. إن التوحيد هو الطريق لإدراك الملتزم به، بمدى قدراته كمخلوق تابع لله عز وجل، علما بأن المدرك لذلك، يتصرف عن علم بحقائق الأشياء. فلا يستكبر مهما بلغت منزلته، ولا يعلو في الأرض بغير حق.. فهو يعلم الهدف من وجوده، ويؤمن بالبعث والحساب· في حالة التزام الحاكم التام بالتوحيد عن فهم عميق لمضمونه، يتعامل مع محكوميه في إطار من المساواة، فيعتبر نفسه واحدا منهم، ولكن بمسؤوليات أكبر بحكم منصبه· فهو، بهذا الإطار، على يقين تام بأن ذلك هو واجبه. ولو لم يتبع هذا المنهج، ويلتزم به بدقة، لتحول نظام

[١] الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية. للدكتورة زاهية الدجاني.

حكمه إلى نظام قائم على التأليه، أو عبادة الفرد، وهذا أمر مرفوض كلية بالإطار الروحي، لأن الألوهية لله تعالى وحده، لا شريك له. والذي يراجع السور القرآنية التي تُعنى بقصة فرعون، ملك مصر أيام موسى عليه السلام، يدرك مدى الزجر القرآني لنظام الحكم القائم على التأليه، والدعوة لضرورة الابتعاد الجازم عنه. ومثل إغراق فرعون وجنده في اليم، يشكل عبراً للعالمين. بمعرفة الملك عبدالعزيز الواسعة في القرآن، فقد حرص كل الحرص على التأكيد للناس على أنه واحد منهم، في كل مناسبة، وذلك حتى يبقي التوجه منصبا نحو التوحيد. ومما لا شك فيه أن الرواية التالية تعطي دليلا على ما نقول: (في إحدى زيارات الملك عبدالعزيز لبلدة الخرج (يوم ٧ ذي الحجة ١٣٦٣هـ) دخل عليه شاعر من أهل نجد، وفي يده قصيدة استأذنه في إلقائها، وابتدأ بمطلعها:

أنت آمالنا وفيك الرجاء

فصالح الملك تخسأ، ولمح في المجلس الشيخ حمد الجاسر، فقال: خذه علمه التوحيد يابن جاسر). فموقفه هذا يبين دراية تامة بالتبعات والمسؤوليات، وغيرة على الدين مثل والده من قبله، وسرعة في الإصلاح من منطلق الإيمان بالواجب والحق. هذا، وفي حرص الملك وتشديده على ضرورة الالتزام بالتوحيد في كل قطر إسلامي، نراه يقول: (إنني أدعو المسلمين جميعا إلى عبادة الله وحده والرجوع للعمل بما كان عليه السلف الصالح لأنه لا نجاة للمسلمين إلا بهدا). إن قوله يبين علما ثاقبا من جانبه، بما وصل إليه العالم الإسلامي من انحدار روحي اجتماعي وثقافي، وينبه إلى أن الخروج منه لا يتم إلا بالتوحيد، والعمل بمنهج السلف الصالح – أي المنهج القائم على قواعد الدين في الالتزام بالعدل، والمساواة، والتمسك بالتواضع كفضيلة.

٢ - التحلي بتهذيب الخُلق

إن التواضع صفة من صفات القوة، ويقف نقيضا للاستكبار. وهو يعني البساطة في العيش، والقناعة الممتزجة بطيبة في النفس، وسمو في الخلق، وتمسك في الإيمان. وتلك كلها من شيم الملك عبدالعزيز، الذي عُرف بالقول: (والله ثم والله إني لأفضل أن أكون على رأس جبل، آكل العشب من الأرض وأعبد الله وحده، من أن أكون ملكا على سائر الدنيا ومن فيها)، وبذلك ضرب مثلا حيا للأخلاق العظيمة الأخلاق التي لا يحرص صاحبها على الزخرف المادي، والمظهر، بل يحرص على الجوهر. على المعني للحياة. ومما يدعم ذلك أيضا قوله الآتي: (لقد أسست هذه المملكة من دون معين. وكان الله القدير وحده معيني وسندي، وهو الذي أنجح أعمالي. لست ملكا بمشيئة أجنبية.. بل أنا ملك بمشيئة الله ثم بمشيئة العرب الذين اختاروني وبايعوني على أنها ألقاب وأسماء. فما أنا إلا عبدالعزيز، قال العرب إنني ملك فرضيت قولهم وشكرت ثقتهم. وفي اليوم الذي لا يريدونني زعيما لهم أعود إلى الصف وأحارب معهم بسيفي كأصغر واحد فيهم، دون أن ينال نفسي شيء من الغضاضة)[1]. إن تلك الفقرة لا تقف عند حدود إظهار الصفات الخلقية المكينة في نفس الملك عبدالعزيز، بل تتعدى ذلك لإعطاء ومضات عن مفهومه في الحكم. وهو يتمثل بالنقاط الآتية: العدل والتسوية بين الناس كركنين أساسيين في المجتمع. الحق في استخدام الشورى، والاعتراض والنقد والقبول حتى بالتنازل في حالة الإجماع ضرورة وجود الثقة بين الحاكم والمحكومين حتى يبقى التقارب بينهم موجودا. ومن ثم القيام بمهام الحكم عن اقتناع وتأييد الرعية، وتجدر الإشارة هنا إلي أن للملك عبدالعزيز آراء قيمة في مسألة أهمية

[1] الملك عبد العزيز مؤسس المملكة العربية السعودية للدكتورة زاهية الدجاني

التقارب بين الحاكم والمحكومين. فذلك عنصر من عناصر إبعاد النفعيين، ودسائسهم التي تقلب الحقائق رأسا على عقب، بكل العواقب المترتبة عن هذا. ولإعطاء دليل، يحسن بنا أن نحضر القول الآتي للملك: (التباعد بين الراعي والرعية يدع مجالا للنفعيين، فيجعلون الحق باطلا ويصورون الباطل حقا). ومما لا ريب فيه أن قوله هذا يهدف للحث نحو الصدق والاستقامة، والبعد عن النفاق. وفي ذلك حكمة كبرى، وفهم عميق للإسلام. فالنفاق يعني السير في خطين، ومظهره الجنوح إلى التفوه بما ليس بالنية أو في الباطن، بهدف الحصول على منافع ذاتية. وبذلك الإطار، يشرع المنافق إلى قلب الحقائق، ولكن مع الإبقاء على مظهر خادع. طالما سبب إيذاء للأبرياء. ومن هنا، نرى أنه في دعوة الملك الضمنية نحو تطهير المجتمع من النفاق، فقد كان يسعى نحو منع الظلم من التسرب عن طريق أهل النفاق بفتنهم، وحيلهم، واعوجاجهم إليه، ومن ثم إقرار العدل فيه، هذا مع العلم بأن العدل يشكل عنصرا هاما في الرقي الاجتماعي. لأنه يعني بدوره إدارة شؤون الدولة في إطار يحافظ فيه على التوازن بين الحقوق والواجبات في ظل القانون. وقد عرف الملك عبدالعزيز بحرصه على بعث روح من الوعي بهذا الاتجاه في أبناء شعبه في خضم اهتمامه بمسألة توطيد الأمن، والنظام، في البلاد التي كان يحكمها. وأكبر دليل على ذلك مشروعه الكبير، الذي أقامه عن علم دقيق وتخطيط لتحويل أكبر عدد من البدو الرحّل إلى حضر. ومن هنا، فلابد لنا الآن من إعطاء صورة موجزة عنه، لأنه يعكس منحى جديدا، من مناحي عظمته التي نتحدث عنها.

٣ – إيمانه بالتحضير

قبل البدء في تحليل موجز عن المشروع، نود أن نبين بأن الحضارة مرتبطة بالاستقرار.. فحيثما استقر الناس في منطقة، وعلموا أنها موطنهم، يشعرون بالانتماء إليها. فالانتماء، إذن، ينتج عن الارتباط بالأرض والحب لها، والشعور بالمسؤولية للدفاع عنها، على أساس أن كيانه فيها. إذن، فأول خطوة في مشروع الملك عبدالعزيز في تحضير البدو تمثلت في إعطائهم الأراضي لهم في أكثر من مكان وتعويدهم على الاستقرار فيها بخلق روح من الانتماء لها. طبعا، إن ذلك ليس أمرا سهلا، إذ أنه يتطلب تثقيفا روحيا واجتماعيا، يبين من خلاله الرابطة الوثيقة بين الدين والدنيا.. فالدين مصدر العلم بأسباب وجود الإنسان، ومصدر المعرفة بالمبادئ التي تؤدي إلى سعادته في الدنيا والآخرة.. والسعادة تلك لا تكون إلا بالعمل الدؤوب المثمر، الذي يُحاسب كل إنسان بموجبه. ولهذا نرى الملك عبدالعزيز، وهو يعطي دورا هاما لرجال الدين للتثقيف الروحي بهذا الإطار. وطبعا، فثقافة كتلك تعلم الإنسان على ضرورة تقديم الشكر للخالق، الذي أنعم على الإنسان بالأرض، وألقى عليه مسؤولية تنظيمها، كخليفة له فيها. على أنه بفهم معنى الشكر، تنمو حاسة الانتماء في الذات البشرية، فيشعر الإنسان بأن أرضه جزء منه، وأن الدفاع عنها لازم، لأنه يعبّر عن الشكر لله تعالي، وعدم الجحود بنعمته، في حين أن التقاعس عن ذلك يشكل جحودا بالنعمة. ومتى وصل الوعي بالإنسان إلى هذا الحد، يعرف قيمة الأرض، وأهميتها في توفير المواد النباتية له، واللازمة لاستمرارية حياته، وعندها يُقدم على زراعتها بنشاط، وهذا ما يفسر اهتمام الملك عبدالعزيز بانشغال الناس بالزراعة، وتوفير الأدوات اللازمة لهم في هذا الصدد، إضافة إلى المياه.. وبما أن الأمور كانت في مراحلها الأولى، فكثيرا ما تقوم بتوفير كافة المواد الغذائية لهم، في حالات قلة المطر، أو

الجدب.. إذن، بالتثقيف الديني، وبتدريب الناس على تفهم معنى المسؤولية.. وبتدريبهم على وسائل حضارية ضرورية للانطلاق إلى خطوات أخرى، سادت روح التكافل في القبائل.. وبها نما الشعور بضرورة النظام، من خلال اتباع القانون، وترك عادات الغزو، والسلب، والنهب، ومهاجمة القوافل، وهكذا وبذلك الإطار، فقد نجح الملك عبدالعزيز في الحصول علي موالاة أكبر عدد من هؤلاء له، عن فهم واقتناع، مما سهل عليه مسألة توحيد الجزيرة.. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الانجاز الحضاري العظيم، لم يكن الوحيد في زمان الملك عبدالعزيز، إذ أن له إنجازات أخرى في غاية الأهمية، وتتصل بمفهومه للانفتاح على الحضارات الأخرى بقواعد معينة ومدروسة.

٤ – الانفتاح على الحضارات

لقد رأى الملك عبدالعزيز ضرورة إخراج بلاده من عزلتها، بانفتاح محدد على الحضارات الأخرى، والانفتاح هذا يشمل الناحية التقنية. وبذلك وافق الملك على إحضار التليفون، والتلغراف اللاسلكي إلى بلاده، بالرغم من معارضة قوية قامت ضده، كما يتجلى من الخبر الآتي في مؤلف (من حياة الملك عبدالعزيز) لعبدالعزيز محمد الأحيدب: لما علم رجال الدين الملك على إنشاء محطات لاسلكية في الرياض وغيرها من المدن في نجد، خاطبوه بالقول: (يا طويل العمر، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا.. فقال لهم الملك: لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد، ولست ولله الحمد بضعيف العقل أو قصير النظر لأُخدع... ثم أضاف قائلا (مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لي ولبلادي، وليس هناك من دليل أو سنة رسول يمنع من إحداث اللاسلكي والسيارات. ومما لا ريب فيه بأن موقف الملك صحيحا للغاية.

فالإسلام هو دين العقلانية، ويدعو للاكتشاف، على أساس أن ذلك يدخل ضمن مسؤولية الإنسان لتنظيم الأرض.

ومن هنا، فكما أخذ الغرب، الكثير من العلوم، عن الحضارة الإسلامية، وأضاف إليها، فلا بأس من أخذ الآليات التي تساعد على الرقي والتطور،منه. فالحياة، مرة أخرى، أخذ وعطاء، ويمكننا أن نتصور هنا بأن الملك المدرك تماما لمعنى التطور، ومعنى الفائدة من استخدام الوقت، قد كان يرمي إلى بث الوعي بين شعبه لذلك.. فإنجاز الأعمال يتم ببطء، لو لم توجد الوسائل المستجدة التي تستخدم في معظم أجزاء العالم، في حين أنها تنجز بالسرعة المتماشية مع التطور في العصر الحديث. فالوقت المتطلب مثلا للتنقل من أجل إيفاد رسالة ضرورية على ظهر الدواب، ليس كالوقت الذي تتطلبه مكالمة تليفونية أو رسالة تلغرافية، فسواء التليفون أم التلغراف، فإنهما يقضيان حاجات داخلية وخارجية بالسرعة الضرورية لمنع العزلة، والخروج إلى حيز التجديد، والعلم بمجريات الأحداث، اللازمة، لحماية البلاد، وحفظها من أي أخطار خارجية.. وتجدر الإشارة هنا إلى أن حرص الملك عبدالعزيز لم يقتصر على بلاده، بل امتد إلى البلدان الإسلامية الأخرى. وعليه نراه، وهو يدعو للانفتاح للأخذ بالعلوم التقنية، لفائدتها الكبرى بالخطوط المذكورة أعلاه، ولكن مع الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية، كما يتجلى من قوله الآتي: (إن المدنية الصحيحة هي التقدم والرقي، والتقدم لا يكون إلا بالعلم والعمل). هذا إضافة إلى مأثوره الآتي: (يقول كثير من المسلمين: يجب أن نتقدم في مضمار المدنية والحضارة، وإن تأخرنا ناشيء عن عدم سيرنا في هذا الطريق، وهذا ادعاء باطل، فالإسلام قد أمرنا بأخذ ما يفيدنا ويقوينا على شرط أن لا يفسد علينا عقائدنا وشيمتنا). إن تلك الأقوال للملك عبدالعزيز، تكشف عن

حرصه على الإبقاء على سمو الحياة الروحية، حتى لا تهبط إلى أوضاع مادية بحتة، فالاكتشافات ضرورية، ولكن يجب أن تصطحب بسمو في الحياة الروحية، لبلوغ أقصى غايات الخير في الرقي والتقدم، وهنا تبرز معرفته العظيمة في الحث نحو الطريق الصحيح، لإخراج البلاد الإسلامية من الأزمات إلى التعمير، والتنظيم. وتوجهه هذا يستحق توقيره كرجل عظيم، وحاكم فذ، أراد الرفعة للإسلام كدين، وللعرب والمسلمين، وشعر بالألم لأحوال الفرقة السائدة بين الأخوة في الأقطار الإسلامية، مما دفعه للدعوة لنبذ الخلافات بالقول: (إن حالة المسلمين اليوم لا تسر، وإن الحالة التي هم عليها لا يقرها الإسلام. يجب على المسلمين أن يتدبروا موقفهم جيدا ويعملوا لتطهير قلوبهم من الأدران التي علقت بها، فإن الموقف دقيق.

٥ – جمع شمل الأمة

بهذا الإطار الفكري، نرى أن الملك عبدالعزيز رأى أن الوحدة تشكل دعامة رئيسية في مضمار التطور الحضاري. وتلك حقيقة بكل تأكيد. فالأمة كقاعدة أسرة كبيرة، بجسم عضوي، تتحد – بموجب كلمات أحمد أمين– (في اللغة وفي الدين غالبا يحكمها قانون واحد ويشترك أفرادها في المنافع والمضار)[1]. على أن انهيار جزء منها، يؤدي إلى انهيارها الكلي مع الوقت. وبهذا الإطار الفكري، نرى أن الملك عبدالعزيز يقول: (إن الفرقة أول التدهور والانخذال، بل هي العدو الأكبر للنفوس والغاوية للبشر، والاتحاد والتضامن أساس كل شيء، فيجب على المسلمين أن يحذروا التفرقة، وأن يصلحوا ذات بينهم، ويبذلوا النصيحة لأنفسهم). هذا، ومن الحقائق التي يجب تذكرها هنا أن من يحرص

[1] كتاب الأخلاق لأحمد أمين.

علـى الوحـدة بقلـب خـالص فـي الإيمـان، لابـد وأن ينـال التقـدير الـلازم كإنسـان عظيم.

صفات الملك عبدالعزيز

كانت مقومات الملك عبدالعزيز آل سعود فريدة، فقد خصه الله بصفات نادرة، حتى يستطيع أن يقوم بالدور الذي كتب عليه، فيجاهد ويكافح، لتكون كلمة الله هي العليا. لقد وضع هذه الصفات في مكانها الذي خططه ورسمه، ليصل به إلى إعلاء كلمة الله، وإلى تحقيق الدور العلمي والعملي الواقعي لإثبات أن شريعة الله إذا طبقت بإيمان وإخلاص فهي صالحة لكل زمان ومكان، ولقد أمده الله بعونه فحقق ذلك، وظلت إلى يومنا هذا – بما نرى ونسمع – نبراسا وهداية لمن يسير على الدرب، فيطبق شرع الله في حياته وحياة أمته. هذه الصفات والمقومات منها ما هو خِلقي، ومنها ما هو خُلُقي[1].

الصفات الخِلقية

كان – رحمه الله – طويلا بائن الطول، قالوا عنه:

«يبلغ ستة أقدام، مفتول الساعد، شديد العصب، متين البناء، ضخم الجسم، رأسه كبير يناسب هذا البناء الشامخ، خفيف العارضين، عريض المنكبين، رحب الذراع، ولهذا الجسم من القدرة الفائقة على التحمل الشيء الكثير، فقد بلغ من القوة الجسمية مبلغا عظيما».

قال فيه صاحب كتاب «صقر الجزيرة»:

«إذا وقف المرء تجاهه شعر بضآلته تجاه جسمه الصلب الوثيق الفارع، وإذا نظر إلى وجهه زادته هيبة غير راعبة، عن التحديق فيه، فيختلس النظر إليه، يتملى محياه الباسم، وطلعته القوية البارزة، وتفيض مهابته على مجلسه، فلا

[1] الملك عبد العزيز آل سعود بين نصره لله ونصر الله له للأستاذ / عبد الله بن حسين الموجان.

يطيق أحد الكلام إلا إذا مد له حبل تواضعه وسماحته، بل إن بعض من يحضرون للسلام عليه يفاجؤون بمهابته، فما يستطيعون النطق بحرف، فيبتسم لهم، ويهدئ منهم، ويستدرجهم إلى البوح بما في نفوسهم، ويدنو إليهم، ويسألهم عن حالهم، حتى يتكلموا، ويشعروا كأنهم بمحضر صديق أو أب رحيم، ويفارقونه وما يزال في نفوسهم رنين صوته العذب، وذكريات عن تواضعه، وسماحة نفسه، ورجاحة عقله، وصفاء قلبه، وطيب سريرته»[١].

وتلك هى صفات العبقرية

ولقد قالوا في تحمل هذا الجسم الشامخ ما وقع في وقعة «كنزان» فقد هاجمه الأعداء في الليل، وانهزم جنده، فرجع معهم وفي أثناء سيره لحق به اثنان من خدم أخيه سعد، كانا مرافقين لأخيه، فسأل عن أخيه فقيل: قتل!!

فقال: سعد لم يقتل.. أصيب، وترك.. وأنا يجب أن أرجع إليه.

فقالوا: إن الأعداء كانوا قابضين على زمام فرسه ليقتلوه..!

ولكنه عاد، ولما عرف الأعداء شخصية سعد، قالوا: عبدالعزيز لن يترك سعدا، وسوف يعود إليه، فتركوه ملقى على أرض المعركة، وكمنوا حواليه، ينتظرون قدوم عبدالعزيز، فلما رأي بياض سعد في الليل، نزل عن فرسه، وحمله، وصار يقبله، فأطلقوا النار عليه، فأصاب الرصاص حزامه المملوء بالرصاص حول وسطه، فانفجرت أربع أو خمس رصاصات منها، وشقت بطنه شقا، تدلت منه أمعاؤه، فأسرع إلى ربطها بعمامته، ولما عاد إلى خيمته طلب قماشا وشاشا، ولما فك الحزام وجد أن الجرح مفتوح حوالي ١٥ سنتيمترا، وكان الشحم على الأمعاء، فأعيدت الأمعاء والشحم، وربط الشاش على الإصابة، ولو كان جسمه عاديا ما تحمل كل هذه الطلقات، ولأثرت فيه تأثيرا

---

[١] صقر الجزيرة، لأحمد عبد الغفار.

كبيرا، ولكنه تحمل لقوته، ومناعة جسمه، وكان كلما سئل عما أصابه أجاب قائلا:

«إن الإصابة بسيطة في جلد الفخذ»، حتى لا يُضعف من الروح المعنوية في جنده، ولقد قالوا: إنه خطب في تلك الليلة امرأة من الأحساء وتزوج. ولم يكن ذلك رغبة في الزواج ولكن لإيهام أعوانه أن إصابته خفيفة[1].

وقالوا: إنه لكز جملا له في بعض غزواته، وهو في سن العشرين، فركض الجمل ووقع – رحمه الله – على الأرض في الزحام، فوطئته جمال رجاله، ولكنه استطاع أن يركب، ويحارب في اليوم الثاني عدوا جبارا يفوقه أضعافا في الرجال والعتاد.

وقفز مرة على ظهر فرس له، وكان ثائرا غاضبا، فأثر فيه تأثيرا كبيرا، ولقد أعطاه الله ساعدين قويين لا يكلان، زادهما المرانه قوة، فقد تدوم المعركة ساعات متواليات، ويده فيها تتحرك فتلقي بالأعداء تصيب هذا، ويُعجز ذاك، ويفر من أمامه الجبان والشجاع على السواء، وهو بطول قامته ماشيا أو راكبا. ومما تفرد به الملك عبدالعزيز، وما لا نسمع بمثله إلا عن قليل ممن أعطوا قوة الجسم، وتحمله فوق المعتاد، أنه لا يحتاج للنوم – كما يظهر – كثيرا، ولا ينام إلا حين لا يرى أحدا غيره ساهرا، وإذا نام فلا ينام إلا ثلاث أو أربع ساعات، ولو خُير لجلس الليل كله يتحدث إلى أحد رجاله من الذين يروق له حديثهم، وتلذ له عشرتهم، وتلك هى صفات العبقرية.

الصفات الخُلُقية:

أما الصفات الخُلُقية فقد تجمعت فيه كل الصفات الكريمة التي تعارف عليها الناس، فنراها متأصلة فيه، ومكتملة بلا حدود، ولقد برز فيها، وفاق الخاصة

---

[1] شبه الجزيرة : ج٢، ص ٩٢٣ للأستاذ خير الدين الزركلي.

والعامة، وأصبحت وكأنها علم عليه وحده، لأنها نابعة من وجدانه وقلبه، ومن ذكائه النادر.

لقد كان فريدا في كل ما كان يقوم به، وقد استفاد مما لاقاه في صغره، فقد ترك عاصمة ملك آبائه وأجداده، واتجه إلى الصحراء القاتلة متحملا شظف العيش، وقسوة الأيام، ينتقل من مكان إلى مكان، إلى أن وصل إلى الكويت، وهناك كانت العبرة والعظة.

كان للعقيدة الصافية الصحيحة أعظم الأثر في حياته، وكان لتعاليم والده الإمام عبدالرحمن – رحمه الله – أكبر حافز على السير على خطى الأئمة الكبار من آل سعود، والاستفادة من تاريخهم وأعمالهم، ومما توارثوه من الأجداد، فعاهد الله على الحفاظ عليه، وبناء الدولة من أجله، فظلت تنبع من كوامنه، وقلبه وعقله، ولم يفضل عليها أبدا غيره، فعبادة الله وحده، والعمل من أجل دينه صادقا مخلصا لا يعدله شيء آخر.

«والله ثم والله إن العجوز القابعة في وكرها، والتي لا تملك من الثياب إلا الأطمار البالية، وهي تعبد الله وحده، عبادة خالصة، هي أحب إلى قلبي من أي إنسان بلغ من العظمة والشأن ما بلغ، إذا كان لا يؤمن بالله إيمانا صادقا خالصا، ولا يعمل بما جاء في كتاب الله».

من هذا المنبع الأصيل، ومن هذا البيت العريق، ومن الدين القويم، استمد الإمام عبدالعزيز كل صفاته فجاءت نموذجا لا يبارى.

كان – رحمه الله – كريما، والكرم أول صفة يجب أن يتحلى بها أصحاب المبادئ والقيادات، وإذا تحلى المرء بهذه الصفة، فقد هانت بعدها كل الصفات، لأن الكرم أول انطلاقة للإنسان ليمحو بها الحرص على الحياة، ويقضي على

الاستماتة في سبيلها، وإذا هان المال في عين الإنسان، فليس في الدنيا عزيز يقلل من همته.

لقد كان الإمام عبدالعزيز كريما إلى حد كبير في الجود والعطاء، فهو سمح لا قيمة للمال عنده ما دام ينفق في سبيل الله، وفي أوجه الخير، وإنه ليصطحب معه دائما في سيارته بِدَراً من الريالات، يوزعها على الفقراء في طريقه في ذهابه إلى مقر عمله الرسمي وفي عودته.

أعطى ذات مرة فقيرا صرة من المال، فأخبره السائق أنها صرة من الجنيهات، لا الريالات الفضية، وبها ٣٠٠ جنيه ذهبي، فنادى السائل ولما أقبل قال له – رحمه الله – «أردت أن أهبك ريالات، وما نويت إلا هذا، ولكن الله هو الذي وهبك هذا الذهب، فاشكر الله وحده، واشتر بما أخذت نخيلاً واعمل ولا تكسل».

عتب عليه أحد رجاله يوما، وسأله أن يفكر بالاقتصاد قليلا، فقال له:

«هل أغنت عن عبدالحميد – سلطان تركيا المشهور – ملايينه؟ إن أجدادي لم يحملوا في خزائنهم فلسا، وأنا أسير سيرتهم، وأفعل ما فعلوا».

قال له بعض الناس: إنك تعطي كثيرا!! فلو اقتصدت؟!

فقال – رحمه الله – «إن الله عودني عادة أن يتفضل علي، وعودت عباده عادة أو أوسع عليهم، فأخاف أن أقطع عادتي فيقطع الله عادته عني، وأنا لن أبني قصرا، ولن أشتري بها مزرعة، كل ما يرد أنفقه على المسلمين، وهذا حق لهم».

قال أحد كبار العلماء الأفاضل، وهو واحد من ثلاثة أتوا إلى الملك عبدالعزيز، ليعرضوا عليه مشروع نشر بعض كتب السلف، من التفسير والحديث والمذهب الحنبلي، والتاريخ الإسلامي، وكان – رحمه الله – يعرف

جهدهم وخبرتهم مما اطلع عليه من تحقيق وتأليف، وحدث في أثناء وجودهم عنده أن جاء أول مبلغ من البترول، وكان مبلغا لا يستهان به في ذلك الوقت، فقسمه ثلاثا، وأعطاهم الثلث قائلا «انشروا ما استطعتم من كتب السلف».

وقال صاحب «صقر الجزيرة» الأستاذ أحمد عبد الغفار عطا:

«إن كرمه وجوده كان مضرب المثل، فقد روي الذين أرخوا سيرة جلالته: أنه كان جوادا سمحا لين العريكة، سريع النجدة، والنخوة، فقد كان يرى في المال أنه حطام الدنيا، والحظام فانٍ والروح باقٍ خالد، ولقد نصحه أحد أصدقائه بالكف عن البذل والسخاء والكرم فقال: «ما أغنت قارون خزائنه».

والمال كالعالم يربو بالإنفاق، وأي إرباء خير من أن يمحو به عن المحتاجين آلامهم، ويأسو كلومهم.

وأما الشجاعة فهي صفة متأصلة في عبدالعزيز منذ صغره، وهي فائقة فيه، فلم ير له نظير في إقدامه على المخاطر، وغزواته التي غزاها دليل واضح على شجاعته، فليس في نجد والإحساء على سعة مساحتها أرض لم يقاتل عليها.

وهذه الشجاعة البالغة لازمته منذ أن كان صبيا لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وقد أخذ الغضب منه مأخذه، وهو يرى الأعداء يحيطون بالرياض بلده الحبيب، وعاصمة ملك الآباء والأجداد، وقد أخذ الحماس منه مأخذه، ورأي رجلا من الأعداء قد قُتل فرسه، وراح يحمل على عاتقه كل ما خف حمله، طالبا النجاة، ولكن عبدالعزيز الصبي الشجاع الغيور على وطنه، ومسقط رأسه، وثب على الرجل وضربه بسيفه ضربة أودت بحياته.

وينقل عنه – رحمه الله – أنه أحسن استعمال البندقية، وركوب الخيل كأحد الفرسان وهو في سن الصبا، وأنه كان في السابعة حاد الطبع، دائم الحركة، لا يستطيع الاستقرار في مكان واحد فترة طويلة.

مواقفه البطولية كثيرة، ولا يخلو يوم من مواقف مشهورة نذكر منها:

موقفه في معركة «الحريق» فقد هاجمها - رحمه الله - من بطن الوادي، وكان أهل الحريق متمنعين بأعلى الجبل، وعندما هاجمهم ومعه جيشه، أمطروهم بوابل من الرصاص من أعلى الجبل ومن جوانبه، ففر جيش الإمام عبدالعزيز، وكان هو في المؤخرة يمشي على رجليه، ومعه سائسه يقود فرسه، وعندما قابله جيشه منهزما، أخذ يبث فيهم النخوة، ولكن القوم لم يتلفتوا إليه، فما كان منه إلا أن سل سيفه، وضرب عضد فرسه، وقطعه، وقال: «... لا تقولوا ما رأينا عبدالعزيز، فالدي يريد أهله فهم أمامه، والذي يريد طريقي، فأنا هاجم وحدي».

هجم عليهم وحده، مخالفا بذلك قومه، فتوقفوا، وصاروا ينظرون إليه، فلما وجدوه سائرا وحده، رُدت إليهم روحهم المعنوية، وهجموا معه ولم يتوقفوا إلا داخل البلد وهم محتلوه.

ورغم شجاعته الفريدة التي كانت نسيج وحدها، وانتصاراته المتوالية، فإنه لم يركن إلى قوته، وإنما كان دائما يركن إلى إيمانه القوي، فهو يؤمن بالله، ويؤمن بأن له أجلا، لا يتقدم ولا يتأخر، وكان حينما ينتهي من معركة بالنصر، يدخل خيمته، ويسجد لله، ويطيل السجود شاكرا الله على تفضله عليه بالرعاية والتأييد.

كان - رحمه الله - لا يميل - رغم شجاعته - إلى سفك الدماء، وكان يتجنب بقدر الإمكان إشعال الحرب، ويدفع في سبيل تجنبها أي ثمن، لدرجة أن المحيطين به كانوا يشكون - بعض الأحيان - في شجاعته.

لقد كان يميل إلى الأناة والروية، حتى قال له بعض قواده وقد طال حصارهم لجدة وهو يتعجل الهجوم: «سوف نتهم بالجبن!!».

فأجاب: «الرأي.. الرأي.. الأناة . الأناة!!».

أما إذا كان لابد من الحرب، فهو الفارس المغوار الذي لا يشق له غبار، ولكن أعظم من الشجاعة أن يتملك الإنسان نفسه فلا يتهور، فما أكثر الشجعان الذين أدت بهم شجاعتهم إلى مالا تحمد عقباه، لكن الملك عبدالعزيز كان أملك لها ولا يدعها تكون عليه، بل دائما كانت له.

كثيرا ما سنحت الفرصة لينتقم من أعدائه، وكثيرا ما أتى له بالجلادين والسفاحين، والدم يتقطر من سيوفهم، بل كثيرا ما حاصر المعتدين في أماكنهم، وكان في إمكانه أن يشعل فيهم النار جزاء صنيعهم، ولكن كان يقدر على أن يتحكم في نفسه، وأن يكظم غيظه، وأن يعفو عنهم، بل وأن ينزلهم منزلة أولاده، وهو يحمد الله على أن أعانه على وجهة الخير التي جبله عليها.

لقد كان بين الملك عبدالعزيز والحكام في تركيا عداء مستحكم في ذلك الوقت، وإبان الحرب العالمية الأولى، انتهز الإنجليز الفرصة فأشاروا على الملك عبدالعزيز بأن يقوم بعمل ضد تركيا، وهي مشغولة بالحرب، فأبى أن ينتهز هذا الموقف لصالحه، فدل ذلك على الحزم والصراحة والنخوة والعفو.

وهذا تفصيل ما حدث:

لقد كان الإنجليز يؤلبون العرب على تركيا التي انضمت إلى ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وحاربت الإنجليز، وبالرغم من أن تركيا لا تزال يتساقط من يديها دم الجريمة في حق آل سعود وعبدالعزيز، فقد حضر مبعوث الإنجليز برسي كوكس، ودار بينه وبين الملك عبدالعزيز الحديث التالي:

قال السيد: أتذكر - يا طويل العمر - ما قاسيت من نجدات الترك لعدوك ابن الرشيد؟

قال: ما حان لي أن أنسى!!

قال السير: ألا ترى ما يراه الناس من تحفز العراق والشام والحجاز للثورة على الترك؟

قال – رحمه الله – : أرى!!

قال السير: ألا تكون رؤيتهم رؤيتك، ولك بعد ذلك ملك العرب، وإن شئت فخلافة الإسلام؟

قال –رحمه الله –: «لا»!!

قال السير: ألا تنتهز الفرصة فتنتقم؟

قال: لا·· لن يقول الناس: ثار عبدالعزيز على دولة تتسمى بدولة الخلافة في عهد محنتها.

وذلك – لعمري – أروع ما أعطى الله من جمال التخلق بخلق الدين الحنيف.

وأما سياسته فإن الملك عبدالعزيز – رحمه الله – أول من رسم السياسة الواضحة الخالية من المداهنة والمراوغة، وإلباس الباطل ملابس الحق والقول «لا» حينما يجب أن يقال «نعم» والقول «نعم» حينما يجب أن يقال «لا».

كلا، لم يحدث منه ذلك أبدا، بل كان صادقا في أحلك الأيام التي لو داهن أو راوغ فيها لقضى على كثير من المشاكل، لكنه لم ينحرف أو يترك جانب الصدق، الخالي من كل ما يشوبه.

كان يكره المراءاة والكذب والخداع، فإذا ابتلى بمن يتحلون بهذه الصفات ظل بهم حتى يُجبروا على أن يظهروا ما أخفوه، ويعرفوا على حقيقتهم، ولذلك فإن المولى –سبحانه وتعالى – كان دائما ناصره ومؤيده عليهم، وهذا ما أجبر كل من اتصل به من الحكام والملوك وكبار الكتاب العالميين وغيرهم على احترامه وتقديره.

لقد كان له قدرة عجيبة في عمق تفهمه للأمور، ودقة إجابته عما يسأل، وإقناع من أمامه بوجهة نظره، حتى يضطره إلى التسليم له بما يريد.

ولقد شهد له كل من اتصل به، وكل من رأوه وجالسوه من أهل الخبرة والمعرفة، سواء أكانوا من العرب الأذكياء، أم من غيرهم ممن لهم دراية بأخلاق الرجال.

قال الدكتور فون وايزل الكاتب النمساوي، وقد خبر الملك عبدالعزيز وجالسه فكتب الكثير عنه، ومما قاله: «حسبي أن أقول إني معجب به، فقد خيل إليّ وأنا أحادثه أني أمام «بسمارك» منشئ الوحدة الألمانية، ولا أظنكم تخالون أني أبالغ في القول».

لقد عاش الملك عبدالعزيز في الصحراء، وتعلم في البيئة والبادية، وعاشر الأحداث الجسام، لكنه كان يزن كل ما عرفه بميزان ما تعلمه من الشريعة الغراء، وإخضاع كل الحوادث لما عرف وتعلم من مدرسة محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - ولم يذهب إلى الشرق أو الغرب، لكنه أدهش الناس بتفكيره وآرائه.

قال الدكتور فون:

«وقد اتضح لي أن ابن سعود يشبه الساسة الإنجليز كثيرا في سياسته وخططه، فهو مثلهم لا يضيع الوقت بإعداد النظريات ورسمها، لكنه يصبر متحينا الفرصة إلى أن تسنح فينتهزها».

وقال أيضا: «وفي ابن سعود ميزة أخرى هي: أنه كريم صادق، وحادثته مرتين في شؤون مختلفة كان بعضها دقيقا جدا فلم ألحظ قط أنه يُلبس الباطل ثوب الحق.

«نعم… كان سياسيا أحيانا في أجوبته، فلا يقول كل ما يعرفه، ولكنه لم يتلفظ بكلمة واحدة غير صادقة».

ويكمل الرجل الألماني حديثه فيقول: «والظاهر أن هذا شأنه مع الجميع، فإني لما قابلت القناصل في جدة، قالوا لي: إذا قال لك ابن سعود شيئا فثق أنه يقول الحقيقة التي لا تشوبها شائبة».

والفضل ما شهد به الأعداء

أما الإمام – رحمه الله – فقد قال، وعمل بما قال، وكان يعرف جيدا مقت الله وغضبه على المؤمن أن يقول ما لا يفعل، وكان يعي قول الحق سبحانه وتعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ

﴿الصف٢/٣﴾

قال – رحمه الله –:

«أنا ترعرعت في البادية، فلا أعرف آداب – تنظيم – الكلام وتزويقه، ولكن أعرف الحقيقة عارية من كل تزويق، أنا لست من رجال القول الذين يرمون القول بغير حساب، فأنا رجل عمل؛ إذا قلت فعلت، وعيب عليّ في ديني وشرفي أن أقول قولا لا أتبعه بالعمل، وهذا شيء ما اعتدت عليه، ولا أحب أن أتعوده أبدا.

* * * *

صفاته القيادية:

توافر لعبدالعزيز من صفات القيادة ومقومات الزعامة الكثير والكثير، ولعل من العسير أن نحيط بهذه الصفات، أم أن نتناول بعضها بالتفصيل، ولهذا سيقصر البحث على إلمامه بجوانب من بعض هذه الصفات.

١ – التدين:

الملك عبدالعزيز رجل موحد خالص التوحيد في خاصة نفسه، ملتزم منهج السلف الصالح في توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، لا يدعو غير الله، ولا يسأل غيره، ولا يشرع ما لم يأذن به الله.

وهو مؤمن بالإسلام عقيدة ومنهاجا، وملتزم بأداء الفرائض والواجبات، فهو يؤدي الصلوات الخمس جماعة، ويصلي الكثير من الليل.

ويذكر من كتبوا عن سيرته الذاتية أن من عادته أن يقوم من الليل قبل الفجر بأكثر من ساعة فيتطهر ويصلي ما كتب له، فإذا أذن الفجر صلى الصبح ثم جلس يذكر الله بأذكار الصباح والمساء المشروعة، وله كتاب في ذلك سماه: «الورد المصفي» استخلصه من كتاب «الكلم الطيب» لشيخ الإسلام ابن تيمية و«الوابل الصيب» لابن قيم الجوزية.

هذا ماجاء إلي جانب آدائه للشعائر الإسلامية – فرضا ونفلا – كالصيام والزكاة والصدقات والحج والعمرة وحرصه على فعل الطاعات التي تقرب إلى الله، واجتنابه جميع المنهيات تعبدا لله، وطلبا للأجروالثواب، وخلاصة القول: أنه ملتزم بأحكام الإسلام فيما يأتي وما يذر.

٢ – الكرم:

«والملك عبدالعزيز مشهور في بلاد العرب بكرم الخلق وبسط اليد – كما أشرنا – ، لا يعرف قيمة للدراهم إلا أنها وسيلة لبناء المجد أو حسن الذكرى، فقلما يرد سائلا يطلب معونته، أو محتاجا قصد بابه، وهو يشرف بنفسه على إعطاء القاصدين حسب منازلهم التي لا تخفى عليه، وقلما يعتمد على أحد آخر في ذلك، وديوانه مفتوح للقادمين يقابل زائريه مهما صغر مقامهم بوجه باش ويأخذ ألبابهم بابتسامته التي قلما تفارقه».

إن الحديث عن كرم الملك عبدالعزيز وسخائه مهما أفيض فيه فهو أقل كثيرا مما هو معروف عن جوده وكرمه، ولذا سنورد قصتين كأنموذج لما يتصف به من الكرم والجود.

عندما فتح عبدالعزيز الرياض وفد عليه «محمد بن هندي» شيخ عشيرة برقاء من عتيبة وكان عبدالعزيز لا يملك شيئا من المال عندما وفد عليه هذا الرجل، إلا أنه في اليوم الثاني من مجيء الوافد إليه وصلت زكاة بلدة الخرج فوهبها كلها لابن هندي قبل أن ينظر إليها[١].

أما القصة الثانية فقد حدثت بعدما دخل عنيزة – في منطقة القصيم – في محرم ١٣٢٢هـ مارس ١٩٠٤م عندما كان مدعوا في منزل أحد وجهاء البلد «عبدالرحمن بن محمد آل حماد العبدلي» وكان المجلس يضم نخبة من أعيان البلد، ودار الحديث حول ما منّ الله به على البلاد من ظهور عبدالعزيز وتوحيد معظم بلاد نجد تحت حكمه، وسألوه عما إذا كانت له في تلك أي أمنية؟ وتوقعوا منه – وهو في هذا السن ويعيش نشوة النصر – أن يتمنى

[١] من شيم الملك عبد العزيز لفهد المارك.

الزواج من فتاة جميلة، فكان رده أنه يتمنى أن لديه مبلغا من المال لا ليدخره، وإنما ليوزعه على (خوياه) رجاله ورفاقه، فما كان من «العبدلي» إلا أن أقرضه المال الذي تمناه فقام عبدالعزيز من فوره بتفريقه على أصحابه ولم يدخر لنفسه أو لأسرته شيئا وقد اخترت هذا النموذج من جود الملك عبدالعزيز وكرمه، لأنه إذا كانت هذه حاله وهو معدم فمن المتوقع أن يبلغ سخاؤه منتهى مراتب الكرم والجود إذا كان موسرا، وهو ما حدث فعلا.

٣- الشجاعة:

شجاعة الملك عبدالعزيز شجاعة المتزن المفكر، لا شجاعة المتهور، شجاعة القائد العسكري الموهوب الذي يستطيع أن يملك مواهبه ويسيطر عليها؛ فلا يفقد انضباطه ويغامر مغامرة انتحارية يدفع فيها حياته رخيصة بلا ثمن، ولا يتخلى عن خوض المعركة - إيا كان عدوه يفوقه عددا أو عدة - فيبدو بصورة تجعل خائر الأعصاب من الرجال يلوذ بالفرار بائسا من النصر.

فلم تقف شجاعته النفسية والبدنية عند مغامرته البطولية في فتح الرياض، وما كان ليقوم به من جهاد في توحيد المملكة لو لم يكن محاربا من الدرجة الأولى، إذا كانت الجزيرة العربية قد أنجبت الكثير من البواسل فإن عبدالعزيز يعد من أعظمهم.

وهناك قصص كثيرة عن شجاعته المتزنة التي تبرز عند الحاجة مثل ما حدث في معركة «الدلم» عام ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م و«كنزان» عام ١٣٣٣هـ/١٩١٥م وقد خاض أكثر من مائة معركة، ولما توفي وجدوا في جسده ثلاثا وأربعين ندبة وأثر جرح.

ولعل أبرز الأدلة على اتزان شجاعته المتسمة بالحكمة وبُعد النظر، إدراكه منذ البداية، أنه لا يخطط لمعركة واحدة تنتهي بنهايتها سيرته سلبا أو إيجابا،

بل يخطط لحكم واسع مستمر، ولذا كان يحاول تفادي الحرب – ما أمكن – ويفضل أن يكسب الآخرين بدون حرب بدلا من أن يحاربهم لينتصر عليهم، ولم تكن هذه السياسة ناتجة عن رغبته في حقن دماء من ناصروه فقط، بل رغبة – أيضا – في الإبقاء على أرواح من كانوا – لظروف خاصة – مع خصومه؛ لإدراكه أنه سيكسب هؤلاء – كما كسب أنصاره الأوائل – عاجلاً أو آجلا، وأن كلا من هؤلاء وأولئك سيصبحون شعبه المرتقب.

هذه صفات ثلاث تعد في مقدمة صفاته القيادته التي يتعذر الآن حصرها واستقصاؤها كالوفاء، واصطناع الرجال الذين كانوا في يوم من الأيام خصوما له أو ليسوا على وفاق معه، وحسن اختياره للرجال الذين يعملون معه على مختلف مستوياتهم، وهذا ناتج عن معرفته بالبلاد وأهلها، فهو يعرف قبائلها وأفخاذها وطبقات سكانها إلى جانب معرفته بعاداتهم وأعرافهم، فيضع كل واحد منهم في مكانه اللائق به، وينزل الناس منازلهم· بالإضافة إلى قوة شخصيته وهيبته في نفوس الناس مهابة إجلال واحترام لا هيبة خوف وإرهاب، كما يتمتع بإرادة قوية، فلا النصر يطغيه، ولا الهزيمة تثنيه أو تقل من عزيمته.

وكما منحه الله حسن الخلق فقد أحسن خلقه، فهو طويل القامة، مشرق المحيا، له عينان ناطقتان بالذكاء والعزم، وله صوت رخيم مملوء بالثقة والقوة، كما كان حاضر البديهة قوي الإقناع[١].

....

[١] عوامل نجاح الملك عبد العزيز فى توحيد البلاد (محاضرة) للأستاذ عبد الله العثيمين.

الأسس التي بنى عليها الملك عبدالعزيز المملكة العربية السعودية

إن الأسس التي بنى عليها عبدالعزيز هذا الصرح الشامخ كثيرة ومتنوعة، وسيتقصر الحديث على ما أراه أقوى هذه الأسس وأبرزها وهي:

١ – العقيدة الإسلامية:

المملكة العربية السعودية مهبط الوحي، ومنبع الرسالة الإسلامية الخالدة ومهوى أفئدة الناس إليها من كل فج عميق لحج بيت الله الحرام وزيارة مسجد النبي ﷺ ومن هنا تحملت مسئولية نشر الإسلام والدعوة إليه، وخدمة الحرمين الشريفين.

لقد بلّغ محمد رسول الله ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة على المسلمين، فترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ورغم المحاولات التي بذلها أئمة المسلمين وقادتهم للحفاظ على كيان الأمة الإسلامية وتمسكها بدينها ومبادئ وحدتها، فقد دبت فيها عوامل التفكك، والضعف مما أطمع أعدائها فيها، وتعرضت لحملات شرسة كالحروب الصليبية، والغارات المنغولية التي نشرت الفوضى والإباحية، وقضت على جانب كبير من تراث الأمة، أضعفت ارتباط المسلمين بأصول منهجهم الرباني، ثم جاء ضعف الدولة العثمانية ضغثا على إبالة، فانتشر الجهل، وفشت الأمية، ووقعت الأمة الإسلامية تحت وطأة الجمود الفكري والتخلف العلمي، وسيطرت البدع والخرافات على عقول الناس وأذهانهم، وأصبحوا في حيرة من أرهم، التبس فيها الحق بالباطل حتى أذن الله بظهور الشيخ «محمد بن عبدالوهاب»

معلنا دعوته ليطهر العقيدة الإسلامية مما شابها من أدران الشرك والبدع والخرافات ويعيد لها صفاءها ونقاءها ويعود بالإسلام إلى ما كان عليه في عهد النبي ﷺ وأصحابه وصالح سلف هذه الأمة.

وكان من أهم العوامل التي أسهمت في نجاح هذه الدعوة وانتشارها تأييد آل سعود لصاحبها الذين آمنوا بدعوته، واقتنعوا بصحة ما تدعو إليه، وجاهدوا في سبيل نشرها بين الناس حتى كتب الله لها النجاح، واستطاعوا أن يوحدوا معظم أجزاء الجزيرة في دولة إسلامية واحدة تؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجا للحياة.

ولذا نجد أن فترات الضعف التي مرت بها الدولة السعودية قد أثرت في مسار الدعوة، وفقدت العنصر الأساسي في تماسكها والتزام الناس بها، وهو قوة آل سعود وتأييدهم لها، فعندما دمرت الدرعية عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م مرت البلاد بفترة ضياع واضطراب عانت فيه من الفوضى الأمنية والاجتماعية، ومن انحراف الناس عن عقيدتهم وضعف التزامهم بأحكام الإسلام، ومن العزوف عن العلم وتلقيه.

وفي أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر (١٣٠٠هـ/١٤٠٠م) عصفت الفتن بالبلاد فأصيبت الدعوة بنكسة كادت تطفئ نورها في النفوس، وأهمل تدريس مبادئها وما كتبه إمام الدعوة وعلماؤها عنها، إلا أن هذه النكسة لم تدم طويلا، فقد انتهت بظهور الملك عبدالعزيز – رحمه الله – الذي أخذ على عاتقه تجديد ما اندثر من معالم هذه الدعوة ونشرها والدفاع عنها ومن قوله في المجال:

«يسموننا بالوهابيين، ويسمون مذهبنا بالوهابي، باعتبار أنه مذهب خاص، هذا خطأ فاحش، نشأ عن الدعايات الكاذبة التي بثها أهل الأغراض، نحن لسنا

أصحاب مذهب جديد، أو عقيدة جديدة، ولم يأت محمد بن عبدالوهاب بالجديد، فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسُنة رسوله وما كان عليه السلف الصالح».

ويقول: «أنا مبشر، أدعو لدين الإسلام ولنشره بين الأقوام».

وكما عرفنا - فيما سبق - أن الملك عبدالعزيز رجل موحد خالص التوحيد في خاصة نفسه، فقد أسس هذه الدولة على العقيدة الإسلامية الصحيحة وألزم من ولي أمرهم بتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، لأنه يعلم أن توحيد الله وعبادته هي جوهر دعوة المرسلين (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) ﴿الأنبياء/٢٥﴾ .

ويعلم أن هذه البلاد موطن الدعوة الإسلامية الصحيحة ومنبع التوحيد.. لذا لم يفكر أن يأتي قومه بمذاهب فكرية (أيدلوجيات) مستوردة غريبة على عقول أمته ومعتقداتهم كما فعل بعض الزعماء المسلمين - ممن عاصروا أو جاءوا بعده - فكان نصيب هذه المبادئ والمذاهب الإفلاس في جميع جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، بل تمسك - رحمه الله - بالإسلام كافة ودعا إليه - كما مر - ودعا إلى عقيدة السلف الصالح، وهو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما جاء عن الخلفاء الراشدين، أما ما كان غير موجود فيها فأرجع بشأنه إلى أقوال الأئمة الأربعة فأخذ منها ما فيه صلاح المسلمين.

٢ - تطبيق الشريعة الإسلامية:

عندما كان الملك عبدالعزيز - طيب الله ثراه - يقوم بتشييد هذه القلعة السامقة كانت صور الحكم الإسلامي مهتزة في أذهان بعض الناس. لأنهم

نظروا إلى الإسلام من خلال واقع المسلمين وأعمالهم وما ارتكبوه من أخطاء، وكانت حملات التشكيك في قدرة الشريعة على مواكبة الحضارة الحديثة وفي وفائها بمتطلبات الحياة العصرية المتطورة ترن في آذانهم، وقد انساق وراء هذا الوهم طائفة من زعماء المسلمين وقادتهم فطبقوا القوانين الوضعية في بلادهم، وسنوا أنظمة وأعرافا غريبة على ثقافتهم ومألوفاتهم بعيدة عن دينهم وتراثهم الإسلامي وطبيعة مجتمعهم، مثلهم كمثل من يغرس شجرة في غير بيئتها، وفي تربة غير صالحة لنموها، فيكون مصيرها الهلاك، أو تنمو هزيلة معرضة للآفات.

أما الملك عبدالعزيز فلم يصغ إلى ذلك، لأنه يؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة ونظاما للحياة، وأن التمسك بالإسلام يعصم من الضلال الفكري، والانحلال الخلقي، وأن تطبيق الحدود يحد من وقوع الجرائم، ويحقق الأمن والاستقرار.

لم يخف من نتائج تطبيق الشريعة، لأنه لا يخاف هذه النتائج إلا من نوى الظلم والفساد في الأرض، والملك عبدالعزيز رجل عرف – من سيرته – بأنه محب للعدل مقيم له، كاره للفساد مقاوم له.

عندما بدأ مرحلة التنظيم الداخلي أعلن: «أن مصدر التشريع والأحكام لايكون إلا من كتاب الله، ومما جاء عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، أو ما أقره علماء الإسلام الأعلام بطريق القياس، أو أجمعوا عليه مما ليس في كتاب ولا سُنة – فلا يحل في هذه الديار غير ما أحله الله، ولا يحرم فيها غير ما حرمه».

وقد أتبع القول بالعمل فطبق الشريعة السمحاء بحذافيرها، وليس في المقدور تتبع جميع مظاهر تطبيق الشريعة الإسلامية واستقصاؤها، ولعل من

المناسب الاكتفاء بنماذج تعد من أهمها وأبرزها:- إقامة الصلاة جماعة، وتفقد المتخلفين عنها ومعاقبتهم حسب الحال.

- جباية الزكاة وصرفها في مصارفها التي أمر الله بها.

- صيام شهر رمضان، ومنع أي مظاهر تتنافي مع طبيعة هذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

- أداء فريضة الحج وإلزام الناس بها إذا كانوا مستطيعين.

- إقامة العدل - والعدل أساس الملك - وقد أنشأ لتحقيق ذلك المحاكم الشرعية وعين القضاة الأكفاء، وفي ذلك يقول: «لا كبير عندي إلا الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا ضعيف عندي إلا الظالم حتى آخذ الحق منه»[1].

- الشورى: والشورى أصل من أصول الشريعة الإسلامية، ولذا عني الملك عبدالعزيز بهذا الأصل وأنشأ في عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م مجل سالشورى وأدخلت على نظامه عدة تعديلات حسب مقتضيات الحاجة.

كان الملك عبدالعزيز يطبق الشورى في المجلس العام، وفي مجلس العلماء، ويطبقها حين يجتمع برؤساء القبائل والعشائر، ويطبقها حين يلتقي بمستشاريه، ويطبقها باستدعاء القضاة والإداريين والعسكريين والاقتصاديين والسياسيين ومحاورتهم في تصريف أعمالهم ومهماتهم، وكان ينوع الأساليب في تطبيق الشورى، فأسلوب التشاور مع رؤساء القبائل والعشائر غير أسلوب التشاور مع ممثلي المملكة في الخارج - راجع باب الشورى فى عهد الملك عبد العزيز فى هذا الكتاب.

- تطبيق الحدود الشرعية: مثل القصاص في القتلى، وقطع يد السارق، وحد قطاع الطريق، وحد الزاني، وحدود التعزير وغير ذلك، وفي ذلك يقول:

---

(1) جزيرة العرب فى القرن العشرين، للأستاذ حافظ وهبه.

«وليس عندي في إقامة حدود الله هوادة، ولا يقبل فيها شفاعة، فمن التزم حدود الله ولم يتعدها فأولئك من الآمنين، ومن عصى واعتدى فإنما إثمه على نفسه، لا يلومن إلا نفسه».

وقد كان من ثمار تطبيق الحدود توطيد الأمن واستتبابه بشكل لم يسبق له نظير، وعدّ من المفاخر التي سجلها التاريخ لهذه الدولة· وكان موطن إعجاب الناس في جميع أنحاء العالم.

– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وقد عين لهذا الغرض هيئات من المحتسبين يأمرون الناس بالمعروف كالمحافظة على صلاة الجمع والجماعات، والالتزام بآداب الإسلام في شئون حياتهم الظاهرة، وينهونهم عن كل منكر يتنافي مع أحكام الشريعة أو الآداب العامة، ومنح هذه الهيئات سلطات مناسبة لردع المسيء، وحمل الناس على الحق.

٣– الحفاظ على الأمجاد:

قصة انهزام المسلمين وانكسارهم وتراجعهم – في التاريخ والواقع – هي ذاتها قمة التفريط في المجد، وتضييع ما في اليد، غفلة أو ضعفا، لقد صنع الأولون أمجادا عظيمة، فخلف من بعدهم خلف عجزوا عن الحفاظ على ما تركه الأولون سواء كان ما تركه الأولون أرضا، أم مهابة، أم وحدة.

ويروى بعض المؤرخين في هذا الموضوع: أن أبا عبدالله بن علي بن نصر – آخر ملوك بني الأحمر في الأندلس – أثناء خروجه من غرناطة وقف على «تل البذور» ينظر إلى مدينة غرناطة، ويجيل طرفه في تلك الربوع التي ترعرع فيها، وشهدت أرضها ومعالم حضارتها أيام مجده وسلطانه، فانهمرت دموعه

وأجهش بالبكاء فصاحت به أمه «أجل، ابك كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال».

عندما بدأ الملك عبدالعزيز - رحمه الله - خطواته الأولى لتوحيد هذه البلاد كان نصب عينيه تاريخ حكم ضربت جذوره في أعماق التاريخ، وإرث من المجد تمثل فيما حققه أسلافه من آل سعود من وحدة لهذه البلاد في ظل دولة تؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهجا للحكم، وتنشر العقيدة الإسلامية الصافية وتدافع عنها، لكن هذا الإنجاز ضاع في زحمة التنافس والضعف والتفريط.

لذا كان من أهم أهدافه الأساسية استعادة هذه الأمجاد والمحافظة عليها، وقد عبر عن هذا المعنى بقوله: «كل أمة تريد أن تنهض لابد لكل فرد فيها من أن يقوم بواجباته كما أمره الله».

.

إيمان الملك عبدالعزيز الصادق وفكره المستنير[1]

١ – ذكائه الفطرى وقوة فراسته

نعرف أن من أهم صفات الإنسان العظيم الإيمان الصادق بالله تعالى وحده لا شريك له. فالإيمان بدوره يُنبئ عن تفكير عميق، علما بأن الفكر والنظر القويم يشكلان الطريق للإيمان المستنير. إذن، فالشخص المؤمن هو إنسان مفكر، ومتى تجمّع الفكر مع الإيمان، حظي الشخص المعني بالأمر بقوة البصيرة، أو ما يُسمى «بالفراسة». والفراسة تعني فهم الأمور من منظارها الصحيح، من خلال إدراك حسن لمجريات الأحداث الحاضرة في أي مكان، مع انعكاساتها على الناس، وهكذا.. من سمات الملك عبدالعزيز التي دفعته للحكم على الأشياء عن حُسن تبصّر ورؤيا للأشياء، فراسته، التي أضيفت إلى أعماله الشهيرة. على أنه في صدد فراسته تلك، فقد وردت الرواية التاريخية التالية «في إحدى السنين شحّ القطر على المملكة. وارتفع ثمن الأغنام والسّمن، فأمر – رحمه الله – بمنع تصدير السّمن والأغنام.. وكان في تبوك تاجر من أهل نجد، ففي أحد الأيام، نقل من دكانه إلي منزله عشرين صفيحة من السّمن فقبض عليها رجال الشرطة، وصادرتها المالية، فأبرق يتظلم، ويدّعي أنه نقلها من دكانه إلي بيته وهذا غير ممنوع وأن مصادرة سمنه ظُلم.. ووصلت برقيته قبل أن ترفع إليه المالية شيئا، فأمر بالرد عليه حالا وقال بالحرف الواحد «أنت ينطبق عليك المثل الذي يقول: الصاحب المزاح إن شيف وإلا راح»، لم تقصد من إخراجها دكانك إلى بيتك إلا التهريب في الليل. والمالية لم تعمل إلا واجبها. فأتاه الرد في اليوم الثاني من التاجر يعترف بأن هذا هو

---

[1] عبد العزيز مؤسس المملكة العربية السعودية. د. زاهية الدجاني.

الواقع. ويطلب العفو. وقد أمر – رحمه الله – بإعادة سمنه إليه، على ألا يعود». بفراسة الملك عبدالعزيز، إذن، فقد تمكن من مواجهة ذلك التاجر باختراقه للقانون في جو من التلاعب السرّي من جانب التاجر، ظنّا منه باستحالة انكشاف أمره.. على أنه بمواجهته تلك للتاجر، فقد أذهله، أي أثار العجب في نفسه لقدرته (أي الملك) على مكاشفة الحقيقة، بالرغم من السرّية التي تحصّن بها. ويذهوله هذا، يبدو أنه أعاد النظر في الأشياء، فرأي أن الاعتراف بالخطأ واجب. وهذا ما فعله، فتلقى الصفح من الملك عبدالعزيز آخذا بذلك درسا في الأمانة والتسامح، ولابدّ أن ذلك قد دفع التاجر للتعامل في إطار من الصدق بتصورنا. فالحياة دروس وعبر.

كما ذكرنا أعلاه فالمكاشفة تتطلب فكرا سليما، وإيمانا مستنيرا مع تكرار بأن الفكر الثاقب هو الطريق للإيمان. ولكن للإيمان بدوره قواعد، وأسس تقع في الاتجاه التالي: الالتزام بالعبادات عن فهم دقيق لها. فهي تحمل معنى الأداء لأركان الدين عن نفس راضية مطمئنة، تسعى دوما لالتماس العون من الله تعالى، واستمداد الهداية والتوفيق منه، على إنجاز واجب الإنسان في الحياة على أكمل وجه. وبهذا الإطار من الرياضة الروحية، تقوى سريرة الإنسان المعني بالأمر، وتشحذ بصيرته وتشتدّ الرؤيا الصحيحة للأشياء لديه، فيتمكن من فهم جوهر الأشياء في إطار بشريته. لأن العلم الخفي لله تعالى وحده، لكن مع الإيمان الخالص يزود الله تعالى المؤمنين الصادقين بنوع من المكاشفة، للحفاظ عليهم من الشرور المحيطة بهم. ولهذا السبب، وضع كبار المفكرين من المتصوفة سلما للمكاشفة عماده ما يُسمّى بتعبيرهم «المقامات»،

و«الأحوال». ومن يسعى للحصول على معلومات بهذا الصدد، فليراجع الرسالة القشيرية، لأبي القاسم القشيري.

فلو أبقينا هذه المعلومات في ذهننا، وعدنا مرة أخرى للتركيز على الملك عبدالعزيز، نرى أنه تمسّك بالإيمان الصادق الذي دعا إليه الإسلام، كما ذُكر نرى أنه تمسّك بالإيمان به عن علم بضعفه كمخلوق تابع لله عز وجل، خالقه، وخالق كل ما في السموات والأرض وما بينهما. هذا مع العلم بأن ذلك يعني أن الملك كان على إدراك تام بمفهوم الضعف والقوة. فالإنسان ضعيف بتكوينه، ولكن قوته تأتي من السماء، من خلال الإيمان الصادق. على أن حُسن معرفة الملك للمضمون الصحيح لمبدأ الضعف والقوة، تجسّد في الرواية التالية عنه: «ويُروى عن يوسف ياسين أنه قال: سمعت الملك يوما يقول متحدثا بنعمة ربّه: إن ربي لم يُعطني ما أعطاني من قوة بل أعطاني ما أعطانيه عن ضعف مني وقوة منه. أعتدت أن أحزم أمري وأجمع ما أستطيع جمعه من قوة لمقابلة خصمي، وقد أرى أو يرى من معي شيئا من الزهو بما أعددنا من قوة وأحيانا يفوتنا النصر مع القوة الكبيرة، حتى إذا قل عددنا وكاد اليأس يقرب من القلوب هدانا الله إلى الطريق التي نسلكها للنصر فيفتح لنا لنعلم أن النصر من عنده يؤتيه من يشاء»[1]. إن هذا القول للملك يحمل حثا في طياته لعدم الغرور بالقوة المادية، والغفلة عن القوة الروحية في لحظة من لحظات الانبهار بالقوة البشرية من جهة، وحثا على التمسك بالإيمان الخالص للخروج من أبواب الهزيمة لو دقّت، ونيل الظفر من جهة أخرى. مع إبراز للمبدأ القرآني بأن النصر والفوز من عند الله تعالى، وحده لا شريك له. وذلك كله يُظهر تمسكا

[1] من حياة الملك عبد العزيز للأستاذ عبد العزيز محمد المحيدب.

بالدين، وحبا لله تعالى، ولجوءا إليه لتيسير أمور الإنسان بنجاح ويجمل بنا أن نُحضر في هذا المقام، الرواية التالية عن الملك عبدالعزيز، لما تبرزه من صورة حية عن ورعه وتقواه وحبه الشديد لله تعالى: «وقال يوسف ياسين أيضا: سمعت الملك يوما يحدّث ولي عهده قبل أخذ البيعة له بولاية العهد: يا سعود.. ربي أحبّ إليّ من نفسي، وعليّ مراعاته، ولا تطمئن نفسي لتسليمك ولاية الأمر إلا بعد أن أرى أنك عقدت عقدا بينك وبين ربك، لا تكفيني منك المظاهر الدينية، بل يهمني أن أراك حالفته في خلواتك وتضرّعت في لياليك». إن تلك الرواية تبين عُمق إدراك الملك عبدالعزيز لأهمية الإيمان، في تزويد الحاكم بالقوة اللازمة لإدارة شئون الدولة، بعلم، وكفاءة، وقوة إرادة، وصبر، وعزيمة، وثبات حتى الفوز.

....

ويقول د. عبدالعزيز سليمان نوار في بحثه الشيق عن الملك عبدالعزيز «دراسة في الزعامة»:

الزعامة أو القدرة على القيادة العليا، موهبة لها أصولها الفطرية، لارتباطها بالذكاء الفطري الكامن، وتؤهلها المهارات المكتسبة لكي تلعب دورها وتهئ البيئة لها مجالات الإنجاز، وتخليدها النجاحات التي تحققها، وتصبح نموذجا ومعلما من معالم النقلة في مجال بناء الدول وإحداث منعطف جديد مثمر في مجال حضاري ما.

وواضح من هذا المدخل أن المكونات الفردية تلعب دورا أساسيا في مجتمعات تحتاج إلى نقلة حضارية على يد حاكم حازم عادل؛ مثل المجتمعات العشائرية أو شبه العشائرية في الشرق بصفة عامة.

وكم من زعامة على مستوى عال من الذكاء لم تجد فرصتها، حيث ظهرت في مجال وزمان لا يعطيها الفرصة، وكم من زعامة قدم لها المناخ السائد فرصا أكبر مما كان متوقعا لها فأخفقت لافتقارها إلى مقومات الزعامة، وكم من زعامة عرفت قدرها ومقوماتها وقدرات وإمكانيات المجال الذي تعمل فيه، فاستغلت كافة هذه المقومات، فأحدثت نقلة كبرى، وخلدها نجاحها العالي المستوي.

فإذا ما أخذنا عبدالعزيز سعود كموضوع للدراسة نلاحظ أنه كان على ذكاء فطري عالي المستوى، ومن ثم امتلك المقوم الأول للزعامة، نظرا لأن الذكاء الفطري يمكّن صاحبه من القدرة على الاحتفاظ بالمعلومات التفصيلية والعامة، والقدرة على الربط بين المعلومات، والوصول إلى محصلة أكبر، هي قوة أكبر وتطور تقدمي أعظم.

وبصفة عامة لا يخضع أي زعيم لهذا المقياس فكيف نسبنا إليه الذكاء الفطري، وهو لم يخضع لقياس ذكاء.

العوامل التالية تؤكد ما ذهبنا إليه:

١ – أنه ليس أميرا أو ملكا جلس على العرش لمجرد كونه وريثا له، وإنما بدأ من قائد حفنة محدودة للغاية مغامرة، ثم أمير مدينة، فسلطان إقليم، فملك على دولة مترامية الأطراف، مساحة ممتدة تركها لمن بعده لتصبح ثرية مؤثرة على الموازين الاقتصادية العالمية.

٢ – عاصر تطورات عالمية جوهرية أدت إلى اختفاء دول وظهور أخرى، سواء في المنطقة العربية أو الشرق الأوسط أو على المستوى العالمي، وعاصر حربين عالميتين غيرتا من المعالم الرئيسية للعالم، ومع ذلك استمرت مسيرته في بناء دولته.

٣- ظهرت دول حديثة على أطراف دولته (إيران، العراق، مصر) فلم تتغير خطته لبناء دولته على الطريقة التي رسمها، وإن أخذ من كل طرف شيئا يسيرا، إلا أن التطور ظل مقيدا بالبرجماتية الهادفة المنبثقة من طبيعة الفكر المحلي وليس مستوردا من الخارج، وظلت البلاد السعودية متمسكة بتقاليدها وفي نفس الوقت بمسيرتها دون أن تتعرض للأزمة التقليدية التي ظهرت في الغالبية العظمى من البلاد العربية والإسلامية، وأعني بذلك الأزمة بين دعاة التقليد ودعاة التجديد، إلا في حدود ضيقة، أي أنه استطاع أن يسير بدولته بين هذه التيارات الكبرى دون أن تتعرض لهزة كبيرة تعرضها للخطر.

٤- كانت البلاد المحيطة بنجد قبل الحرب العالمية تعتورها هزات كبرى:

أ- العراق كان يموج بالتيارات الإسلامية والعربية والعراقية، وبالتعليم الحديث والتعليم التقليدي، وبالدعوة للحكم الدستوري، وبالنزاع مع الدولة العثمانية والاستعمار البريطاني، والأهداف العرقية الكردية، والمشكلة الشيعية والانتماء والولاء، والجهاد من أجل تحرير البلاد من الاستعمار البريطاني، بين دعاة الثورة المستمرة ودعاة التفاهم مع بريطانيا.

ب- كانت مصر كذلك تعد نفسها للثورة على بريطانيا قبل الحرب العالمية وثارت ثورتها الكبرى ١٩١٩م حتى حصلت على نوع من الاستقلال، وظهرت فيها الأحزاب الملكية والمندوب السامي أو السفير البريطاني، كل من هذه المؤسسات تشكل مركز قوة في البلاد- حتى إذا ما اندلعت الحرب العالمية الثانية برز تياران قويان في مصر والعراق أحدهما: يرى التعاون مع الحلفاء دفاعا عن الليبرالية والديمقراطية، وآخر يتمنى انتصار النازي لا حبا في ألمانيا ولكن لعلها تذيق الإنجليز مرارة الاستبداد الذي يذيقونه للشعوب في العراق

ومصر وإيران، وغيرهما. كذلك كان الوضع مشابها إلى حد ما في سوريا ولبنان.

أما في السعودية فقد اتخذ عبدالعزيز سياسته مع الحلفاء، ولكنها لم تعان من التيارات السياسية المتناقضة لا في الحرب العالمية الأولى ولا خلال الحرب العالمية الثانية. فقد قدم عبدالعزيز خدمات جليلة خلال الحربين العالميتين وما بينهما، ولكن دون أن يتورط في التحالف أو المعاداة.

فقد مارس سياسة المواجهة مع أنصار الدولة العثمانية (آل رشيد)، وأرضى المرتبطين مع الإنجليز (خزعل شيخ عربستان) ولكنه لم يتحالف مع العثمانيين ولم يتحالف مع الإنجليز، واستغل سوء سياسة الشريف ودعوة العرب للاعتراف به ملكا عليهم، فمنعه من أن يتدخل في سلطة نجد، وعرف كيف يصفي الوجود الشريفي في الحجاز ويضمه مع أن الشريف كان حليفا لبريطانيا كما عرف أن يصفي إمارة آل رشيد بعد سقوط الدولة العثمانية وضغط على العراق حتى ثبتت الحدود مع السعودية وتفاهم مع فرنسا في الشام دون أن يعترف بالسيطرة الفرنسية على سوريا ولبنان، وأفاد من منافسة فرنسا مع بريطانيا في تحقيق أهدافه.

كما أفاد عبدالعزيز من المنافسة بين الولايات المتحدة وبريطانيا – رغم تحالفهما – على المكانة في المشرق العربي بصفة عامة وفي المملكة العربية السعودية بصفة خاصة. وهذا يتضح خلال المقابلة التاريخية بين «روزفلت وعبدالعزيز» والإجراءات التي اتخذها (تشرشل) لمقابلة عبدالعزيز حتى لا يعطي لحلفائه الأمريكيين فرصا أوسع.

كذلك نلاحظ أن عبدالعزيز عرف كيف يفيد من المنافسة الإيطالية – البريطانية في جنوب غرب الجزيرة العربية (عسير واليمن) وعرف كيف يخرج من وراء ذلك بضم عسير وهزيمة اليمن وتحقيق أهدافه هناك.

وبالمقارنة بين ما حدث في بعض البلاد العربية والشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية نلاحظ أن (رضا بهلوي) في إيران مثل (فاروق في مصر) و (رشيد عالي الكيلاني والمربع الذهبي) في العراق اتخذوا مواقف مناهضة للحلفاء ممالئين للمحور، فكان أن أرغم رضا بهلوي على التنازل عن العرش لابنه، ووقعت بلاده – إيران – تحت الاحتلال الأجنبي حتى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بحوالي العام واجتاحت القوات البريطانية في الفيلق العربي العراق، وأرغم رشيد عالي الكيلاني على الفرار من العراق، وفي مصر هاجمت القوات البريطانية قصر عابدين، وأعطيت الفرصة لمصطفى النحاس – عدو الملك – ليتولى رئاسة الوزارة لمدة عامين.

لقد كان محور سياسة عبدالعزيز هي المملكة العربية السعودية. ويشارك في أية منظمة عالمية أو إقليمية مثل مجلس الجامعة العربية، ومثل مؤسسات هيئة الأمم المتحدة بشرط واحد، هو أن لا يؤدي ذلك إلى تدخل خارجي في شئون البلاد الداخلية.

تلك أمثلة من مهارة عبدالعزيز السياسية في المجال الدولي، أما في المجال الداخلي، فقد كون نفسه بنفسه خلال محنة الهجرة من الوطن إلى الكويت، وتدرب على قتال حرب العصابات، والهجوم الخاطف المحدود الغاية البعيد الهدف، هو قائد مقاتل حتي استولى على الرياض، وكون قوة مسلحة ذات طابع أيديولوجي اجتماعي (الهجر والإخوان) حتى إذا ما أبوا التطوير وأصبحوا

معوقين أنهى دورهم، وشرع في تكوين جيش وطني كان محدود القدرات، وكانت تحدد له أهدافه حسب قدراته.

وعندما دار جدل حول من يصبح خليفة المسلمين، وزج باسمه في قائمة المرشحين، لم يندفع عبدالعزيز وراء المنصب واللقب، فهو يدور في فلك مملكته، ويدرك إلى أي مدى ينطلق.

إن نظرة سريعة على أخلاقيات عبدالعزيز السياسية نجد أنه كان عقائديا يسعى لمنافع وطنه وأمته، له من الأهداف أكبرها، وعند التنفيذ هو صاحب الفرصة الممكنة في إطار المغامرة المحسوبة.

كان عبدالعزيز على معرفة دقيقة بأخلاقيات البدو الحضر فكان في مجلسه مجلس عرب، وإن كان ملكا، وفي حزمه مثلا، وليس من الرجال من يسيطر، ولكن من يخدم فيمنح أو من يتردد أو يحيد فيبعد شكوكا قبل أن يصادق.

أما علاقته بأبيه فقد كانت نموذجا رفيعا للأخلاق النبيلة، ولم يؤثر في هذه الأخلاق نصر ولا ملك، فقد ظل أبوه هو الإمام بعد أن فتح عبدالعزيز الرياض وأعاد بناء الدولة، برغم إلحاح الأب أن يتولى الابن هذه الإمامة، فهو أحق بها وكان عبدالعزيز برغم سلسلة انتصاراته يجلس لدى أبيه في موقع البنوة والإصغاء إلى النصيحة.

إن عبدالعزيز يوضع في مصاف بناة الدول، وكم عدد بناة الدول في البلاد العربية؟!

****

ويقول د- محمد الطيب النجار في دراسته عن الملك عبدالعزيز آل سعود (مثل رائعة من عبقريته الفذة ووفائه النادر)

في موسم الحج المبارك سنة ١٣٦٩ من الهجرة النبوية أذن الله أن أكون أحد أعضاء البعثة الأزهرية للتدريس في المملكة العربية وفي كلية الشريعة بمكة المكرمة، وكانت هذه الكلية – حينئذ – نبتا صغيرا لم يتكامل نموه، وبناء قصيرا لم يتشامخ علوه، وكان جلالة المغفور له الملك (عبدالعزيز) يحتضن هذه الكلية، ويختصها بمزيد من الاهتمام حتى إنه أسند عمادتها إلى شيخ جليل يشغل أكبر منصب في القيادات التعليمية، وهو مدير المعارف المغفور له الشيخ (محمد بن مانع).

وقد سعدنا عقب وصولنا إلى مكة المكرمة بلقاء صقر الجزيرة وعاهلها العظيم جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود وكان لي الشرف بإلقاء كلمة في حضرة جلالته وأذكر أنني قلت فيها:

«لقد كانت الجزيرة العربية منذ ظهور الإسلام فيها هي حاملة اللواء وباعثة السنى والسناء، منها انبثق النور المبين فعم العالمين· وفي صحرائها الجرداء وصخورها الصماء تفجرت عيون العلم والمعرفة، فأحيت القلوب، وروت النفوس، وكانت أساس الخير والبركة للناس أجمعين، ولكن الزمن الدوار والقهار قد جعل مغربا لهذا النهار شقيت فيه الجزيرة العربية بالعصبية القبلية والأثرة الطاغية الباغية، وتقاذفتها الأطماع المتمردة حتى جعلت للجسد الواحد رؤوسا متعددة، ولكن شاء فضل الله ورحمته أن يتجلى هذا الليل الحالك؛ الطويل بفجر باسم وإصباح جميل، وكان انبثاق هذا الفجر من جبين الرجل التقي النقي المؤمن الشجاع أسد الجزيرة، وعاهلها العظيم جلالة الملك (عبدالعزيز آل سعود) نصره الله وأعزه.

أجل لقد قلت – حيئذ – هذا الكلام مستبشرا ببزوغ هذا الفجر الصادق، ومتوقعا أن يكون بعد هذا الفجر الباسم ضحى مشرق ونهار متألق وأيام

مباركة، وقد شاء فضل الله أن يتحقق هذا الأمل والرجاء، فيمتد عمر هذا الرجل العظيم في أولاده الأمجاد. وفي تلكم الشجرة العظيمة المباركة التي رسخت جذورها، وثبتت أصولها، وامتدت فروعها وآتت ثمارها المباركة، وسيظل الخير منها موصولا بإذن الله وذلك فضل الله، والله ذو الفضل العظيم.

ولاشك أن العظمة في هذه الحياة ليست بالأمر الهين الميسور لكل إنسان، بل لابد لمن يطلبها أن يتزود لها بالرأي السديد والعقل الرشيد والجد والعمل، وإن العظيم لا يمكن أن يبني مجده من الأوهام ولا من أحجار ملقاة في الرغام، إنما يبني العظيم مجده من النجوم، ويمضي إلى غايته صعدا فوق أشلاء المتاعب والمصاعب.

والناس في هذه الحياة رجلان: رجل يفهم من الحياة عيشا رغدا ومتاعا شهيا وسنين متطاولة فحسب، فهو يعبر الحياة سابحا في ظلام الأنانية محاطا بغلاف الأثرة الكثيف، ودائرا حول نفسه لا يلوي على شيء، إلا على منافعه ومآربه، ومثل هذا الصنف من الناس لا خير في حياته، بل هو شر ووبال ولن تستفيد منه الإنسانية سوى الخسران والنكال.

ورجل يفهم من الحياة أن يكون حيا في أذهان الناس بجليل أعماله وكريم فعاله، متوغلا في أعماق الزمن ممتدا في آماده بما يسدي للإنسانية وللوطن والدين من الخير والبر والمعروف، ومثل هذا الصنف من الناس لا يموت أبدا، بل يظل في الحياة خالدا بأثره باقيا بمجده وخطره، ولله قول شوقي رحمه الله:

من سره ألا يموت فبالعلا   خلد الرجال وبالفعال النابهما

مات من حاز الثرى آثاره   واستولت الدنيا على آدابه

وأشهد بحق – والله شهيد– أن المغفور له الملك عبدالعزيز كان – ولا يزال – وسيظل إن شاء الله – حيا في أذهان الناس بما قدم من معروف وبر، وبما

أسدى للإنسانية من عمل الخير وخير العمل.. أجل فلقد كان الملك عبدالعزيز – رحمه الله – كالبحر لا يطالعه الإنسان من أي جهاته إلا غمر قلبه بالجلال، وشغل رأسه بالخيال، وملأ مشاعره بالعجب والإعجاب معا، وذلك بأن لم تكن عظمته موضع الشذوذ في بشريته، ولم تكن عبقريته بعض الكمال في نقصه، ولم تكن قوته عرضا متنقلا يضيئ حينا، ويخبو حينا آخر. إنما كانت العظمة أصلا في طبعه، وكانت العبقرية فطرة في خلقه، وكانت القوة جوهرا يلازمه في نومه ويقظته، وفي ظعنه وإقامته، وفي سلمه وحربه. ولم يكن نبوغه مقصورا على ناحية واحدة أو محصورا في جانب واحد على حساب الجوانب الأخرى. إنما كان نبوغه في كل موهبة من مواهبه بمقدار واحد وعلى مستوى واحد رفيع، فهو في حزمه وصرامته مثله في عفوه وسماحته. وهو في كيد الخصومة مثله في شرق الرجولة، وهو في عمق التفكير وسمو التدبير مثله في شجاعة القلب وروعة التضحية، وهو في تقواه وورعه مثله في دهائه ومكره وذكائه.

وهكذا يسمو (عبدالعزيز) بمآثره ومفاخره حتى لتكاد تتوازي فيه سمات المجد والخلود، وتلكم غاية لا تتسنى إلا للنادر القليل من الناس في هذا الوجود. ومن الحق عليّ في هذا المجال أن أضرب بعض الشواهد التي تؤيد وتؤكد ما ذكرنا عن الراحل العظيم من تلكم الصفات النادرة حتى لا يقول قائل: إنني محب يختلق، فما شهدت – والله – إلا بما رأيت وعلمت.

فأما عن مروءته ووفائه، فالحديث في هذا المجال طويل طويل، ولا غرو فقد كان – غفر الله له ونضر وجهه – للوفاء وفيا وبه حفيا ولم يكن يقابل الغدر والخيانة من أعدائه – حينما يظهره الله عليهم – بالتشفي والانتقام حتى لا يتفاقم الشر ويعظم الخطر، وإنما كان يطفئ غدر الغادرين وخيانتهم بالعفو والتسامح، وكان عفوه دائما يصدر من مركز القوة فلا يشوبه ضعف أو خور.

وإنما ينبثق من إيمانه القوي المتين بأن الخير هو الباقي مهما طال الزمن وأن مرتع البغي وخيم، وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وقصة الثلاثة اليمنيين الذين حاولوا الاعتداء عليه داخل الحرم المكي الشريف قصة مشهورة، وقد كان المدبر لها أحد الأمراء اليمنيين المعروفين، وقد شاء فضل الله أن ينجو منها الملك عبدالعزيز بأعجوبة.

ومن العجب أن رجلا من المخلصين لجلالته جاءه بجماعة من اليمنيين يبدون استعدادهم للانتقام من هذا الأمير الذي دبر الغدر والخيانة، فأنكر عليهم ذلك وأجابهم قائلا: (إذا عاملنا أحد بالغدر ونكث العهد، عاملناه نحن بالصفح والوفاء بالعهد· أما الغدر فإن عاقبته وخيمة على أهله طال الزمن أو قصر).

وأعجب من ذلك كله أن هذا الأمير الذي غدر وخاصم وفجر وقابل المغفور له الملك عبدالعزيز غدره بالعفو والصفح الجميل، تعرض لمحنة رهيبة بعد فترة من الزمان فتلفت من حوله فلم يجد رجلا يمكن أن يعول عليه لينقذه مما أحاط به من الكرب والبلاء سوى (عبدالعزيز) فاستنجد به مستثيرا نخوته العربية ومتمثلا بقول عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما أحاط الأعداء بداره:

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

وقد استجاب البطل الإنسان لنداء عدوه القديم ووقف إلى جواره يشد أزره ويعينه على محنته حتى تم له النصر والغلبة.

فما أروعه من وفاء يسمو على كل وفاء ويباركه رب الأرض والسماء· ومن الحق علينا في هذا المجال أن نذكر موقف جلالته من القائد الثائر العراقي (رشيد عالي الكيلاني) في محنته القاسية حينما تنكرت له الدنيا وضاقت عليه الأرض بما رحبت بعد هزيمة المحور، ولم يجد ملجأ يؤويه، ولا ركنا يحميه إلا

عاهل السعودية الملك (عبدالعزيز) فكان - رحمه الله - مثالا للشجاعة والوفاء، ولبى نداء اللاجئ المستغيث، وآواه وأكرم مثواه، ولم يأبه لوعيد ولا اكترث بتهديد.

ولقد استمعت بنفسي إلى قصة لجوء (الكيلاني) إلى الملك (عبدالعزيز) حينما التقيت به بمنزله في بغداد وكان ذلك سنة ١٩٦٦م حيث كنت معارا للتدريس في جامعة بغداد وكنت في صحبة صديق الطرفين اللواء الركن (محمود شيت خطاب) وفي هذا اللقاء التاريخي روى لنا السيد رشيد عالي الكيلاني ذكرياته الخالدة فكان مما قال: (لقد فكرت في اللجوء إلى المملكة العربية السعودية لأن ملكها وعاهلها الملك عبدالعزيز آل سعود ملك لا يظلم أحد إلى جواره ولا يخذل أو يهان من لجأ إلى حماه، وكنت قد اتجهت بعد استسلام ألمانيا إلى الحدود السويسرية فرفضت سويسرا السماح لي بالدخول، وحينئذ اتجهت إلى بلجيكا ثم إلى فرنسا، ولما كان الجو في فرنسا غير مأمون العاقبة بالنسبة لي فقد صممت على مغادرتها فركبت باخرة من مرسيليا اسمها (مراكو) وكان ذلك في شهر تموز ١٩٤٥م، وكانت الحكومة السورية قد استأجرت هذه الباخرة لنقل الطلاب السوريين الذين كانوا موجودين بفرنسا بعد أن انقطعت الطريق والمساعدات عنهم وعن عائلاتهم).

ثم يواصل السيد رشيد الكيلاني حديثه ويقول: لقد تخفيت - حينئذ - كأني طالب سوري، واستخرجت جواز سفر باسم (عبدالقادر الميداني) ووصلنا إلى بيروت وأجريت معنا تحقيقات وتدقيقات، ولكن كان الله يرعانا حيث تمكنت من الهرب إلى دمشق واختفيت في بيت صديقي جميل الجابي قرابة شهر كامل ثم هربت في ليلة العيد إلى المملكة العربية السعودية، ولقد رافقتنا عناية الله في

رحلتنا إلى السعودية حتى إذا كنا على الحدود، وأوقفنا حرس الحدود السعوديون ليروا جواز سفري، ولو تأملوه جيدا لعرفوا أنه جواز مزور.

أدركتني عناية الله، فحينما نظر الموظف المختص إلى جواز السفر هبت عاصفة رملية حالت بينه وبين التدقيق والتأمل في هذا الجواز بأعطاني الجواز وأذن لي في الدخول.

ويقول السيد (رشيد الكيلاني): إننا وصلناإلى الرياض وكان جلالة الملك يستعد للسفر إلى الحجاز وكنت مع صديقي >جميل الجابي< وأذن لنا جلالة الملك بالدخول والمثول بين يديه- وحيئذ وجدتني مضطرا للإسراع بذكر الحقيقة والكشف عن شخصيتي فقلت لجلالته: (اسمح لي يا مولاي بأن أكشف لكم عن شخصي أنا (رشيد عالي الكيلاني) وقد حضرت إليكم لاجئا إلى حماكم، ومستغيثا بعد الله بكم).

وهنا صمت جلالته قليلا، وأرهفت الآذان وشخصت الأبصار وانتظر الجميع الكلمة الفاصلة التي سينطلق بها جلالته، وإذا به يقول في ثقة واطمئنان وإيمان: يا رشيد، أنا أعلم تماما ما سينجم عن هذا من توتر في العلاقات بيننا وبين العراق، وقد يؤدي ذلك إلى حرب بيننا وبينهم، ولكن ما كان لي بحال من الأحوال، وقد قابلتني والتجأت إليّ إلا أن أؤمنك وأذود عنك، ثم قال له بعد ذلك باللهجة النجدية (زبنت وخاب طالبك) أي أمنت وخاب طالبك، ثم كان جلالته عند رأيه فلم يكترث بما حدث بعد ذلك من هجوم ووعيد وضغط شديد عليه حتى إن بريطانيا حينما طلبت من الملك العظيم تسليمي إليهالمحاكمتي قال لهم جلالته: (أعلنوا الحرب على إذا شئتم، ويوم أن يفني جيشي سآخذ رشيد معي وأدخل إلى جوف الصحراء ولن أسلمه ما دام فيّ عرق ينبض ونفس يتردد).

وهكذا انتهى حديث السيد (رشيد عالي الكيلاني) معنا في هذه الجلسة، حيث انصرفنا من منزله مشدوهين بماسمعناه من مآثر هذا الملك العظيم وشمائله.

وحينما تلقي نظرة دقيقة على الموقف الشجاع الذي وقفه جلالته مع ضيفه الذي لجأ إليه واستغاث به؛ نرى أنه موقف نادر المثال بل نستطيع أن نقول: إنه لا وجود له إلا لدى المصطفين الأخيار من عباد الله الأبرار، وإلا لدى المؤمنين المخلصين الذين يستجيبون لنداء المظلومين إذا مستهم البأساء والضراء، ويضحون في هذا السبيل بالأنفس والأموال وكل عزيز وغال.

وأما عن حزمه وصرامته فحسبه أنه استطاع أن يحول تلك البلاد التي كانت تموج بالفوضى والهمجية، وتتقاذفها الفتن الرعناء، وتمزقها العداوة والبغضاء، فلا يأمن الإنسان على نفسه في وضح النهار أن يبطش به عدو غادر أو خصم فاجر، ولا يأمن على ماله من عبث اللصوص، وقاطعي الطريق الذين كانوا يقعدون للناس كل مرصد، ويفزعون الغادين والرائحين في كل وقت وحين، حسبه أنه استطاع أن يحول هذه البلاد إلى الأمن والاستقرار الشامل الذي صار مضرب الأمثال وحديث القرون والأجيال، ولا غرو فقد قام بتطبيق الشريعة الإسلامية، وأقام الحدود المشروعة فلم تأخذه في الحق لومة لائم، ولم يفرق بين شريف وضعيف، بل تأسى برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقطع يد السارق مهما كانت قوته وصولته، واقتص من الجاني، وأعلن الحرب على من يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا.

وبهذا الحزم الصارم والصرامة الحازمة والإيمان الكامل أصبح الناس ينامون ملء جفونهم، ويغدون ويروحون في أرجاء المملكة ليالي وأياما آمنين؛ بل

يتركون السلع والبضائع في الحوانيت ويتوجهون للصلاة دون خوف من عبث العابثين وسطو الطامعين.

ولقد رأيت بنفسي النقود ملقاة على الأرض – وكانت قد سقطت من صاحبها – والناس يمرون عليها فيغمضون أعينهم ويفرون منها كما يفر الإنسان من خطر يعترض طريقه. حتى جاء رجل الشرطة فأخذت ليسلمها إلى أولى الأمر.. بل لقد فقدت مني في سنة ١٩٥١م بعض الأمتعة وأنا في طريقي إلى الطائف فأبلغت أمير الطائف بعد وصولي إليها، وأنا يائس من الحصول عليها، وخصوصا أنني لم أعرف أين سقطت ولا في أي وقت فقدت وكل ما أذكره أنها سقطت في الطريق من مكة إلى الطائف. وحينما علم أمير الطائف بهذا النبأ أسرع بإبلاغي ما يطمئني، وحينما التقيت به قال: (ستصلك أمتعتك إن شاء الله ولو بعد شهور) وشاء الله أن يتحقق كلامه بعد بضعة أيام حيث وصلت الأمتعة إلى منزلي سليمة كاملة لم يمسسها سوء.

وقبل توحيد المملكة العربية السعودية على يدي (عبدالعزيز آل سعود) والمناداة به ملكا عليها، كانت القبائل العربية في أرجاء المملكة الواسعة تعيش على عادات الجاهلية الأولى، فكان بأسهم بينهم شديدا، وكانت الغارات والغزوات لا تنقطع في هذا المجتمع القبلي، وكان لكل قبيلة حدودها المعروفة التي تبسط عليها سلطانها وتحميها من عدوان القبائل الأخرى، وكانت هذه الحدود ذاتها مثار منازعات واعتداءات وقتال مرير، لما تتطلبه كل قبيلة من امتيازات ومنافع أكثر من غيرها، وكان هذا الاستقلال الذي تمنحه كل قبيلة لنفسها يجعلها صاحبة التصرف المطلق فيما تقرره من سلم أو حرب، ومن فرض الرسوم – الإتاوات – التي تراها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا، بل قد تدفعهم الحاجة أحيانا والطمع أحيانا إلى قطع الطريق والسطو على قوافل

التجار أو على الحجاج، حتى كان القيام بأعمال الحج أعظم تضحية. وكان الحجاج قبل سفرهم لأداء تلك الفريضة يودعون أهلهم وذويهم وداع الشخص الذي لا أمل في أن يعود إليهم.

وهذا هو حال الأمن الذي كان موجودا في البادية. أما في البقاع الزراعية المتناثرة فكان أهلها يتعرضون لغارات البدو عليهم، وسلبهم ثمار جهدهم من تمور وحبوب وبقول، وسرقة نتاج تربيتهم من ماشية، وكان يترتب على ذلك مزيد من الكساد والفساد واضطراب الأمن والنظام، وكانت أحكام الشريعة الإسلامية غير مطبقة، إذ كان الحكم مأخوذا من العرف السائد في كل قبيلة، وكان التمسك بهذا العرف شديدا، لأن أفراد القبيلة قد ورثوه عن الآباء والأجداد.

وهنا تبرز عبقرية الملك (عبدالعزيز) حيث استطاع أن يطبق الشريعة الإسلامية في هذه الربوع والوديان وبين تلك القبائل التي تختلف في طباعها أحيانا وفي عاداتها وتقاليدها أحيانا أخرى، وذلك بفهمه الدقيق لهذه الأوضاع المختلفة التي تحيط بهذه البيئة، وكذلك بذكائه النادر ويقظته الكاملة كان يتابع تجاربه الإصلاحية معهم. ولم يكن لديه أي مانع من إجراء أية تعديلات في سياسته ما دامت تقتضيها المصلحة.

وهكذا ظل يتدرج معهم حتى وصل بهم إلى غايته المرجوة، وهي التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية واستطاع بذلك أن يصل ببلاده إلى الاستقرار الكامل والأمن الشامل الذي سما فوق الآمال وصار مضرب الأمثال.

وبعد فهذه لمحات خاطفة من السير المباركة لرجل آتاه الله الملك، مكن له في الأرض فلم تبطره النعمة ولم يطغه الجاه والسلطان، بل زاده ذلك خضوعا لله واعترافا بفضله، وسيرا على هدي كتابه وسُنة رسوله – صلى الله عليه وسلم.

وقد عاصرت بنفسي هذه الأحداث وشاهدت الكثير منها بعيني رأسي وخرجت بعد ذلك بنتيجة أشهد الله عليها وهي، أن هذا الرجل العظيم هو خير مثال للقيادة السديدة والزعامة الرشيدة·ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون·

بناء على كل ما ذكرناه سابقاً، يظهر جليا بأن الإنسان الذي يبني علاقاته مع الآخرين من منطلق الفهم لمحدودية الطاقات والقدرات الذهنية البشرية،ويلتزم بالوقت ذاته، بالمفاهيم الروحية، والفضائل الأخلاقية، كما ينطبق الأمر على الملك عبدالعزيز، فمن المؤكد أنه ينال التوقير الصحيح، الذي يتطلع إليه بنفس رضية، وضمير حي. إن الاحترام الحقيقي لا يرتبط بمظاهر الدنيا، بل يرتبط بغنى النفس، وقدرة الإنسان على تخطي المصاعب بتضحية وصبر وعزيمة وثبات حتى نيل الفوز في الهدف المقصود بالعون الإلهي. وهنا نرى سمات عديدة من عناصر العظمة التي اتصف بها الملك عبدالعزيز.

١- بكاؤه:

على أننا إذا رجعنا إلى سمات أخرى من عظمته، يستغرق تفكيرنا الآن في مسألة بكائه، الذي هو تعبير صادق عن خشوعه وخشيته من الله عز وجل.. هذه الصورة عن بكائه امتدت إلى أعماله الدنيوية. وحسبنا أن نذكر هنا الرواية التالية عنه، المتعلقة بإدارته لشئون مملكته: (كان من عادته، أن يجتمع عنده في الصباح الباكر، كبار موظفي الدولة من وزراء ومستشارين لعرض ما لديهم من أمور لدراستها وتلقي توجيهاته، قبل الذهاب إلى مكاتبهم. وفي أحد الأيام كان في غاية الانشراح. وفجأة وجم وبكى بحرقة. فقال له أحد الشخصيات الكبيرة: لماذا يا صاحب الجلالة، وأنت ولله الحمد في وضع كل ما يسرك ولست بالعاجز عن شيء؟ مر بما تريد، يُنفذ حالا. فقال بعد أن هدأ:

[1] عبد العزيز مؤسس المملكة العربية السعودية، د. زاهية الدجاني.

فلان أنت لا تعلم ما يبكيني· إنني فكرت في حال هذه الأمة ومصيرها. والله إن أحبّ ما إليّ أن أُدفن مع أولادي وبقية أسرتي، وأنا مطمئن على الأمة في دينها ودمائها وأعراضها وأموالها· لم يبكني غير ذلك).

وهنا تظهر إنسانيته وصدقه· والصدق، من الصفات الهامة للعظمة·· فهو يشير إلى الضمير الحي· ومناط الضمير بالنسبة للحاكم يقع في قيامه بواجباته على أحسن وجه ممكن، مع مراعاة لحقوق الغير، وذلك حتى يبني مجتمعا قائما على الإخاء، الذي يتضافر فيه الرحمة والعدل، والتعاون بيد واحدة من أجل الرقيّ. مع أن الملك عبدالعزيز أعاد بناء الأمة، إلا أنه كان خائفا مما تحمله الأيام في ثناياها· وليس عجبا أن يكون لذلك علاقة بملاحظاته التاريخية. فبعد تأسيس للدولة السعودية الأولى على يد الأمير محمد بن سعود، الذي تحالف مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ونشر دعوته الإصلاحية في الجزيرة العربية.. بعد مرور زمن عنها.. عاد الناس إلى كثير من العادات الجاهلية التي تُركت مع الثورة السابقة.. وبذلك، كانت الحاجة ماسة إلى الإصلاح الروحي، الأخلاقي، الاجتماعي في زمنه·· وفعلا قام به كبطل.. ولكن يبدو أن التجربة السابقة بقيت عالقة في ذهنه، إذ يُهيأ لنا أنه كان خائفا من جنوح الناس مرة أخرى، بعد مرور زمن، إلى نفس العادات السابقة، التي تتناقض أو تتنافى كلية مع الدين الإسلامي بصورته النقية. ومن هنا، فقد بقي ذهنه مشغولا، لدرجة الحزن، والبكاء.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البكاء يشير إلى الجانب العاطفي من الناس وكل إنسان مكون من عقل وعواطف فالإنسان يفكر من جهة.. يضحك أحيانا، ويبكي في أحيان أخرى. وكل ذلك يبين من أن الإنسان (الكامل) الذي تصوره المفكرون المهتمون بالبطولة، غير موجود في عالم الواقع. فالبطل إنسان قبل

كل شيء، والبشرية تنفي الكمال، وتشير إلى أن العقل البشري يُصيب ويُخطئ· ولكن الخطأ يتقلص في حجمه بوجود الإيمان. ومن هنا، فإن الأنبياء أقل الناس ارتكابا لهفوة هنا أو هناك. ومن يُراجع القرآن، يجدها في أماكنها.

٢ – نخوته:

وبالعودة مرة أخرى إلى الملك عبدالعزيز، يجب أن نقول إنه بالرغم من عظمته فهو إنسان· وأقواله تثبت أنه كان يعمد دوما لتأكيد تلك الحقيقة، حتى تُنفى عنه صفة (الاستكبار)، وهو يعلم الذم القرآني لها، وتلك سرّ عظمته· فالعظيم بحق هو الذي يسمو بكرامته، بعظم تسامحه، بالعلو على الأحقاد الموجهة ضده، لا بتعاليه. ولهذا كان الملك عبدالعزيز يحارب أعداءه دون حقد أو كره لهم، بل كان دوما يحرص على التفاهم معهم قدر الإمكان، مؤمنا بأنه سوف يحقق غايته في التضامن معهم، لو أنهم تركوا حقدهم نحوه· على أن صفاته تلك التي تشير إلى نخوته، تتجلى في الرواية التالية عنه: (كان العداء مستحكما بينه وبين سعود بن رشيد. فزحفت (قبيلة الرولة) على مدينة الجوف واحتلتها. فخرج سعود بن رشيد من حائل مع جنده، ودخل الجوف وحوصر فيها. فأشار بعض الناس على الملك عبدالعزيز بأن هذه فرصة للهجوم على حائل، والقضاء على ابن رشيد. وقال: لو هاجم حائلا أحد، وابن الرشيد في محنته لدافعت عنها· وأنا لست من يطعن من الخلف· وهكذا بقيت حائل في يد آل رشيد إلى أن عاد سعود إليها.

٣– بره بالضعفاء وسعة صدره:

وهذا هو الملك عبدالعزيز.. بطل مع الأعداء·· ومع الأصدقاء.. أبٌ للضعفاء من عائلته، وأسرة المجتمع ككل.. وزوج كريم ويُقال بأنه (كان يخصص – رحمه الله – ما بين المغرب والعِشاء من ليلة الجمعة لنساء

الأسرة· كذلك يوم الجمعة في الظهر، يكون غذاؤهن عنده في القصر، ولا يغيب منهن أحد. فيصادف بعض الأحيان أن يتفقد إحدى المسنات في الأسرة فيسأل عنها فيعلم أنها مريضة فيأمر دكتوره الخاص بزيارتها مرتين في اليوم وإخباره عنها، ويتصل بها تليفونيا يوميا). وتلك هي إنسانية الملك عبدالعزيز· وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الحاكم المتسم بالعطف والرأفة بالضعفاء، بدافع وجداني من التألم لأوضاعهم، عُرف (بالبشاشة). فقد قيل عنه بأنه قلّما تحدث إلا والبشاشة تعمّ وجهه·· يكره التقطيب فيه·· ويرفض أن يتصف بصفات الجبابرة. ويحب النكتة ويضحك لها إذا جاءت في وقتها ويرويها· لا يخص بها حاشيته وخاصته، بل كثيرا ما يتخلل مفاوضاته مع رجال السياسة مثل يضربه لنكتة فيه أو بيت شعر يتمثل به فيتحول المجلس من تجهم وغموض وفتور إلى حركة وصراحة وبشاشة. إن تلك الفقرة تبين تميز الملك بروح النكتة، التي تُقال في مواضعها· فحيثما تكفهر الأجواء، تُلطف بالنكتة الصالحة.. التي تنقل الأجواء من الاكفهرار، وما قد يجلبه من تجمد، إلى حركة العمل، للتواصل لشيء بالنتيجة، في كثير من الأحيان. هذا، ومن ظرافته، ما ورد عنه في الرواية الآتية: >وأبرق إليه معتمده في القاهرة بأن (فاروقا) وُلدت له ابنة، وتلقى تهنئات من جميع الملوك إلا من جلالتكم: فتلقي المعتمد البرقية الآتية (بالجفر): نجدية مصر ٨ شوال ١٣٥٧هـ –١٩٣٨/١١/٣٠م.ج. لم يسبق أن هنأنا أحدا بولادة ابنة له، ولم نسمع بمثل هذه العادة.

٤– دور صفاته ككل في بناء المجتمع

حتى الآن، لقد تحدثنا عن عدة جوانب بصدد إنسانية الملك عبدالعزيز·· والإنسانية في المشاعر والتفكير مرتبطة بالإيمان دون أدنى شك، بل وإن كل صفة حسنة في الإنسان، فهي منبثقة عن إيمانه· ولو أن الإنسان المؤمن

حقا، نظر في صفاته وأخلاقه، لوجد أن الإيمان هو الضابط لها، الذي يضعها في بوتقة واحدة، بنتائج عظيمة، في الحياة العملية· على أنه في محاولة لتقديم نتيجة موجزة عن تفاعل جميع صفات الملك عبدالعزيز، وأثرها في الواقع يجدر بنا القول، استنادا لكل ما ورد في تاريخ الملك عبد العزيز، إلى أن الصفة الأولى من صفات الملك هي (التواضع). والتواضع بكل تأكيد ثمرة من ثمرات الإيمان، وإشارة إلى الصدق في نفس من يتحلى به. والتواضع، نقيض الاستكبار، الذي أنكره الملك عبدالعزيز، من منطلق فهمه للقرآن الكريم· إن من يتحلّى من الحكام بصفة التواضع، ويطبقها في واقعه عن علم وإخلاص في أداء المسئولية، فهو إنسان عظيم. إذ أن عدم الاستبداد في الرأي، والتعنت فيه، أمر مقترن بالتواضع كقاعدة· وذلك لأنه ما دام الحاكم، عارفا بحجم قدراته كبشر، وحريصا على أداء أمانة التكليف، فإنه يتمسك بفعل كل ما يُرضي الله عز وجل· بهذا الإطار، فمن الطبيعي أن يتوجه نحو تطبيق الشورى في حكمه بصدق، وهو يعلم أنه يحفظ الحقوق للفرد، وللشعب بأسره، لأن من يتشاور معهم، كحاكم، يقفون عادة كممثلين للمحكومين. إذن، فعظمة الملك في إحدى جوانبها الهامة تبرز في تواضعه، الذي شكّل دافعا له، لتطبيق الشورى في عهده كما ذُكر مرارا. وكان ذلك عنوان المحبة لشعبه، ودافعا لاستمالتهم إليه· لذلك اتّسم الملك بالقدرة على جمع الصفوف من حوله، وترتب على هذا إحلال الوحدة العضوية في مجتمع الجزيرة العربية.. ولو أنه لم يكن متسما بالتواضع، ولم يطبق الشورى في حكمه، لاتخذ طابعا استبداديا. هذا مع العلم بأن الحكم المطلق يضع الحاكم عادة، في بوتقة توجيه مؤسسات دولته، نحو تثبيت سلطته، مما يضيّق فرص العمل من أجل التقدم بمعناه الصحيح. هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فإن الحرص على تثبيت السلطة، قد يجرّ

إلى (تأليه) الحاكم، كما كان الحال مع فرعون زمن موسى.. وهذا قد يؤدي إلى حدوث اضطرابات داخلية، تدفع بالحاكم إلى العنف؛ والقرآن الكريم قدّم وصفا دقيقا عن ظلم فرعون، وعنفه، وتقسيمه للمجتمع إلى شيع، تضرب بضها بعضا، للإبقاء على مكانته كحاكم مؤله؛ ولكن الله تعالى، أخذ فرعون هذا وجنوده بالعقاب، بقضائه الذي لا مرد له؛ يقول جل جلاله:

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿القصص/٦﴾

إذن، مقابل الوحدة العضوية النابعة عن تواضع الحاكم، وعدم استبداده برأيه، فهناك انقسامات اجتماعية من منطلق استبداد الحاكم، ووضع كل شيء في يده المطلقة؛ وإنه لَمِن بواعث الاستقرار والتقدم، أن يتصف مجتمع ما بالوحدة، المبنية جوهريا على الدين، بين أفراده. والواقع أن ذلك يبعث على توجه الحاكم والمحكومين معا، للعمل البناء. وقد أشرنا إلى جهود الملك عبدالعزيز في بناء نهضة حضارية، وفكرته في المجال العلمي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه صحيح أن الملك عبدالعزيز بنى نهضة في بلاده، بيد أن تدعيمها دون نكسات، يتطلب عدلا كقاعدة؛ والعدل، بكل تأكيد، شكّل (ثاني) أهم صفة من صفات الملك بعد التواضع بكل روافده وهي الصدق، والأمانة والقناعة، والتسامح، والأخوة، والمحبة. هذا وإنّ دعائم عدل الملك، برزت في حفاظه على حقوق جميع الناس، دون تفريق بين قريب أو بعيد،

غني أو فقير، كبير أو صغير، كما ذُكر مرارا. وبهذا، عامل الجميع بالتساوي أمام القانون. وقد أشرنا، إلى أنه كان حريصا على الاستماع لشكاوى الناس، والنظر فيها عن كثب، وتمحيصها، والتوصل إلى حلول لها، تعيد للمظلوم حقه· وبهذا بعث الطمأنينة في النفوس، وحمى مجتمعه من تغلغل نيران الحقد والضغينة بين أفراده. هذا مع العلم، بأن تفشّي الكراهية بين الناس، يؤدي إلى التمزق الاجتماعي، والتمزق بدوره يمثل عاملا هاما في الانحدار. ويبقى أن نضيف هنا أن تطبيق العدل، بحد ذاته، يتطلب نخوة، وغيرة على الحق، وقوة إرادة، وعزيمة، وتضحية في سبيل الواجب، وحزم، وثبات. وتلك كلها شكّلت روافد لعدل الملك كصفة، وواقع.

إن صفات الملك عبدالعزيز تلك وغيرها، إضافة إلى أعماله.. أمور تجمعت كلها للاهتمام الملموس به كرجل عظيم.. فتوجهت أنظار عدد من أهل السياسة، والتاريخ، والفكر، للدراسة عنه، كمؤسس للمملكة العربية السعودية.

ومن هؤلاء كارل بروكلمان، الذي وضعه في مؤلفه (تاريخ الشعوب الإسلامية)، في مكانة (قادة الرأي والفكر العالميين الذين شاء لهم القدر أن يسيطروا على مصير أممهم ويملوا على توجيه الإنسانية إلى نواحي الخير والحق والعدل والتعاطف الإنساني والإخاء العالمى).

الملك عبد العزيز

الموحد والنموذج للشخصية الفذة المؤثرة

الملك عبدالعزيز وإخلاص التوحيد لله

كان الملك عبدالعزيز صادقا مع نفسه، وما عاهد الله عليه من التمسك بالمنهج الإلهي، والدستور السماوي القرآن الكريم، وسُنة رسول الله (ﷺ) وطريق السلف الصالح من الصحابة والتابعين بلا تأويل أو ابتداع أو تغيير.[1]

كان أول ما نادى به: إخلاص التوحيد لله، وتخليصه مما علق به من كل شائبة، وجعله لله وحده، فلا يشرك به منفردا بالعبادة والقصد.

وهذا هو الأساس المتين الذي يجتمع عليه المسلمون، حتى يثبت الإيمان ويرسخ في الصدور، وبعده يهون كل شيء.

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) ﴿النساء/٤٨﴾

وما ترك- رحمه الله - مناسبة ولا اجتماعا دون أن يُذكّر الناس بالتوحيد الخالص لله، فهو يعرف أن التوحيد إذا علق به شيء ضعفت النفوس، وأصبح من السهل أن تنقاد لغير الله.

قال - رحمه الله - من خطبة ألقاها جلالته بمكة في ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ:

(هذه هي العقيدة التي قام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب يدعو إليها، وهذه هي عقيدتنا، وهي عقيدة مبنية على توحيد الله عز وجل من كل شائبة، منزهة من كل بدعة، فعقيدة التوحيد هذه، هي التي ندعو إليها، وهي التي تنجينا مما نحن فيه من محن وأوصاب).

وقال - رحمه الله - في خطبة أخرى:

---

[1] الملك عبد العزيز بين نصره لله ونصر الله له، للأستاذ عبد الله حسين الموجان.

(إن المسلمين في خير ما داموا على كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وما هم ببالغين سعادة الدارين إلا بكلمة التوحيد الخالصة).

ومن خطبة ألقاها جلالته بمكة بمناسبة سفره إلى المنطقة الوسطى من المملكة في محرم سنة ١٣٤٨هـ.

(وقد نصرنا الله بقوة التوحيد الذي في القلوب، والإيمان الذي في الصدور، ويعلم الله أن التوحيد لم يملك علينا عظامنا وأجسامنا فحسب.. بل ملك علينا قلوبنا وجوارحنا، ولم نتخذ التوحيد آلة لقضاء مآرب شخصية أو لجر مغنم، وإنما تمسكنا به عن عقيدة وإيمان قوي، ولنجعل كلمة الله هلي العليا).

ثم ينطلق الملك عبدالعزيز بالدعوة إلى التوحيد من محيط الجزيرة العربية، فيتخذ موقف الداعي إلى الله، ليبلغ ما يجب عليه تجاه نشر الدعوة، فيدعو المسلمين جميعا في أنحاء الأرض إلى التوحيد الصحيح، وينطلق بهم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، وحينما يرى المسلمون أنهم قد نفذوا ذلك، واتحدوا على العمل بما يدعو إليه، سيجدون أنه واحد من المسلمين يسعى لخيرهم، ويسهر على راحتهم – لا بصفته ملكا أو زعيما أو أميرا، بل فردا من عامة المسلمين، وليس هو وحده فحسب.. بل ومعه أولاده وجيشه وقومه، ثم يُشهد على قوله وتبليغه للمسلمين فيقول:

(إن المسلمين بخير إذا اتفقوا وعملوا بكتاب الله وسُنة رسوله (ﷺ) ليتقدم المسلمون للعمل بذلك، فيتفقوا فيما بينهم على العمل بكتاب الله وسُنة نبيه (ﷺ) ويماجاء فيهما، والدعوة إلى التوحيد الخالص، فإنني – حينذاك – أتقدم إليهم، فأسير وإياهم جنبا إلى جنب في كل عمل يعملونه، وفي كل حركة يقومون بها.. والله إني لا أحب الملك وأبهته، ولا أبغي إلا مرضاة الله، والدعوة إلى التوحيد.. ليتعاهد المسلمون فيما بينهم على التمسك بذلك، وليتفقوا،

فإنني أسير وقتئذ معهم، لا بصفة ملك أو زعيم أو أمير، بل بصفة خادم·· أسير معهم أنا وأسرتي، وجيشي وبنو قومي، والله على ما أقول شهيد، وهو خير الشاهدين).

ثم يذهب – رحمه الله – إلى أبعد من ذلك فيرى أن كلمة التوحيد الصحيحة ونشرها والعمل بها بين المسلمين، لو تمت على يد أعدائه، لكان فرحا بذلك، ولاتحد معهم، وسار في طريقهم، وإن تمت على يده اعتبر ذلك منة وفضلا من الله سبحانه وتعالى·

(إني أجاهد لإعلاء كلمة التوحيد، والحرص عليها وأحب أن أراها قائمة، ولو على يد أعدائي، وإن تمت على يدي فذلك من فضل الله)·

كان – رحمه الله – في كل اجتماعاته الخاصة والعامة، بين أهله وخاصته، أو بين أهل البلاد حينما يلتقي بهم في كل مناسبة، أو في اجتماعاته الدولية بين عامة المسلمين يوصي بالتمسك بالكتاب والسُنة، وأن يجتمع الناس عليهما، وأن يعملوا بما فيهما، فليس في الحياة أمر إلا وتعرض له القرآن الكريم·

(أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) ﴿الأنعام/٣٨﴾

والسُنة الشريفة كذلك، وليس هناك خصلة مفيدة ونافعة إلا يدعوان إليها، خطب يوما في أهل مكة فكان مما قاله:

(ولكن هناك نعمة حقيقة لا تزول، وخزينة لا ينضب معينها، هي الاعتقاد بأن لا إله إلا الله، وهذه نعمة مشروعة في كل مكان، ولكنها لهذه البقعة ألزم، لأن الحسنات والسيئات تتضاعف فيها، ولأن الله اختارها لتكون مهبطا للوحي، وجعل زيارة حرمها من أركان الإسلام)·

وخطب - رحمه الله - يوما في حجاج بيت الله الحرام فقال من خطبة طويلة:

(والمقصود من هذا الاجتماع هو أن نحدد اسم الإسلام، ونعمل بمعناه، والإسلام معناه: الاستسلام لله تعالى، والطاعة لله، والإيمان بكتاب الله ورسوله، وقواعد الإسلام قائمة على كتاب الله وسُنة رسوله (ﷺ) وأعمال الخلفاء الراشدين، وما اتفق عليه، وعليه الصحابة الكرام، وما جاء به فيما بعد الأئمة الأربعة، فهو حق لا نحيد عن ذلك قط).

وقال - رحمه الله - حينما جاء إلى المدينة المنورة، وسلم على رسول الله (ﷺ) وصلى بالمسجد النبوي، ثم خطب في الناس فكان مما قاله:

(وإن خطتي التي سرت عليها هي إقامة الشريعة السمحاء، كما أنني أرى من واجبي ترقية جزيرة العرب، والأخذ بالأسباب التي تجعلها في مصاف البلاد الناهضة، مع الاعتصام بحبل الدين الإسلامي الحنيف).

ولقد ظهر جماعة من المتفرنجين من المسلمين، يدعون إلى ما يسمونه بالتجديد إلى الأخذ بكل ما في الغرب، ونادوا بالخروج على تقاليد الدين الإسلامي الحنيف، دعوا الشرق بأن يسير وراء الغرب، وكانوا مغرضين في ذلك، فانبرى لهم الإمام - رحمه الله - ففند مزاعمهم، وسفه أحلامهم، ورد عليهم بالحُجة والدليل، والمنطق في كثير مما قاله في خطبه ومجالسه ومنتداه.

قال - رحمه الله - (يقول كثير من المسلمين: يجب أن نتقدم في مضمار المدنية والحضارة، وإن تأخرنا ناشيء عن عدم سيرنا في هذا الطريق.

وهذا ادعاء باطل، فالإسلام قد أمرنا بأخذ ما يفيدنا ويقوينا، على شرط أن لا يفسد علينا عقائدنا وشيمنا، فإذا أردنا التقدم يجب أن نتبع الإسلام، وإلا كان الشر كل الشر في اتباع غيره).

يقولون: الحرية.. ويدعي البعض أنها من أوضاع الأوربيين!

والحقيقة أن القرآن الكريم قد جاء بالحرية التامة الكافلة لحقوق الناس جميعا، وجاء بالإخاء والمساواة المطلقة التي لم تحلم بها أمة من الأمم، فآخى بين الصغير والكبير، والقوي والضعيف، والغني والفقير، وساوى بينهم.

يقولون: التمدن والمدنية الأوروبية هي الغاية القصوى.

وهذا وهم باطل، فإن الله جعل من كل شيء أفضله مباحا لنا، وأحب كل شيء إلينا هو العمل الخالص والنية الحسنة».

إننا لا نبغي التجديد الذي يفقدنا ديننا وعقيدتنا... إننا نبغي مرضاة الله عز وجل، ومن عمل ابتغاء مرضاة الله، فهو حسبه، وهو ناصره، فالمسلمون لا يعوزهم التجديد، وإنما يعوزهم العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح).

الملك عبدالعزيز
وإقامة حدود الله

لقد بدأ – رحمه الله – في تنفيذ حدود الله في جميع مناحي الحياة، وعلي الجميع لا فرق بين غني وفقير، وأمير وغير أمير، وأصبح الناس كلهم سواء أمام القانون السماوي، وهدد أولئك الذين قد تحدثهم أنفسهم بالفوضى، والمضاربة بالأقوال، والتلاعب بالكلمات والألفاظ، ويظهرون الأمور على ما ليست عليه، لقد حذرهم فكان مما قال:

«إن البلاد لا يصلحها غير الأمن والسكون، لذلك أطلب من الجميع أن يخلدوا للراحة والطمأنينة، وإني أحذر الجميع من نزغات الشيطان، والاسترسال وراء الأهواء التي ينتج عنها إفساد الأمن في هذه الديار، فإني لا أرعى في هذا الباب صغيرا أو كبيرا وليحذر كل إنسان أن تكون العبرة فيه لغيره[١]».

لقد شغل بال الملك عبدالعزيز الأمن والسكينة في هذه البلاد المترامية الأطراف، الواسعة المساحة، وللبادية وسكانها خطرهم، فهم منتشرون في ساحات شاسعة بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وما بين خليج عدن وما يقابله في الشمال.

هذه المساحة الكبيرة لم تر الأمن والسكينة منذ زمن بعيد، فقد رجعت عناصر الشر إلى عادتها وطبائعها، إذا استثنينا فترات قصيرة كانت بمثابة هدنة.

ففي العهد التركي وعهد الشريف أصبحت أشد خطرا، وأعظم فتكا، فليس هناك ما يردعهم، أو يقلم أظافرهم، ولأن البلاد ممزقة بسبب الثارات بين

---

[١] الملك عبد العزيز بين نصره لله ونصرة الله له، للأستاذ عبد الله حسن الموجان.

القبائل، كانت الإغارة والسلب والنهب والقتل من المهن المعترف بها، وكان أهل البادية دائما يتربصون بالقوافل وقطعان الماشية الدوائر.

فلكي يأمن التاجر على نفسه وما معه إذا كان يجتاز الصحراء، عليه أن يدفع الإتاوات على طول الطريق الذي يمر به، فالتاجر الذي يجيء من البحرين مثلا يدفع قبل أن تطأ رجلاه العقير، إتاوة للعجمان، ومن العقير إلى النخل خمسة أميال إتاوة للمناصير، وكذلك أم الذر·· وبني هاجر.

وإذا فاز التاجر بحياته وبقي شيء في كيسه فمن المؤكد أن أحماله لا تصل كلها إلى المكان الذي يريده.

كان في عهد الترك إذا خرج العسكر لتأديب جماعة من هؤلاء البدو يطاردهم البدو فيغلبونهم ويأخذون خيلهم وثيابهم، ويرجعون إلى مكان إقامتهم حفاة عراة.

والأدهى والأمر ما كان يُصنع بحجاج بيت الله الحرام، كانوا عرضة للسلب والنهب والقتل، وكان الحجاج يخرجون من بلادهم ولا أمل لهم في العودة، وقد حملوا معهم أكفانهم، فكانوا في جهاد وقتال مع أهل البادية الذين يأخذون منهم ما يطلبون، ولم يكونوا يكتفون بما أخذوا بل كانوا يغيرون علي مؤخرات القوافل يسلبون ويقتلون ولا أحد يستطيع أن يغير شيئا مما كان يحدث.

حتى أرض الحجاز لم تسلم من بطش أهل البادية في معظم جهاتها، والعلة في ذلك أن حكام الحجاز لم يكونوا على كثير من الحكمة والسياسة التي تلائم العرف عند القبائل، أو لم يكونوا متفرغين للأمن، ولم يكن يجدي ما يدفعون من أموال، فقد كانت القبائل تأخذ الأموال ولا تمتنع عن السلب والنهب، ولم يخطر على بال أحدهم أن يحكم الشريعة الإسلامية، لذلك فإن الفوضى الأمنية قد عمت كل البلاد، فمثلا طرق المدينة المنورة لم يكن في الاستطاعة أن يقام

فيها الأمن، وأن يستتب، فكانت مسرحا لحوادث جسام، فالقبائل تعتدي على حجاج بيت الله الحرام، وعلى الذين يزورون المسجد النبوي ويسلمون على رسول الله (ﷺ) وتسلب ما معهم من متاع وقد تفرض عليهم إتاوات كبيرة.يقول الصحفي المصري محمود أبو الفتح - رحمه الله - في صحيفة الأهرام عام ١٩٣٠م:

«كان بعض الأعراب يذبحون الحاج، وإن كان فقيراً لاستلاب ما معه، وكانوا يذبحون الحاج في رابعة النهار، ولم يسلم من أذاهم أحد، ولم يجدوا من يردعهم، فعاثوا فسادا حتى كان المسلم يخرج وهو لا يدري أيعود إلى وطنه أم يقتله السفاحون».

وحتى أهل البادية لم يكونوا في صفاء مع أنفسهم، وكانوا متفرقين، تزداد العداوة والبغضاء بينهم نموا يوما بعد يوم، يقتل بعضهم بعضا لأتفه الأسباب، ويأكل القوي منهم الضعيف، تنشب المعارك الضارية فيقتل منهم العشرات، لا ينامون على خير، بل يعدون للشر والانتقام، فيندفعون للتخريب، لذلك لم يهدأوا، ولم يأمنوا، وكانوا يسيرون في جماعات حاملين السلاح، وكأنما رجعت الجاهلية الأولى، فاشتعلت نار الفتن، وتقطعت الأرحام، وتواثبوا في الأسواق، وعلى حدود القبائل، وخاف بعضهم بعضا، فحملوا السلاح ليلا ونهارا.

ويقول صاحب كتاب «عنوان المجد»:

«كانت الفتن مستمرة، والغارات دائمة بين القبائل، ففي سنة ١٢٩٣هـ وقعت فتن وقتل رجال، وأُخذت أموال من كل بلد وناحية من القصيم والعارض، والخرج والجنوب وغير ذلك، وكان بعض القبائل يغيرون على القرى والمدن، ففي سنة ١٢٣٧هـ مثلا غارت بوادي سبيع على - قرية - منفوحة، وأخذوها عنوة

ونهبوا وسلبوا النساء، وقطعوا الثمار، واستولوا على البلد·· وعم القتل في هذه السنة في القصيم وسدير والوشم والعارض والخرج والجنوب».

وهكذا فقد ساد الجزيرة فوضى، رجع الناس بسببها إلى ما كان عليه الحال إلى ما قبل بعثة رسول الله (ﷺ)·

التزم الملك عبدالعزيز برأي الدين في معالجته لكل أموره، وبما هداه الله إليه من عمل، ووهبه من ذكاء وخبرة لم يلجأ - رحمه الله - في أول الأمر إلى القوة، واستخدام السيف للخارجين على الدين، والعابثين في الأرض فسادا، وكان الخطر الداهم على البلاد من البادية، فإن أهلها جبلوا على عادات وطباع خاصة، هم في حاجة إلى علاج ناجع، يحسم الداء، ويجعل منهم مجتمعا صالحا للحياتين.

لقد رأى أن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، وأن لهذا الدين سحرا عجيبا في قيادة الناس علي اختلاف مشاربهم وحياتهم، وأنه هو الذي صنع من أهل البادية أعظم أمة عرفها التاريخ، وأن الناس حينما تخلوا عن مبادئ هذا الدين الحنيف، تخلى الله عنهم، فتاهوا في الظلمات سنين طويلة، أما وقد وفق الله لإقامة شعائر هذا الدين، فقد رأي الإمام والملك والمصلح - رحمه الله - تبصير أهل البادية بأمر دينهم، وجمع كلمتهم على هدى الإسلام·

لقد أرسل إليهم من يبصرهم بأمر دينهم، ويرشدهم إلى الطاعات، فكان في كل قبيلة من قبائل البدو الرحالة والمستقرة من يعلم الناس أصول هذا الدين القويم، ويوجههم إلى ما ينفعهم في حياتهم، ويجيب عما يسألون عنه في أمور الدنيا والآخرة، فالتفوا حوله، وشغلوا بالعمل الصالح، وأصبح له مكانة كبيرة في نفوسهم، وصار يخطب لهم يوم الجمعة، وكل المناسبات الدينية

كالعيدين والاستسقاء وغيره، ويصلي بهم، ويعلم أبناءهم، ويفتي كبارهم، ويعقد الزواج، ويقسم المواريث، ويتوسط في حل المشاكل.

رأي الملك عبدالعزيز – رحمه الله – أن عامل الحالة الاجتماعية يساعد كثيرا على الاستقرار ويقوم الناحية الدينية، ويسدّ الطريق علي من تحدثه نفسه بأن يسلك طريقا غير مشروع لجلب الرزق فأراد أن ينتقل بالبدو من حياة البادية المتنقلة إلى حياة الهجر ليتركوا حياة السفر والتنقل من مكان إلى آخر، قد يجدون فيه ما يسد رمقهم، وقد لا يجدون، فيميلون إلى السطو والنهب، فأراد أن ينتقل بهم إلى حياة الأمن والاستقرار، وليتركوا حياة الرعي إلى حياة الزراعة والرعي.

أنشئت الهجرة الأولى على آبار الأرطاوية على الطريق بين الزلفى والكويت عام ١٣٣٠هـ، وأصبحت خلال بضع سنوات مدنا فيها من السكان ما يزيد علي العشرين ألفا، ثم تلا الأرطاوية حركة عامة بين البدو، بترك حياتهم البدوية، والسكنى في قرى جديدة كانوا ينشئونها بمعونة من بيت مال المسلمين، تحفر البئر، ويبنى المسجد الذي هو مجتمع القرية ومدرستهم، وكانت السرعة هي الرائد في كل ما يقومون به من أعمال.

وهكذا فقد أصبحت المساجد غاصة بأهلها ممن تركوا الخرافات والبدع وعادات الجاهلية، وواظبوا على الصلاة في أوقاتها، وتواصوا بالأخلاق الإسلامية الصحيحة التي تحث على الفضيلة والإيمان.

أصبحت الزراعة هي موردهم الذي منه يأكلون ويتجرون ويذبحون، فتكونت عندهم الثروات والمال الكثير، وفي نفس الوقت فقد انتشرت المعسكرات، ليكونوا من الشباب أمة مسلمة تدافع عن مبادئها، وترد كيد كل من يحاول أن

ينال دولتهم الفتية بقيادة قائدهم الأعظم عبدالعزيز آل سعود، وهم على استعداد للقتال معه في أي وقت.

كانت خطة الإمام عبدالعزيز منذ تولى إمارة الرياض أن ينفذ حكم الله في كل من خرج على حدوده، فكان يتتبع الجرائم الكبيرة بنفسه، ويتعقبها، ويحث جهات الاختصاص على رفع نتائج الحوادث وتطورها إليه أولا فأول، ويصدر أوامره بشأنها، ويشفع كل ذلك بالحزم والدقة حتى تنكشف الجناية.

كان إذا عرضت عليه قضية درسها من جميع الوجوه بما له من علم ومعرفة وخبرة، وذكاء، مبينا ما جاء في الكتاب والسُنة، وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ثم يصدر حكمه.

وكان كثيرا ما يقرأ ظروف وملابسات كل قضية، يطلب منه التصديق عليها، وقد يعيد الحكم فيها، ومن ذلك ما رفع إليه من قضية طلب منه التصديق على حكم أصدرته إحدى المحاكم الشرعية، بإعدام جندي قتل زوجته وجندياً آخر، وكان تنفيذ الحكم معلقا على موافقة الإمام، درس – رحمه الله – القضية فظهر له أن الزوجة كانت قد غابت عن بيتها أياما، وبحث عنها زوجها فوجدها عند أحد الجنود، فأطلق عليها الرصاص وسألته المحكمة فأقر بالقتل، ولم يحسن الدفاع عن نفسه، فحكمت المحكمة بإعدامه.

ولم يكد ينتهي من القضية حتى دعا رئيس المحكمة إليه فقال له: ألم تقرأ الحديث الذي فيه: «إنني أغيركم، والله أغير مني».

ثم أطلق القاتل، لأنه كان يدافع عن عرضه، وهذا من توفيق الله.

ولما اتسعت البلاد، جعل لكل ناحية أميرا، وكان على كل أمير أن يجمع رؤساء القبائل والعشائر، ويؤمنهم على أنفسهم ومعيشتهم، ويشترط عليهم أن يكونوا قادرين على حفظ الأمن في حدود أراضي قبيلتهم، وكل حادثة تحدث في

منطقة أحدهم يكون مسؤولا عنها هو وقبيلته، سواء أكانت بين بعضهم، أو حوادث لأجانب من التجار أو الحجاج أو غيرهم.

علم أمير الطائف في أوائل ضم الحجاز أن البدو اختطفوا اثنين من حجاج الهند وقتلوهما، وأخذوا أمتعتهما، فأمر بإحضار كبار القبيلة التي حصل في حدودها الحادث، وحدد لهم ثلاثة أيام لإحضار المسروقات والإرشاد، وأقسم أنه إذا انقضى الميعاد المطلوب دون نفاذ المطلوب، ليبيدن القبيلة بأكملها، وقبل مضي الميعاد، أحضر رجال القبيلة المسروقات وأرشدوا إلى جثتي القتيلين، وأخيرا أرشدوا إلى اثنين اعترفا بالقتل فأمر بقطع رقابهما.

وفي هذه المرة اعتداء على السعوديين، فقد جاء إلى القصر في الرياض بضعة رجال من إحدى القبائل يطلبون عيشا وكسوة، فكان لهم ما ابتغوه، ثم ارتحلوا فمروا في طريقهم ببعض الجمال والنوق فساقوها أمامهم، فشكاهم أصحابها إلى الملك عبدالعزيز. فبعث الملك والإمام من يحمل الخبر إلى أمير الأحساء، فما وصل الخبر إليه حتى تحرك رجال الدولة يبحثون عن اللصوص، وما هي إلا أربع وعشرون ساعة حتى جيء بهم وبالمسروقات ولقوا جزاءهم.

(إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ) ﴿المائدة/٣٣﴾

لقد ألقى الله الرعب في قلب كل من تسول له نفسه السير في طريق العدوان والفساد وسادت الرغبة في الحفاظ على حقوق الله وحقوق العباد فكان يردد في كل مكان (الحكم للشرع).. (السارق تقطع يده).. (والقاتل يقتل).. (عدل عبدالعزيز).. (التمسك بشريعة الإسلام).. (الصلاة. الصلاة).

كلمات تسمع في البادية، وفي القرى والمدن، وفي البر والبحر وفي الأماكن المقدسة ويرددها الناس، فتزلزل القلوب وتخيف النفوس المريضة، وتزيد المؤمنين إيمانا وطمأنينة.

بل لقد انتقلت هذه الكلمات إلى عامة المسلمين في جميع البلاد الإسلامية، في الصحراء، وفي المدن، وفي أعماق بلاد المسلمين، يُهنئ بعضهم بعضا بسبب ما وصل إليه الأمن والأمان في البلاد المقدسة، وبنجاح التجربة الإسلامية وعودة بلد من بلاد المسلمين إلى الحكم بكتاب الله، ويتمنى أن تنال هذه التجربة الناجحة بلاد المسلمين، فيرجعوا إلى كتاب الله.

لقد شجع بعضهم بعضا علي أداء الحج والعمرة، وغاب عامل الخوف والرعب فكانوا يقولون:

هيا إلى الحج، هيا إلى العمرة، إلى الأماكن المقدسة، إلى مكة وإلى المدينة، الطريق آمن، ابن سعود يحكم بالشرع، عبدالعزيز قضى على القتلة والسفاحين، سنرجع بسلامة الله.

كلمات مازال يحكيها المعمرون في أقاصي البلاد الإسلامية الذين رأوا بأعينهم الأعمال العظيمة التي قام بها عاهل الجزيرة الملك عبدالعزيز آل سعود فكان خير دليل وشاهد على توفيق الله له.

جاء في الحديث الصحفي الذي نشره محمود أبو الفتح، وقد زار البلاد، ورأي بعينيه ما وصلت إليه البلاد منذ أكثر من خمسين سنة ما يأتي:

«وجاء ابن سعود، فضرب أمثلة.. كان يأمر بالسارق فتقطع يمناه، كانت دروسا نافعة، فقد قطع ابن سعود عشرات من رؤوس اللصوص والقتلة وأنقذ بذلك رؤوس الآلاف من حجاج بيت الله الحرام...

ثم يكمل حديثه فيقول:

(والآن تسير الفتاة من طرف الجزيرة الغربي إلى طرفها الشرقي، تحمل الذهب فلا يتطلع إليها أحد، بل يرى الناس قطعة الذهب أو الفضة ملقاة على الأرض تسقط من بعض المارة فلا يقربونها، وإنمايبلغون الشرطة).

قال: ويحدثني المعتمد البريطاني في جدة عن حال الأمن فقال:

(إنها إن دامت سنوات بلغت البلاد درجة عظيمة من الرقي، إن الأمن في الحجاز لا مثيل له في أي بلد من بلاد العالم الآن).

واليوم بشهادة هيئة الأمم فإن المملكة العربية السعودية أقل البلاد في خروج أهلها على القانون، فإن الأمن مستتب، ولا مثيل له في الدول المتحضرة، وأنها من أوائل الدول المتقدمة في الزراعة والصناعة والحضارة في جميع المجالات والفضل لله ثم لإخلاص أبنائه، والسير علي الطريق الذي رسمه لهم والدهم العظيم[1].

ويؤكد ذلك ما سطره المؤرخ محمد بن عبدالله الأحسائي حيث قال:

(والمملكة العربية السعودية تتقدم من حسن إلى أحسن، قد عمها الأمن، وشملها العدل، واتسع الرزق، وكثرت موارده، وعم اليسار معظم طبقات الشعب، بما أجرى في جهات الأحساء من ينابيع الزيت بحكمة هذا الملك المصلح، فقد طبق في مملكته الأحكام الشرعية التي جاء بها القرآن ونطقت بها سُنة النبي الكريم محمد بن عبدالله (ﷺ) فقتل القاتل، وقطع يد السارق، وجلد شارب الخمر، ورجم الزاني المحصن، وشدد العقاب على المعتدين والعابثين بالأمن، فنعمت البلاد بأمن لم تكن تحلم به، ولم يحصل لغيرها من رعايا الدول الكبيرة المتمدنة، وأقام الدليل الواضح على أن شريعة الإسلام هي

---

[1] جريدة الأهرام المصرية الصادرة بتاريخ ١٦/١١/١٩٣٠م.

الشريعة الكفيلة بسيادة البشر، في كل زمان ومكان فجزاه الله عن المسلمين خيرا.

والحمد لله لقد أصبحت حدود الدولة والمحافظة عليها قائمة إلى وقتنا هذا، وستظل دائما إن شاء الله، بفضل الله ثم بفضل أولئك الذين وفقهم الله لإقامة حدود الله، وإنه لدليل علي أن شريعة الله تتفق مع فطرة الله التي فطر الناس عليها ففيها الأمن والأمان والهدوء والاطمئنان.

من خصائص الملك عبدالعزيز

يقول الأستاذ خيز الدين الزركلي أحد مستشاري الملك عبدالعزيز والوزير المفوض في عهذ الملك:

كان موظفوا (الديوان الملكي) يقولون إنهم قد يضبطون ساعاتهم على تنقلات الملك وأعماله اليومية المعتادة، كخروجه من قصره الداخلي وعودته إليه، وجلوسه للنظر في الأعمال، وقيامه للنزهة وابتدائه السهرة وغير ذلك. فهو من أشد الناس، بل أشدهم محافظة على برنامج عمله، حتى في أسفاره وأيام كانت مطاياه ظهور الخيل والإبل.

اعتاد أن يستيقظ قبل الفجر بنحو ساعة، فيقرأ سوراً من القرآن الكريم ويتعبد ويتهجد. وكثيرا ما يُسمع له نشيج. ويستمر إلى أن يؤذن الفجر. فيصلي الصبح مع (الجماعة) ويسبح ويقرأ ورد الصباح، ويدخل فيضطجع إلى أن تشرق الشمس. وينهض فيغتسل ويلبس ثيابه ويفطر. ثم يخرج إلى المجلس الخاص فتُعرض عليه مهام الحكومة في فترة غير طويلة. يأذن بعدها بالمقابلات الخاصة لكبار الزوار. ثم ينتقل إلى المجلس العام، حيث يدخل كل من يريد مقابلته، ويمكث نحو ساعة، فإذا اقترب وقت الظهر، نهض للغداء، ومنه إلى القصر فيستريح قليلا. ثم يصلي الظهر مع الجماعة ويعود إلى مجلسه الخاص فيُعرض عليه ما تجدد من الشؤون العامة. إلى صلاة العصر. ويجلس بعدها لإخوانه وأولاده وأقاربه وكبار الموظفين. ثم يخرج بسيارته إلى ظاهر المدينة للرياضة. ويعود بعد صلاة المغرب.

وبعد العشاء يجلس في مجلس شبه عام. وهناك يحضر (القارئ) فيتلو فصولا من كتب مختلفة، وبعد قليل يدخل قارئ الإذاعة العربية فيتلو ما التقط

من محطات الإذاعة الشرقية من متنوع الأخبار، ويأتي بعده قارئ الإذاعات الأجنبية، وقد ترجم أهم ما أُذيع. ويتكرر قُراء الإذاعات في الضحى، وبعد العصر والهزيع الأول من الليل.

وفي نحو الساعة العاشرة مساء ينفض المجلس بنهوض الملك عائدا إلى داخل القصر، بعد أن يتلطف بكلمات يختمها بتحية الجميع. السلام عليكم.

مائدته:

كان يجلس على مائدة الملك عشرات من الناس، غداء وعشاء كل يوم. وإن كان عنده ضيف، جعله أقربهم إليه، على يمينه. ويجلس الأمراء مصطفين بحسب أعمارهم، على يساره، يقابلهم إلى يمينه وزراؤه ومستشاروه وكبار الدولة. ثم يجلس من يليهم على الجانبين من دون ترتيب.

ولا تقييد في وقت دخول الآخرين. فقد يجيء أحد الكتّاب أو صغار الموظفيم العسكريين أو الملكيين، أو بعض رؤساء البدو، في منتصف الطعام، أو أواخره فيجلس حيث ينتهي به المجلس ولا يتخلى أحد لآخر عن مكانه في خلال الطعام.

وإذا شبع أحد الآكلين، انسحب، وقد ينصرف نصفهم أو أكثرهم والملك يتحدث مع من حوله أو مع أحد البعيدين عنه، ويتمهل إلى أن يشعر بأن الجالسين اكتفوا، فينهض.

وإذا قام الملك. قام معه جميع الآكلين، حتى الذين جاءوا متأخرين. ويتجه إلى غسل يديه بالطست والإبريق والصابون. وكذلك يفعل من شاء منهم. والطسوت تتعدد إذا كثر الطاعمون.

ثم يأخذ زجاجة· فيها عطر الورد، فيتطيب· ويتهافت عليه من حوله، فيمس كل منهم مِرْود الطيب· وتدور القهوة· وينصرف من أراد ولا استئذان في الانصراف·

طعامه:

كان قليل الطعام، بالنسبة إلى كبر جسمه·

يأكل ثلاث مرات في اليوم· وتكاد أنواع الطعام التي اعتادها ألا تتغير· ففطور الصباح ويسمونه (الريوق) يتألف من الخبز والعسل واللبن الرائب، والغداء وموعده الضحى· يكون من الأرز واللحم مطبوخين معا، وإلى جانبهما نوع من الخضار، وقد يكتفي باللحم مشويا أو مقليا، ومثله العشاء وهو يكون قبيل الساعة الرابعة بعد الظهر، ويُزاد فيه شيء من الحلوى·

شرابه المفضل:

وكان يكثر من شرب حليب النياق·

والماء المفضل عنده، ماء بئر (الجعرانة) يحمل إليه شرابه منها يوميا حين يكون في مكة أو قريبا منها· أما إذا كان في الرياض، فكان ماء الجعرانة من هدايا خاصته إليه، معبأ في ثلاجات·

وهذه البئر، تاريخية، من قبل عصر النبوة· على ١٨ كيلو مترا من مكة·

قهوته:

ويكرر الملك عبدالعزيز شرب (قطرات) أو نقط من القهوة العربية المصفاة المصنوعة من قليل من البن والزعفران· وكثير من (الهيل).

وكان يسترعي انتباه ضيوفه الجدد· سماعُهم في مجالسه العامة· كلمة لها دوي بين الفينة والفينة· فإنه حين يريد القهوة· يقول بصوت خافت: اقهوه! ويردد الخويا والزكرت الجالسون في أقصى المجلس: اقهو.. وتتعالى الأصوات

بها ختى خارج المجلس فيسمع السقاة· ويأتي بها ثلاثة منهم أو خمسة، حسب قلة الجالسين أو كثرتهم، وبأيديهم اليمنى أباريق القهوة، وباليسرى مالا يقل عن ستة فناجين يحملها كل منهم، بعضها فوق بعض·

ويتقدم أحد السقاة فيصب للملك· ويبدأ الثاني والثالث معا· عن يمين الملك ويساره، بحركة سريعة يُسمع فيها رنين الفناجين، فيسقون من في المجلس· ومن لم يُرد أن يشرب أشار إلى الساقي بكلمة (بس) فيتجاوزه ويعودون فيجمعون الفناجين، ومن أراد الزيادة رد الفنجان إلى الساقي، فيصب له ثانية وثالثة ورابعة إلى أن يرتوي· ومن اكتفى، هز الفنجان عند تسليمه إلى الساقي· أو رده إليه مقلوبا، أو غطاه ببعض أصابعه، أو قال له: بس·

سيوفه:

كانت للملك عبدالعزيز عناية بالسيوف وخبرة في أجناسها ومعرفة بتواريخها وقد أمر بالمحافظة على السيوف القديمة التي اشتهرت في الأسرة السعودية، واهتم لجمع ما تفرق منها في حوادث الفتن الأهلية وغيرها·

وكان يرى السيوف الفارسية أفضل من الهندية· ويفضل الهندية على اليمانية ويحب السيوف الفارسية القديمة ولا سيما الجنس المسمى (خريسان) ولعله من صناعة خراسان – والجنس المسمى (دابان) وقد انعدمت صناعتهما من مئات السنين والموجود منهما نادر جدا·

وأكثر السيوف القديمة الموجودة في الأسرة السعودية، من الصنف الثاني (دابان) ومنه السيوف الآتية: (رقبان) وكان من أحب سيوفه إليه، و(صويلح) و(ثُويني) و(ياقوت).

حبه للمناقشة:

وكان يكره أن يجامله مجالسوه من خاصته· بالموافقة على كل ما يقول. ويقرّب من يناقشه ويجادله.

متى كان الملك يستشيط غضبا:

وهناك مسألة خطيرة كانت تثير غضب الحليم العادل الملك عبدالعزيز هي أن يمتزج المديح والنفاق بما يقدح في عقيدة التوحيد، فهنا كان الملك يستشيط غضبا، وتلتمع عيناه شررا، لأن ذلك السلوك المعيب الذي ينحدر إلى مثل هذا التزلف الممقوت· معناه: أن المادح يجعل الممدوح لله ندا· والله ليس كمثله شيء·

ومن ذلك ما روي أنه خلال إحدى زياراته لبلدة (الخرج) في ٧ من ذي الحجة عام ١٣٦٣هـ استأن شاعر من نجد في الدخول عليه، وفي يده قصيدة استأذنه في إلقائها وابتدأ بمطلعها:

«أنت آمالنا وفيك الرجاء»

فصاح الملك (تخسأ) ، ولمع في المجلس الشيخ حمد الجاسر، فقال: علمه التوحيد يابن جاسر[١].

بهذا الحزم كله، بهذه الصراحة في الحق، وبهذا التشدد الواجب فيما يمس عقيدة التوحيد حسم عبدالعزيز الموقف بما ينبغي له من الردع، وكان في ذلك عبرة للآخرين·

وهناك موقف آخر لا يقل أهمية عن هذا الموقف وهو توجيهه للعلماء أن يلتزموا جادة الحق والصدق، ويبتعدوا عما ينافي ذلك· من التزلف والرياء، نص مؤتمر الرياض الذي حضره ألوف من أهل نجد غداة الاثنين ٢٢ جمادى الأولى عام ١٣٤٧هـ خاطب المفتي كافة العلماء هناك قائلا:

---

[١] الملك عبد العزيز مُثل رائعة من عبقريته للدكتور محمد الطيب النجار.

«أنتم أيها العلماء اذكروا أن الله سينبئكم يوم العرض وستسألون عما سئلتم عنه اليوم، وعما ائتمنكم عليه المسلمون فأيدوا الحق في كل ما تسألون عنه، ولا تبالوا بالكبير والصغير، بينوا ما أوجب الله للرعية على الراعي، وما أوجب للراعي علي الرعية في أمور الدنيا، وما تجب فيه طاعة ولي الأمر، وما تجب فيه معصيته. وإياكم وكتمان ما في صدوركم في أمر من الأمور التي تسألون عنها، فمن كتم ما في صدره فالله حسيبه يوم القيامة، ولكل من تكلم بالحق منكم فله عهد الله، والقول الذي يقع خلاف بينكم فيه أنتم أيها العلماء، فإني أعمل فيه عمل السلف الصالح، فأقبل منه ما كان أقرب إلى الدليل من كتاب الله وسُنة رسوله، أو قول العلماء الأعلام المعتمد عليهم عند أهل السُنة والجماعة، وإياكم أيها العلماء أن تكتموا شيئا من الحق تبتغون به مرضاة الله.فمن كتم أمرا يعتقد أنه يخالف الشرع فعليه من الله اللعنة، اظهروا الحق وبينوه وتكلموا بما عندكم».

صورة نادرة للتواضع الجم

أما تواضعه – رحمه الله – فكان مضرب المثل حقا وصدقا، ولم يكن يداخله شيء من خصال التجبر والتعنت، وامتشاق سلاح الملك والسلطة لإظهار الجبروت وإخافة الرعية، وإنما كان شأنه في كل شئونه شأن المخبت لربه، الخاضع لسلطة مولاه، المؤمن بأنه ما من كبير إلا والله أكبر منه، وما من عظيم إلا والله أعظم منه.

كان القادم إليه يقربه السلام عن بعد، ويدخل مجلسه بدون استئذان، ويناديه باسمه مجردا من الألقاب وعبارات التمجيد والتفخيم والتعظيم التي يعشقها الكثيرون من ذوي السلطان، ثم يخاطبه خطاب الند للند، وحديث هذه القصة في ديوانه بمنى في أحد مواسم الحج كان ضمن القادمين إلى الديوان

أحد الحجاج الأفغان، ولما اقترب منه سجد أمامه، فتألم جلالة الملك لذلك، وظهر الغضب على وجهه وملامحه، وقال بصوت مرتفع تدل نبراته على التألم: (السجود لا يكون إلا لله، السجود لا يكون إلا لله، السجود لا يكون إلا لله. إني ألا أزيد عن أحدكم بشيء. إن الإسلام قد ساوى بيننا بعد أن تعلمنا أمور ديننا، لم يفضل عربيا على عجمي إلا بالتقوى، لقد تفرد رب العزة جلت عظمته، وتعالت قدرته بالربوبية، والوحدانية فالسجود لا يكون إلا له لا لغيره، ويجب أن تلاحظ جيدا أنه لا إلا الله، إنها كلمة تنفي الألوهية عما سوى الله، وتثبتها له وحده سبحانه وتعالى، إن المسلمين لم يصلوا إلى حالتهم التي هم فيها إلا بعد أن بدلوا أوامر دينهم واتبعوا سبل الغي: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) ﴿الرعد/١١﴾.

درس في حسن القدوة:

والأمر الجدير بالتقدير في شخصية هذا العاهل الكبير، أنه وهو في قمة مجده وذروة انتصاراته، كان دائم الخضوع والإخبات لمولاه، لم تستنفره نشوة الطرب بما أفاء الله عليه من الفتوح الواسعة، ولم تغير من سمته أو عاداته اليومية في سلم أو حرب، فكان هو عبدالعزيز الخاشع لربه الصادق في شعبه، المستجيب لنصيحة المخلصين في بطانته، ومثل ذلك، أمر نادر في تاريخ عظماء الرجال حتى شاع لدى المؤرخين المعاصرين (أن خطايا العظيم تمحوها بطولاته).

جاء في تاريخ الزركلي لتاريخ شبه الجزيرة: (أن أحد العلماء دخل عليه وهو يتمشى في قصره بالرياض، وعليه ثوب طويل يمس الأرض فقال له (الله الله يا عبدالعزيز. لقد دخلك الكبر. وصرت تجر ذيلك وراءك، والتفت عبدالعزيز

إلى الخدم في الحال قائلا: (هاتوا المقص) فلما جاءوا به أعطاه إلى الشيخ، وقال: (قص ما تراه مخالفا للدين).

إنه مجرد امتثال من حاكم لأحد العلماء، وإنما هو ترفع نبيل أيضا عن أسلوب في النصح والتوجيه غير جميل، لأن من شأن العلماء مع العامة أن يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وذلك خشية أن يكون أسلوب الداعي سببا في تحول المدعو إلى نقيض ما أراد الداعي، فما بالك إذا كان الداعية بحضرة إمام طبقت شهرته الخافقين، وانتشر صيته في المشارق والمغارب، وهو مع ذلك ثابت على الحق لا يريم، سائر مع الشرع لا يتحلحل· وأكثر من ذلك: أنه متحدث بالشريعة أينما سار أو حل·ويمتد بنا نفس القول حين نتحدث عن تواضع الملك عبدالعزيز، لكننا نشير إشارة خاصة إلى أنه: رفض أن ينساق مع الداعين إلى تلقيبه بلقب (حامي حمى الحرمين الشريفين)، بل إنه كثيرا ما ردد في خطبه أنه فقط: (خادم الحرمين الشريفين) وقد بقيت هذه السُنة الحميدة في عقيده من بعده، فما زادوا على أنهم فازوا بشرف الخدمة لحرم الله الآمن· أضف إلى ذلك أنه (حارب ورفض فكرة تلقيبه بخليفة المسلمين) وهو أجدر بها من كثير ممن سعوا إليها، ولم يغره المال وبهارج الحياة، ولم يستطيع ما وهبه الله من خيرات الدنيا أن يغير ما في نفسه، أو على الأقل أن يغير ملبسه أو مسلكه من بدايته إلى أن قبض الله روحه.

هدف الأهداف للملك عبد العزيز هو توحيد شمل المسلمين:

إن حرص إمام المسلمين على توحيد شمل المسلمين هو غاية جميع الغايات، وبدون الوحدة تحت راية التوحيد الإسلامية لا يرجى لأي مجتمع فكاك من أسر عدوه أو تخلص من عبودية شيطانه، أو قدرة على مواجهة خصومه،

فكل حرية باطلة، إلا حرية الإسلام، وكل عزة زائفة، إلا عزة العقيدة. هكذا كان الملك يربي الأمة كلها على الأخوة الإسلامية، ولا يسمح لفريق منها أن يكونوا وحدهم إخوانا مسلمين فماذا يكون حال البقية إذن؟ لا شك أن هذا البناء السليم للمجتمع الإسلامي في ظل حاكم مسلم قوي هو أمل المسلمين جميعا في كل عصر ومصر. ويمكنك أن تستشف قوة وعمق إيمان الملك وحماسه للدعوة لدينه حين تقرأ هذا الجزء من خطبة له:

(أنا مبشر أدعو لدين الإسلام ولنشره بين الأقوام.

أنا داعية لعقيدة السلف الصالح، وعقيدة السلف الصالح هي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وما جاء من الخلفاء الراشدين، أما ما كان غير موجود فأرجع بشأنه إلى أقوال الأئمة الأربعة فآخذ منها ما فيه صلاح المسلمين.أنا مسلم وأحب جمع كلمة المسلمين، وليس أحب عندي من أن تجتمع كلمة المسلمين ولو على يد عبد حبشي، وأنني لا أتأخر عن تقديم نفسي وأسرتي ضحية في سبيل ذلك.

أنا عربي، أحب قومي والتآلف بينهم، وتوحيد كلمتهم، وأبذل في ذلك مجهوداتي، ولا أتأخر عن القيام بكل ما فيه المصلحة للعرب وما يوحد شتاتهم ويجمع كلمتهم).

الملك عبدالعزيز وبره بأبويه

لوانتقلنا إلى الحديث عن رحمة الملك عبدالعزيز بأبويه، فيذكر بأنه بر بهما بشبابه، وقد أورد الباحثون عدة روايات في بره بوالده، ولإظهار تلك الحقيقة كان أول مظاهر بره بوالده، عبدالرحمن تظهر في شجاعته للإقدام على تحرير الرياض من آل رشيد، بعد اضطرار والده للنزوح منها، ومعه باقي أفراد العائلة إلى الكويت. صحيح أن العائلة قوبلت بسماحة، ورحابة صدر بالكويت، على أساس أن الدعوة لهم أتت من جانب الحاكم وقتئذ، إلا أن الهجرة بعد فقدان المُلك، أمر صعب، ومرير، ومؤلم للنفوس. فالأرض عنصر أساسي للانتماء، والانتماء مصدر شعور بالاستقرار والكرامة الإنسانية، ومن هنا، فالبعد عنها قد يشعر صاحبها بفقدان شيء عزيز في حياته. هذا من جهة، ولكن من جهة أخرى فالهجرة من الأرض، تعني الافتراق عن الناس الذين تربطهم بمن هاجر، أواصر عميقة من الصداقة، إضافة إلى باقي الأهل. فكيف، إذن، لإنسان أن يعيش سعيدا، وقد فقد كل ذلك؟ بالنسبة لوالد عبدالعزيز، الذي عاش، وترعرع، وحكم في بلاده لوقت من حياته، فلم يكن من السهل أن يعيش في الخارج، في وقت ضياع لحقوقه. ومن هنا، تألم بشدة، ولكن دون أن يكف عن العمل لاستعادة حقوقه. فإذا كان من الصعب عليه القيام بذلك شخصيا، فالأمل بأولاده مع العون الإلهي. وبهذا، زرع في أولاده فكرة ضرورة الاستعادة لحقهم الضائع، وفي مثل تلك الظروف، استجاب ابنه عبدالعزيز لذلك، وتمكن من تخطي كل العقبات في مغامرة جريئة، لا يقوم بها إلا من تحلى بصفات البطولة سواء في الإطار الذهني الروحي أم في الإطار الأخلاقي. وقد قام بذلك بعد مراقبة للأجواء واغتنام فرصة بُعد ابن الرشيد عن الرياض لانشغاله في مناطق

أخرى· وطبعا، فتلك من مظاهر العظمة، فالعظيم هو الذي لا يقوم بمغامرة جريئة، إلا عندما، يدرك أن ضربته تتم في الوقت الصحيح· وبهذا الإطار، يقال بأن عبدالعزيز الذي صار ملكا فيما بعد، خرج بأربعين أو ستين رجلا من الكويت بسلاح بسيط، وبعض الزاد· وفيهم وُجِد الكثير من أفراد أسرته إضافة إلى خدمه· ومن بين هؤلاء شقيقه محمد بن عبدالرحمن إضافة إلى ابن عمه عبدالله بن جلوي· ويذكر أنه في أواخر عام ١٩٠١م توجهوا «عبر الإحساء نحو الجنوب إلى الربع الخالي· وفي الطريق اجتذب هذا الفصيل محاربين من قبائل العجمان وآل مرة وسبيع والسهول· وتحول الفصيل إلى قوات من عدة آلاف شخص· وأخذ عبدالعزيز يغزو بهذه القوات القبائل المعادية وقرى نجد التي ظلت موالية لآل رشيد· وبعد أحداث، تمكن عبدالعزيز وجيشه من احتلال الرياض في يناير – كانون الثاني – من عام ١٩٠٢م وأقسم سكان الرياض يمين الولاء له، في وقت بدأ فيه على الفور بتحصين أسوار تلك المدينة· ثم تلقى بعد ذلك إمدادات من الكويت، فتمكن الأمير الشاب وقتئذ من القيام بحملة على الجنوب واحتلال الخرج»· على أن والده عبدالرحمن أتى إلى الرياض في شهر أيار من ذلك العام· وبموجب الرواية التي ذكرها ألكسي فاسيلييف في مؤلفه «تاريخ العربية السعودية»، فقد ذكر عن وجود إجماع بين المؤرخين العرب إضافة إلى الأوروبيين على أن الأب والابن كانا على تفاهم تام· والتفاهم رمز للثقة بينهما، علما بأن تلك الثقة قد ساهمت في جلب الاستقرار للدولة الجديدة· فالأمير العجوز أي الأب كما يقول فاسيلييف كان يُقدر، على ما يبدو مواهب ابنه، ومساهمته في العمل الفعال، لدرجة أنه عندما قام الأمير الشاب بجمع علماء ووجهاء الرياض لأداء يمين الولاء لوالده، رفض عبدالرحمن هذا التكريم وأعلن أن ابنه هو الأمير، وصار عبدالعزيز حاكما للرياض وهو في

الثانية والعشرين· وظل أبوه مستشارا رئيسيا له وإماما للمسلمين». هنا تظهر أسمى المعاني، وأبلغ حالات التضحية بين أب وابنه·· فهذا الابن يضحي من أجل استعادة الرياض، وإعادة روح الحياة إلى أبيه الأمير والطمأنينة إلى قلبه، وهذا أب يتخلى عن الإمارة لابنه الذي أثبت كل صدق، وإخلاص، ومحبة، وبر به كابن، وبر بوطنه كبطل، ويصبح مستشارا له، يزوده بحكمة في بعض الأمور، ولكن مع ترك الحريات الكاملة له للتصرف بأمور أخرى بموجب رؤيته لها كشاب لامع فعبدالرحمن كان مدركا تمام الإدراك بأن للشباب نظرات تجديدية، قد يغفل عنها الكبار في السن، بحكم انخراطهم الواسع (أي الشباب) في الحياة، وتتبع أكيد لما فيها من مجريات· وبهذا الإطار، يمكننا أن نفهم، الرواية التالية عن العلاقة السياسية بين الأب وابنه: «اعتاد عبدالعزيز أن يطلع أباه على كل ما يريد توجيهه إلى حكام العرب أو الأجانب من الرسائل لمعرفة رأيه ولإحاطته علما بما فيها· ولكن أباه كان يردها مع الرسول كما هي·· قال لاحظت ذلك في إحدى زياراتي للإمام عبدالرحمن·· فقلت له·· إن عبدالعزيز أرسلها إليكم لترشدوه برأيكم إذا رأيتم فيها خطأ· فقال: عبدالعزيز موفق· خالفناه في آرائه كثيرا ولكن ظهر لنا بعد ذلك أنه هو المصيب ونحن المخطئون· إن نيته مع ربه طيبة لا يريد إلا الخير للبلاد وأهلها، فالله يوفقه ويأخذ بيه[1] و{إن تنصروا الله ينصركم}· إن هذه الرواية تبين، إضافة لما ذكر، رضا عبدالرحمن الكبير على ابنه، وهذا أمر هام· فلو عدنا إلى الآية (٢٣) من سورة الإسراء المذكورة سابقا، نرى أنه بعد الحث الإلهي على وجوب الالتزام بالتوحيد، جاء الأمر بالبر بالوالدين، مما يؤكد بأن ذلك يشكل دليلا على ضرورة اتباع التوحيد بصدق وأمانة· هذا مع العلم بأن الإنسان الأمين في

---

[1] من حياة الملك عبد العزيز للأستاذ / عبد العزيز محمد الأحيدب.

التوحيد شخص موفق في حياته وأعماله.. فالله تعالى لا يترك إنسانا مؤمنا إيمانا خالصا لوجهه من دون عون، وهداية. وكما قلنا مرارا، فعبدالعزيز وفق في تأسيس مملكة على دعائم قوية من النظام والعدل. وهنا نرى ثمرة من ثمار إيمانه وخلقه العظيم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بر الملك عبدالعزيز بوالده استمر حتى وفاة والده عبدالرحمن. فقد كان ركيزة أساسية له في عجزه وضعفه، وكان يحمله على أكتافه بفخر وسعادة، رافعا من شأن والده، بل ومن شأنه كابن كريم بأخلاقه، وروحه، ونفسه، أمام الجميع. فشكل بذلك مثلا للاحتذاء. أما والأمر كذلك، فيحسن بنا أن ندون الآن الرواية الواردة عنه بهذا الصدد من قبل الأحيدب: «قال صاحب (الحجاز مهبط الوحي) حدثني شيخ كبير من علماء مكة قال: لما استقرت الأمور للملك عبدالعزيز في الحجاز، حضر والده الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود من الرياض ليؤدي فريضة الحج. فدخل المسجد الحرام يطوف بالبيت العتيق ومعه ابنه الملك عبدالعزيز فاطف الوالد والولد، ولكن الأب كان قد جاوز المئة من العمر ضعيفا لا يقوى على المشي، والتعب قد أثر فيه فأدركه الإعياء. فهبط على الأرض بعد ثلاثة أشواط من الطواف. فما كان من ابنه الملك عبدالعزيز – الذي يمكنه أن يصدر الأوامر إلى خدمه وعبيده بأن يحملوه على أكف الراحات – ما كان منه إلا أن حمل والده على مرأى من الناس جميعا وأتم بقية الأشواط». إن هذا العمل مثير للإكبار في هذه النفس العظيمة، وإن مضمونه الروحي – الإنساني لأكبر دلالة على خلق الملك الرفيع. فهو يبرز أهمية القوة المعنوية. فهذا رجل امتلك كل الوسائل لحمل والده بحكم منصبه الكبير، ولكنه رمى كل المظاهر الدنيوية بعرض الحائط، وآثر الروح على ذلك، فحمل والده على كتفيه، لينجز واجبه

الروحي الأخلاقي، مطبقا بذلك قول الله عز وجل وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿الإسراء/٢٤﴾ فهنا علّمه الإيمان كيف يطيع الأوامر الدينية، نظرا بأنه لا يطيع الأوامر بهذا الإخلاص، إلا الشخص الرحيم. وذلك بدوره يشكل مظهرا من مظاهر القدرة على تحمل كل المسؤوليات، سواء شخصية أم إدارية. وفي كل أعماله تلك، فقد كان الملك عبدالعزيز يُعد الصرح لمكبر كريم يتوافق مع دعائه «رب أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر».

بره باخته نورة

وإضافة إلى بره بوالديه، فقد كان الملك عبدالعزيز على علاقة طيبة مع كل أهله. ويقال بأنه كان له أخت شقيقة، تسمى نورة، تشجعه في الحروب، وتقوي من عزيمته، بل ومن روح الأمل للظفر في القتال، حتى لو انتابه فشل بين آن وآخر، كما فعلت في حثه للإقدام بمغامرة الرياض بعد فشل أولي. وكان بموجب ما ورد عنه يقول: «أنا أخو نورة»، أنا أخو الأنوار.. ويقال بأنها كانت المرجع لحل المشاكل الداخلية في قصره بحيث كان يلجأ إليها لاستشارتها بصدد شؤون الأسرة، بل واعتاد أن يزورها في كل يوم. وقد توفيت في الوقت الذي كانت المملكة تستعد من أجل الاحتفال بالذكرى الذهبية لمرور خمسين عاما على فتح الرياض. على أن ذلك يبين بأن الملك كان يحرص على الاستفادة من أخته بحكمتها، وتجربتها في الحياة، وقوة شخصيتها، وأبدى كل احترام وتوقير لها ولقدراتها، معطيا لها المكانة الصحيحة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المرأة ركن أساسي في العائلة والمجتمع ككل، وكما يقول الحكيم بصدد عوامل الرقي الاجتماعي، فإن «اليوم الذي توجد فيه المرأة العظيمة التي تكرس

بعض همها·· (لتنشيط) الحركة الفكرية لهو اليوم الذي نقترب فيه من المدنية الحقيقية»·

بره بأسرته كلها

وفيما عدا عن برّ الملك عبدالعزيز بوالده وأخته، فيقال بأنه كان كثير البر بأسرته، بحيث كان يستفسر عن أحوالهم جميعا عن طريق مجالس يومية·· وفي وصف لبره هذا بعائلته، فقد ذكر ابنه فيصل ما يلي عنه «وليس لشفقة والدي وحنانه على أبنائه وأحفاده حدود· بل يغمرهم بعطفه في كل آنه وهو يحب أن يراهم يوميا خاصة صغارهم·· فيجتمعون بعد مغرب كل يوم في قصره، ويجلس إليهم فيلاطفهم واحدا واحدا».

وإضافة إلى رحمته بكل أبنائه وأحفاده، فقد اتسم بالحزم معهم بغية إقرار العدل، وبهذا الإطار، يقول الملك فيصل: «إن والدي في تربيته لنا يجمع بين الرحمة والشدة، ولا يفرق بيننا وبين أبناء شعبه، وليس للعدالة ميزانا يزن بأحدهما لأبنائه ويزن بالآخر لأبناء الشعب· فالكل سواء عنده والكل أبناؤه· وأذكر أن أحد أخوتي الأطفال اعتدى على آخر، فما كان من جلالته إلا أن عاقبه ولم يشفع له أنه ابن الملك»· إن وصف الملك فيصل هذا لأبيه يبين بأن الملك عبدالعزيز كان يعتبر كل أفراد شعبه كأبناء له، فالكل سواء من حيث النسب، أو النوع· ومن جراء ذلك، فقد اكتسب محبة شعبه كأب لهم· وهذا ما يفسر قول الملك فيصل عن أبيه في وصفه له: «وأما جلالته كأب·· فأستطيع أن أقول إن كل فرد في شعبه يعتبره أبا له·· لما عُرف عنه من عنايته بأبناء رعيته وعطفه الكبير وحنانه الواسع»·

وعند هذه النقطة يجب أن نذكر بأن أبوة الحاكم لشعبه، تشكل أحد مظاهر البطولة. فالكُتاب الذين يهتمون بالفكر البطولي يضعون هذه الظاهرة ضمن أهم صفات العظماء. والذي يقرأ فكر الكاتب الإيرلندي، توماس كارليل، في الأبطال والبطولة يجد تركيزا كبيرا منه على هذه الناحية الهامة، وقد لاقت اهتماما أيضا عند العالم النفسي الغربي فرويد، حيث تحدث عن رب الأسرة كأب، وربط أبوته تلك، في حالة كونه حاكما بأبوة الأمة، وبهذا، فقد اتخذت الأبوة مضمونا كبيرا.. أبوة بالنسبة.. وأبوة بالمعنى.. هذا، وإن الذي يمتلك القدرة لمد مفاهيم الأبوة الحقيقية، إلى شعبه، إنسان وحاكم عظيم فمثل هذا الحاكم يتمكن من خلال أبوته تلك، على جمع شمل الأمة من حوله وإفساح المجال لكل مظلوم بصدق، للتقدم بالشكوى إليه، والنظر في شكواه تلك، وإعادة حقوقه له وإنصافه. هذا وفي أقوال مختارة له من بعض خطبه وأحاديثه، يروى عنه أنه قال: «أنا قوي بالله تعالى ثم بإيماني ثم بشعبي، وشعبي كلهم كتاب الله في رقابهم، وسيوفهم بأيديهم، يناضلون ويكافحون في سبيل الله، ولست أدعى أنهم أقوياء بعددهم أو عدتهم، ولكنهم أقوياء إن شاء الله بإيمانهم». على أنه بالنسبة لدوره كأب معنوي يهتم بصالح بلاده، بل وبصلاح بلاد كل المسلمين، فقد ذُكر أيضا أنه قال: «إني والله لا أقبل على بلادي ولا على بلاد المسلمين ما يضر بهم، وإني أرى الشائب منهم كأبي والوسط كأخي والصغير كابني، وهذا ما أعاهد الله عليه ثم أعاهدكم عليه والحقيقة ظاهرة للعيان كالشمس».

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه من مظاهر أبوة الملك، إقدامه على إيواء كل مظلوم، أو محتاج تُسد في وجهه السبل، ويتعرض للأخطار. وبهذا المبدأ، فقد

آوى كل من يستحق الإيواء، دون التفات أو خوف مما قد يترتب على ذلك من نتائج، قد تضر به شخصياً. وقد عُرف عنه أنه كان يشمل من أعطاهم الحماية بعطفه، وإحسانه، وينزلهم في المنزلة اللائقة بهم. ويُروى عنه أنه منح الكثيرين منهم المناصب العالية بموجب اختصاصاتهم وقد عبروا عن امتنانهم له، ببذل كل ما يمكن، للإفادة للبلاد الخاضعة تحت حكمه. وبذلك كان راضيا عن نفسه وعن أبناء البشر من حوله، بل وعن كل شيء. ولا شك أنه كان حريصا على إبقاء روابط وثيقة بينه وبين شعبه من جهة وبينه وبين من يلجأ إليه من جهة أخرى. وقد كان يجد سعادة في هذا البر، لأن فيه نفعا لإخوانه في الدين والعروبة معا. وبذلك حبب الناس إليه، واكتسب ثقتهم به، فعمل لشبابه وكبره. لحياته وآخرته. ومن هنا، نرى مظاهر أخرى من مظاهر تدعيم دعائه (رب أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر ومن فتنة الدنيا وعذاب القبر) بالعمل النافع.

الملك عبدالعزيز في كُناه وألقابه

كان أحب الكُنى لعبدالعزيز· أن يقال له· أبو تركي (وهو ابنه البكر) يدعوه به رجال القبائل، وقد يسمون أبناءه الآخرين أيضا· وكلهم حبيب إليه· أثير عنده·

أما توجيه الخطاب إليه بطويل العمر·· فهذا يشاركه فيه الكثيرون في المملكة، عندما يتحدث أحدهم إلى الآخر· وكان أحب إليه من دعوته بعظمة السلطان أو جلالة الملك·

وتعريفه في الكتابة عنه أو الحديث· بابن سعود أو ابن السعود· لم يكن مما يرتاح إليه· مع أنه أشهر ما عُرف به من كُناه وألقابه في الشرق والغرب·

وإذا قيل في حاشية عبدالعزيز وبين رحاله حضر «الشيوخ» أو فعل الشيوخ كان هو المعني بذلك، حتى في أيام أبيه· لأن لأبيه لقبا آخر كان يُعرف به إلى آخر حياته· هو «الإمام».

ولقب الشيوخ شائع في جزيرة العرب· لكل ذي سلطان أو رياسة، يطلق عليه في ديرته وما يتبعها تمييزا له من غيره من شيوخ القبيلة أو رؤسائها، وقلما يجري لفظ «الشيوخ» هذا في مملكة عبدالعزيز· على ألسنة غير النجديين منهم·

وهناك اللقب الشرعي الخاص به لقب الخاص لقب «الإمامة» آل إليه بعد وفاة أبيه وكان أسلافه من عهد محمد بن سعود يُقرن اسم كل منهم بالإمام، كما هو معروف، وللإمامة في أعناق المسلمين حقوق في الطاعة والأحكام، وكان لقب الإمام منذ دُعي به عبدالعزيز· أحب ألقابه إليه·

ذلك ما كان يدعى به· من كنّاه وألقابه غير الرسمية·

أما الرسمية، مما خاطبته به الحكومات وبعثاتها- في مكاتباتها وعلى لسان ممثليها ووفودها وما ورد في صحفها وما كان يقترن به اسمه في المعاهدات الدولية وما يشبهها من عقود ورسائل ليست من الكتب الخاصة أو الشخصية- فأول ما عُرف به من الألقاب هو: أمير نجد ورئيس عشائرها-وانفرد الترك بالكتابة إليه، «والى نجد وقائدها عبدالعزيز باشا».

ولما عُقد مؤتمر الرياض سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢١م) وحضره علماء البلاد ورؤساؤها، تقرر أن يكون لقبه «السلطان» فكان ينعت بصاحب العظمة سلطان نجد-ولما ضُمت إمارة آل عائض (في تهامة عسير) وإمارة حائل في الشمال إلى سلطنة نجد سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م) سُميت بلاده، «سلطنة نجد وملحقاتها» وجعُل لقبه «عظمة سلطان نجد وملحقاتها».

وبعد دخوله جدة سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) اجتمع أعيانها وأعيان مكة وبايعوه «ملكا» على الحجاز فأصبح لقبه «جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها» وأُبلغت الدول الأجنبية ذلك فاعترفت به-وفي ٢٥ رجب ١٣٤٥هـ ١٩٢٧م) بايعه أهل نجد- في الرياض ملكا لنجد- فأصبح اللقب «جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها».

وفي ١٧ جمادى الأولى ١٣٥١هـ صدر المرسوم الملكي في الرياض بتوحيد أجزاء المملكة الحجازية والمملكة النجدية وملحقاتها- وتسميتها جميعها المملكة العربية السعودية ابتداء من يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى ١٣٥١هـ (٢٢ سبتمبر ١٩٣٢م) فأصبح لقبه الرسمى من هذا اليوم : «صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية».

بهذا دُعي عبدالعزيز بين رجاله وفي خاصته، ثم في مختلف أوضاعه السياسية وعلاقاته الخارجية رسميا.

وكان أكثر اعتزاز عبدالعزيز: «أنا ابن فيصل» وهو جده الأول، و«أنا ابن مُقرن» جده الأعلى. و«أنا أخو نورة» كبرى شقيقاته. ويُكنى عنها في حالات الغضب الشديد. فيقول: أنا أخو الأنور المعزيّ! (أي عبدالعزيز).

أسرة الملك عبدالعزيز

كان للملك عبدالعزيز في أواخر أعوامه، جمهور ضخم من نسله ونسل إخوته يمكن أن تتألف منه قبيلة كاملة، كما كانت تنمو القبائل في قديم العصور.

رأى حفدته وأبناء حفدته، ورأي من بعض بناته حفداء الأسباط، أي الجيل الرابع.وكان الأحياء من أبنائه لصلبه، يوم توفي، ستة وثلاثين ولدا وأُحصي أولاده وحفداؤه الذكور والإناث – عدا أبناء بناته – فبلغوا مئة وستين، وأُضيف إليهم أبناء بناته فتجاوزوا الثلاثمائة.

إخوته

١– فيصل بن عبرالرحمن: أكبر إخوة عبدالعزيز، توفي بالرياض في ذي الحجة ١٣١٧هـ (١٨٩٠م).

٢ – محمد عبدالرحمن: من أبطال آل سعود. ولد في الرياض بعد ولادة أخيه عبدالعزيز بستة أشهر وترعرع معه، ورافقه في تنقلاته وخاض معه المعارك إلى أن استقرت الأمور فاختار العزلة، وتوفي بالرياض في ٢٣ رجب ١٣٦٢هـ (٢٦ يوليو ١٩٤٣م).

٣ – سعود بن عبدالرحمن: شارك أخاه في كثير من الوقائع وتوفي سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م).

٤ – سعد بن عبدالرحمن: قتل في معركة (كنزان) مع العجمان سنة ١٣٣٣هـ (١٩١٥م).

٥ – عبدالله بن عبدالرحمن: عالم آل سعود، وأديبهم. كان كبير مستشاري أخيه عبدالعزيز.

٦ – سعد (الثاني) بن عبدالرحمن: سُمي على اسم أخيه سعد (الأول) وتوفي سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م).

٧ – أحمد بن عبدالرحمن: كان يقيم في الرياض ثم انتقل إلى جدة.

٨ – مساعد بن عبدالرحمن: أديب عالم بالشئون المالية· ولد سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) وتولى (ديوان المظالم) في أواخر عهد عبدالعزيز، ثم وزيرا للمالية والاقتصاد الوطني·

***

أبناؤه على ترتيب أعمارهم

١– تركي بن عبدالعزيز: بكر أولاد عبدالعزيز· وبه كان يكنى (أبو تركي) توفي سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م).

٢ – سعود بن عبدالعزيز: الملك الأسبق، ولد في الكويت سنة ١٣١٩هـ (١٩٠٢م).

٣ – فيصل بن عبدالعزيز: عاهل المملكة العربية السعودية الأسبق، ولد في الرياض ١٤ صفر ١٣٢٤هـ (٩ أبريل ١٩٠٦م).

٤ – محمد بن عبدالعزيز: ولد في الرياض ١٣٣٠هـ (١٩١٢م).

٥ – خالد بن عبدالعزيز: عاهل المملكة العربية الأسبق، ولد في الرياض ١٣٣١هـ (١٩١٣م).

٦ – ناصر بن عبدالعزيز: الحجاز مولده ١٣٣٧هـ (١٩١٩م).

٧ – سعد بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م).

٨ – فهد بن عبدالعزيز عاهل المملكة العربية الأسبق: ولد سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢١م).

٩ - منصور بن عبدالعزيز: ولد في الرياض ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، وتوفي ١٣٧٠هـ (١٩٥١م).

١٠ - عبدالله بن عبدالعزيز عاهل المملكة العربية الحالي: ولد سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م).

١١ - بندر بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م).

١٢ - سلطان بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م).

١٣ - مشعل بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م).

١٤ - مساعد بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م).

١٥ - عبدالمحسن بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م).

١٦ - مشاري بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م).

١٧ - متعب بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م).

١٨ - طلال بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م).

١٩ - عبدالرحمن بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م).

٢٠ - بدر بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م).

٢١ - تركي بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م).

٢٢ - نواف بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م).

٢٣ - نايف بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م).

٢٤ - فواز بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٤م).

٢٥ - سلمان بن عبد العزيز : ولد سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).

٢٦ - ماجد بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).

٢٧ - عبدالإله بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م).

٢٨ - أحمد بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م).

٢٩ - سطام بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م).

٣٠ - ثامر بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م).

٣١ - ممدوح بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٦٠هـ (١٩٤١م).

٣٢ - مشهور بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٦٠هـ (١٩٤١م).

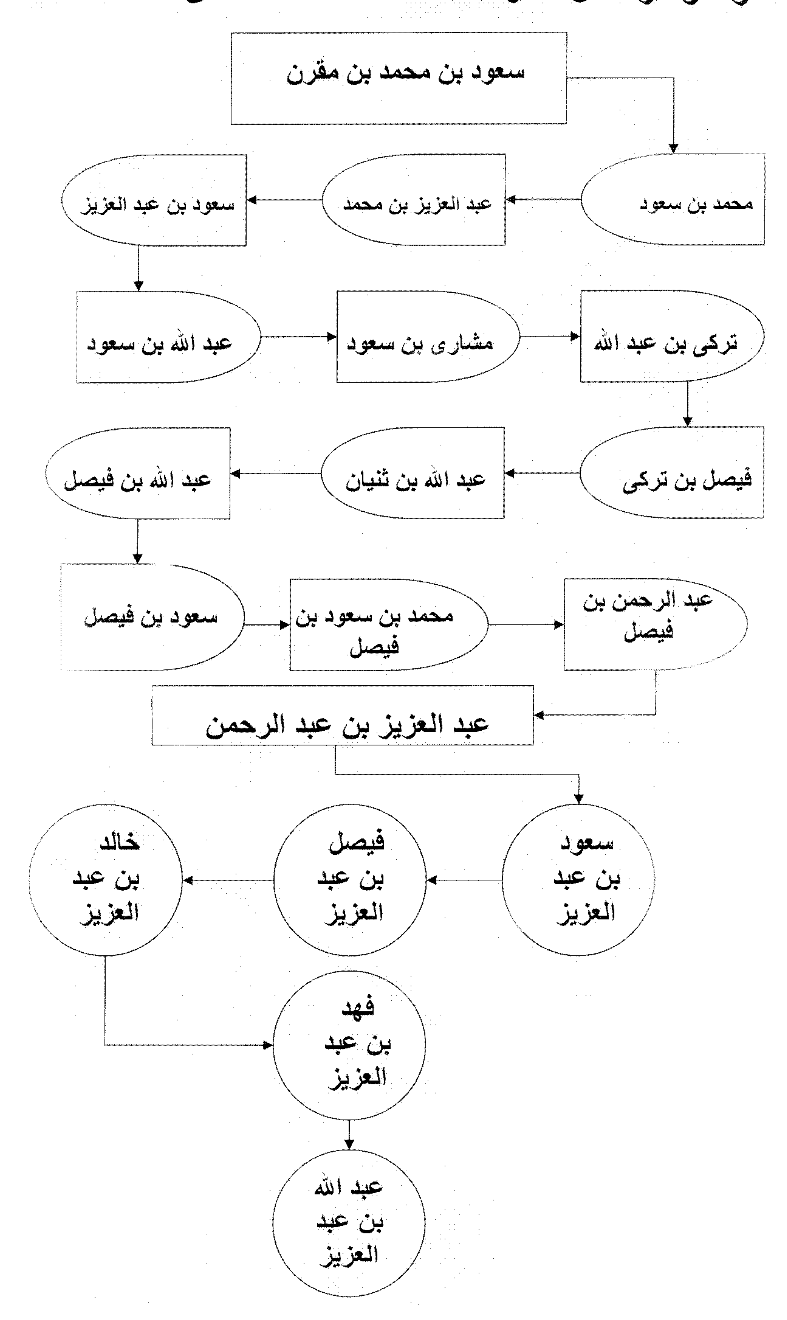
٣٣ - هذلول بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٦٠هـ (١٩٤١م).

٣٤ - عبدالمجيد بن عبدالعزيز : ولد سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م).

٣٥ - مقرن بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م).

٣٦ - حمود بن عبدالعزيز: ولد سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م).

ملوك وأمراء آل سعود منذ سنة ١١٠٠ هـ إلى الوقت الحاضر



من رجال الملك عبدالعزيز

مستشارون، وسفراء ومفوضون:

- الأمير عبدالله بن عبدالرحمن: مستشاره الدائمأحمد بن ثنيان: مستشار· كان الملك ينتدبه في بدء نشوء الدولة لمهمات في الخارج· توفي بالرياض سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٣م·
- الدكتور عبدالله الدملوجي: مستشار· وأول وكيل للخارجية·
- يوسف ياسين: وزير دولة، وسكرتير خاص للملك توفي في الدمام سنة ١٣٨١هـ (١٩٦٢م)·
- عبدالله بن محمد الفضل: مستشار في الحجاز، فمعاون لسمو النائب العام، فنائب لرئيس مجلس الشورى· توفي بالقاهرة سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٩م).
- فؤاد حمزة: وكيل الخارجية فوزير دولة، فمستشار، فوزير مفوض· توفي في بيروت سنة ١٣٧١هـ (١٩٥١م)·
- خالد أبو الوليد القرقني: مستشار ملكي· اعتزل العمل بعد فترة قصيرة من وفاة الملك عبدالعزيز·
- بشير السعداوي: مستشار ملكي· استقال وانصرف إلى قضية بلاده (ليبيا) توفي ببيروت سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م)·
- حافظ وهبة: وزير مفوض، فسفير في لندن، أحيل إلى التقاعد، وتوفي في روما سنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م)·
- فوزان السابق: وزير مفوض بمصر، أحيل إلى التقاعد، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م)·

- خير الدين الزركلي: وزير مفوض ومندوب دائم لدى جامعة الدول العربية، ثم سفير في المغرب، فسفير بوزارة الخارجية.
- أسعد الفقيه: وزير مفوض ببغداد، ثم بواشنطن وأُعفي.عبدالله إبراهيم الفضل: ويزر مفوض بمصر. توفي سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م).
- عبدالعزيز بن زيد: وزير مفوض فسفير بسوريا ولبنان. توفي ببيروت سنة ١٣٧٩هـ (١٩٥٠م).
- إبراهيم بن معمر: وزير مفوض ببغداد. نقل منها قائم مقام لجدة. ، فأمام فيها إلى أن توفي.
- يوسف الفوزان: قنصل عام في بومباي، فسفير في طهران.
- محمد عيد الرواف: وزير مفوض ببغداد، أعفي من العمل وتوفي في دمشق.
- عبدالله الخيال: وزير مفوض ببغداد، ثم بواشنطن، أحيل إلى التقاعد.
- الدكتور مدحت شيخ الأرض: طبيب خاص للملك، فسفير في مدريد، فبرن، فباريس.
- عبدالعزيز الكحيمي: قنصل في القدس، فوزير مفوض بعمان، فسفير ببيروت، ثم ببغداد، وتوفي بها.
- توفيق حمزة: وزير مفوض في أنقرة. أحيل إلى التقاعد.عبدالحميد الخطيب: وزير مفوض في باكستان، أعفي لمرضه، وتوفي بدمشق.
- حمزة غوث: وزير مفوض في إيران، أحيل إلى التقاعد.
- فؤاد الخطيب: وزير مفوض في أفغانستان، توفي بكابل سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م).

- **الدكتور رشاد فرعون: طبيب خاص للملك، فوزير مفوض في مدريد، فباريس، فوزير للصحة، فسفير في باريس، فمستشار خاص للملك في الرياض.**
- **موفق الألوسي: وزير مفوض فى روما. أحيل إلى التقاعد.**
- **فخري شيخ الأرض: قنصل فى البصرة، فوزير مفوض في أندونيسيا، ثم في النمسا، ثم سفير في المغرب.**
- **محمد بن عبدالرحمن العبيكان: وزير مفوض بصنعاء، ثم في الخرطوم وأحيل إلى التقاعد سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م).**

الشورى فى عهد
الملك عبد العزيز

الدعوة إلى الإسلام من مكة المكرمة

فى عام ٦٢٢م بدأ محمد بن عبد الله ﷺ من بطاح مكة المكرمة يدعو إلى الإسلام ديناً ويمحمد نبياً ورسولاً من عند الله سبحانه وتعالى.

ومنذ هذا التاريخ طرح الدين الإسلامى الأقوم على العالم رؤية سياسية جديدة تتعلق مباشرة بتنظيم نظام الحكم وإدارة شئون الدولة الإسلامية التى يجب أن تقوم على التقوى والشورى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولقد خلف الرسول ﷺ فى إدارة شئون المسلمين أربعة خلفاء راشدين هم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب.

ومنذ بداية الدعوة الغراء فى عام ٦٢٢م حتى نهاية حكم الخلفاء الراشدين الأربعة فى عام ٤١ هـ = ٦٦١م كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة تمثل القوة السياسية الكبرى فى العالم.

ولكن بعد أن انتهى حكم الخلفاء الراشدين الأربعة وآل الحكم إلى معاوية ابن أبى سفيان الذى أنشأ الدولة الأموية فى دمشق فى عام ٤١ هـ = ٦٦١م بدأ الحجاز يتنازل عن الزعامة السياسية إلى بلاد الشام. ثم امتد تنازل الحجاز عن الزعامة السياسية إلى بلاد الرافدين (العراق) حيث استطاع العباسيون أن يجهزوا على حكم الأمويين فى بلاد الشام فى عام ١٣٢ هـ = ٧٤٩م وينقلوا حضارة الإسلام إلى بغداد العراق[1].

---

(1) د. حسين مؤنس. أطلس العالم العربى الإسلامى.

الموقع الاستراتيجى للمملكة:

تقع المملكة العربية السعودية فى جنوب غربى آسيا، ويحدها من الشمال الأردن والعراق والكويت، ومن الشرق الخليج العربى وإيران وقطر والإمارات العربية المتحدة وعمان، ومن الجنوب عمان وجمهورية اليمن الديقمراطية الشعبية، ومن الجنوب الغربى الجمهورية العربية اليمنية، ومن الغرب البحر الأحمر وخليج العقبة.

ولاشك أن هذا الموقع الاستراتيجى الذى تقع فيه المملكة، بالإضافة إلى وجود بيت الله الحرام ومسجد الرسول ﷺ على أراضيها، وكذلك توافر البترول بكميات تفوق أى دولة فى العالم.

كل هذه الأسباب جعلت للمملكة أهمية استراتيجية لا تضاهيها فيها أى دولة فى الدنيا. ولاشك أن هذه الامتيازات الروحية والطبيعية والاستراتيجية منحت المملكة زعامة تشبه الزعامات التى ينفرد بها العظماء من قادة التاريخ. ففى المملكة العربية السعودية البيت الحرام (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) ﴿آل عمران/٩٦ – ٩٧﴾. **رفع إبراهيم قواعده. وإبراهيم. أبو الأنبياء، فكل من يدين بدين سماوى، يعرف لهذا البيت مكانه من الاحترام والتقدير.**

وفى بطاح مكة المكرمة ظهر الرسول العربى محمد ﷺ داعية السماء ونبى الإسلام. نشأ فى ظلال "البيت الحرام" ليملأ نفسه دائماً مما يفيض به هذا البيت ثوباً جديداً من التشريف والتكريم، يمكن له فى القلوب، ويكثر حوله من الأنصار، ويحقق له دعوة إبراهيم(رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) ﴿إبراهيم/٣٧﴾.

ومحمد ﷺ ملتقى أفئدة العرب جميعاً، لأنه عربى..

ومحمد ﷺ قبلة أنظار المسلمين جميعاً، لأنه نبى الإسلام[1].

---

[1] عبد الله العلى المنصور الزامل، أصدق البنود فى تاريخ عبد العزيز آل سعود.

والمملكة العربية السعودية هى مملكة أحد الخلفاء النابهين فى أسرة آل سعود جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل، الذى قام فى ٥ شوال ١٣١٩هـ = ١٥ يناير ١٩٠٢م ليحرر الجزيرة العربية ويعيد إليها أمنها وطمأنينتها اللذين عرفتهما فى العهد الأول للإسلام، ويؤمن لحجاج بيت الله الحرام أموالهم ودماءهم، وتصبح الجزيرة العربية مضرب المثل فى الأمن والاستقرار، كما استطاع الملك عبد العزيز رحمه الله أن يؤمن بلاده ويجنبها شرور حربين كونيتين تلتهما مطامع استعمارية استطاعت أن تحتل الكثير من الدول العربية.

ولقد نجح الملك عبد العزيز نجاحاً بعيداً فى تأسيس نظام الحكم فى مملكته على مبادئ الدين الإسلامى الأقوم، كما استطاع أن يطبق مبادئ الشورى الإسلامية التى قادت بلاده نحو العدالة والأمن والتنمية والبناء.

ولقد قام خلفاؤه أبناؤه سعود وفيصل وخالد وفهد وعبد الله من بعده مقتفين أثر والدهم فى تحكيم الشريعة الإسلامية وإرساء قواعد الحكم على مبادئ الشورى الإسلامية.

وفى ٢٧ شعبان ١٤١٢هـ = آذار (مارس) ١٩٩٢م أحدث خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز تطوراً كبيراً فى نظام الحكم بالمملكة العربية السعودية حيث أصدر النظام الأساسى للحكم، وكذلك أعاد إصدار نظام للشورى من خلال صياغة عصرية تنمشى مع التطورات المتنامية التى تعيشها المملكة، كما تضمنت مجموعة الأنظمة الجديدة- التى أصدرها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد لتحديث الحكم فى المملكة- صدور نظام المناطق الذى أعطى لأمراء المناطق صلاحيات واسعة فى سرعة إصدار القرارات بما يسهل مهمة هذه المناطق فى الإدارة والتنفيذ..

السلطات الثلاث

فى الفكر السياسى الإسلامى

بالرغم من التطورات الإيديولوجية التى طرأت على الفكر السياسى المعاصر من حيث وظائف الدولة الثلاث، فإن التمييز بين وظائف الدولة الثلاث، تشريعية وتنفيذية وقضائية، مايزال محتفظاً بقيمته. ففى جميع الدول، أياً كانت الوظائف المنوطة بالحكومة، تتجسد ممارسة السيادة فى ثلاثة مظاهر متميزة هى:

١ – إصدار قواعد عامة للجماعة، ويطلق على ذلك عبارة التشريع، وتلك مهمة السلطة التشريعية.

٢ – المحافظ على النظام العام فى الدولة وتقديم الخدمات للمواطنين فى ظل تلك القواعد العامة، وهذه مهمة السلطة التنفيذية.

٣ – حل المنازعات سلمياً بين المواطنين عن طريق قضاء مستقل، وهذه مهمة السلطة القضائية.

وإذا كانت البرلمانات – أياً كانت تسميتها – تقوم بالدور الأساسى فى إعداد التشريعات، فإن رئيس الدولة يشارك فى إعداد ووضع التشريعات، بدرجة تتفاوت طبقاً للأسس التى يقوم عليها نظام الدولة بل وقد ينفرد بالتشريع لسبب أو لآخر[(١)].

وإذا كنا نود أن نبحث عن السلطات الثلاث فى النظام السياسى الإسلامى فإنه فى حياة الرسولﷺ، لا يمكن التحدث عن سلطات ثلاث متميزة، فالرسول كان المشرع والمنفذ، والقاضى. على أنه إذا أمكن اعتبار التنفيذ والقضاء عملاً شخصياً للرسول، فإن ذلك ليس الشأن بالنسبة إلى التشريع.

[(١)] د. سليمان الطماوى. السلطات الثلاث فى الدساتير العربية المعاصرة وفى الفكر السياسى الإسلامى "دراسة ومقارنة".

والذى لاشك فيه أن الرسول ﷺ قد استمد حقه فى التشريع من الله سبحانه وتعالى. وآيات القرآن فى ذلك قاطعة الدلالة وكثيرة، منها، «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» (الأية ٧ من سورة الحشر). «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» (الآية ٥٩ من سورة النساء) «مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» (الآية ٨٠ من سورة النساء) «فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (الآية ٦٥ من سورة النساء) «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ» (الآية ٦٩ من سورة النساء)... إلخ.

وهكذا انحصر التشريع – فى هذه الحقبة الأولى من حياة الدولة الإسلامية – فى الرسول ﷺ، إما تبليغاً مباشراً عن ربه (القرآن) أو بطريق غير مباشر (السُنة).

ولكن ما أن انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى ظهرت مشكلة التشريع لاختفاء مصدر التشريع الذى كان يلجأ إليه المسلمون. ولكن حداثة التشريع الإسلامى من ناحية، وقرب عهد الصحابة برسول الله من ناحية أخرى، قللت من أهمية المشلكة فى عهد الخلفاء الراشدين، فكانوا يحلونها بالاجتماع إلى العلماء واستشارتهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به.

على أن اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وتفرق العلماء فى أقطار الدولة الإسلامية الفسيحة، وظهور مسائل جديدة لم تكن مألوفة فى عهد الخلفاء الراشدين، لتقدم العمران واتصال العرب بغيرهم من الشعوب التى سبقتهم فى الحضارة.. كل ذلك تطلب أن يقوم التشريع الإسلامى على أسس ثابتة، فنشأ علم أصول الفقه فى القرن الثانى الهجرى، بحيث أصبحت مصادر التشريع الإسلامى تنحصر فى:

أولاً : المصادر المجمع عليها وهى أربعة:

١ – القرآن الكريم: وهو كتاب الله الغنى عن التعريف.

٢ – السُنة: وهى ما صدر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

٣ – الإجماع: وهو اتفاق جملة المجتهدين من الفقهاء المسلمين فى عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع أو مسألة من المسائل.

٤ – القياس: وهو إلحاق أمر لم ينص على حكمه فى الكتاب أو السُنة أو الإجماع بأمر نص عليه فى أحدها لاشتراكهما فى علة الحكم.

وهذه المصادر مرتبة فى قوتها وفقاً للترتيب السابق، أى: الكتاب. فالسُنة، فالإجماع، فالقياس[1].

ثالثاً: المصادر المختلف عليها، وهى:

١ – الاستحسان: وهو العدول فى مسألة من المسائل عن حكم نظيرها إلى حكم آخر، استناداً إلى دليل أقوى.

٢ – المصالح المرسلة: ويراد بها كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو إلى اعتبارها أو عدم اعتبارها، وفى اعتبارها مع هذا جلب نفع أو دفع ضرر، بشرط ألا تعارض مقصداً من مقاصد الشريعة، ولا دليلاً من أدلتها المعروفة، وأن تكون مصلحة حقيقية للمجتمع، أو على الأقل يكون فيها تحصيل نفع أو درء ضرر حقيقى.

٣ – العرف: وهو ما اعتاده الناس وألفوه من فعل شاع بينهم أو لفظ تعارفوا إطلاقه على معنى خاص بحيث لا يتبادر عند سماعه غيره. ولا يحتج بالعرف، إذا كان مخالفاً لأصل شرعى، ولكنه يؤخذ فى الاعتبار إذا لم يكن مخالفاً للأصول الشرعية المعروفة، وأكثر ما تكون تطبيقات العرف فى المجال التجارى.

٤ – شرع من قبلنا: ويقصد به الأحكام التى شرعها الله تعالى للأمم السابقة بواسطة أنبيائه الذين أرسلهم إلى تلك الأمم، والتى لم تنسخها شريعة الإسلام.

---

[1] د. سليمان الطماوى، المرجع السابق، ص ٣٢٧ – ٣٢٨.

٥ – قول الصحابى: وهو من لازم النبى ﷺ زمناً طويلاً، وذلك كالخلفاء الراشدين. وزوجات الرسول، وكبار أصحابه مثل أبى هريرة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس.. إلخ. فقد كانت لهم آراء وفتاوى كثيرة فى أمور المسلمين.

٦ – الاستصحاب: ويقصد به الحكم بثبوت أمر فى الزمن الحاضر، بناء على ثبوته فى الزمن الماضى، حتى يقوم الدليل على تغييره، وخير مثال لذلك قاعدة أن الأصل فى الأشياء الإباحة حتى يقوم الدليل العكسى، وبراءة الذمة حتى يثبت العكس[١].

ولو أننا تركنا ما يثار حول هذه المصادر من خلاف، ونظرنا إليها فى مجموعها، لوجدنا أن مصادر الشريعة يمكن ردها إلى ثلاثة وهى: القرآن والسُنة، والرأى[٢]، وجرياً وراء الغاية التى نستهدفها من هذا الفصل من الكتاب فإننا نرى أن هذه المصادر درجتان: القرآن والسُنة، ثم الرأى. وقياساً على تعريفات العصر، فإننا يمكن أن نعتبر القرآن والسُنة بمثابة التشريعات الدستورية وهما فى الحقيقة أقوى، أما المبادئ التى تستقى من غيرهما من المصادر (والتى تجمع تحت تسمية الرأى) فإنها بمثابة التشريعات العادية[٣].

* * *

وفى ضوء ما سبق، فإن السلطة التشريعية «التنظيمية» يمكن أن ترى الكثير من وظائفها فى مفهوم الشورى الإسلامية التى يضطلع بممارستها، فى هذا العصر، الأعضاء العاملون فى مجالس الشورى.

---

[١] د. سليمان الطماوى، المرجع السابق. ص ٣٢٩.

[٢] نفس المرجع.

[٣] د. عبد الحميد متولى، مبادئ نظام الحكم فى الإسلام.

الشورى وتعريفها

يعود تاريخ الشورى لغوياً إلى أنها اسم من المشاورة. وتشاور الجمع.. أى استخرجوا ما عندهم من رأى[1].

أما تعريفها الاصطلاحى فقد جاء فى عدة صور، حيث عرف الأصفهانى الشورى بأنها: استخراج الرأى لمراجعة البعض للبعض[2]. وعرفها ابن العربى بأنها: الاجتماع على الأمر ليستشير كل واحد صاحبه ويستخرج ما عنده[3].

ولقد كان الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده يستشيرون عامة الناس فى الأمور المتعلقة بهم. كما كانوا يستشيرون أهل الرأى والخبرة فى بعض المسائل الخاصة. كما كانوا يستشيرون كبار القوم الذين يمثلون جماعاتهم فى أمور أخرى. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «ما رأيت أحداً أكثر مشورة من رسول الله ﷺ» ومن أحاديث الرسول ﷺ القولية: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد»، «ما تشاور قوم قط إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم»، وعن الحسن قال: كان النبى ﷺ يستشير حتى المرأة فتشير عليه بالشىء فيأخذ به.

وهذا يعنى أن الشريعة هى حكم الله، والشورى هى رأى الأمة، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ» **(آية ٥٩ النساء).**

والخلاصة، أن تعريفنا للشورى هو أنها رأى الأمة أو من ينوب عنها من أهل الحل والعقد فى كل ما يتعلق بشئون الأمة وهمومها بغية تحديد المصلحة العامة والتوجيه شرعاً بإقرارها.

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ٢ ص ٤٠ (القاهرة: مجمع اللغة العربية. ١٩٧٠). صـ ٧٠.

(٢) أبو الثناء الألوسى: روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى.

(٣) أبوبكر بن العربى: أحكام القرآن (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧) جـ١ ص ٢٩٧.

الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية

لو نظرنا إلى الشورى الإسلامية بالمقارنة بالنظم الديمقراطية التقليدية، لوجدنا أن النصوص المقررة لها – كما سبق تفصيله – جاءت عامة بحيث تصلح للتطبيق فى كل زمان ومكان، وتستوعب كل ما تجود به قرائح الفكر السياسى مادام يتمشى مع الشريعة الإسلامية نصاً وروحاً ولا يجافيها ويخرج عليها.

إن التطبيقات العملية للشورى فى العهود الراشدة وما اقترب منها قد استوعبت معظم صور الديمقراطية السياسية المعاصرة. فالديمقراطية المباشرة نجد لها تطبيقاً فى اختيار الخليفة الأول أبى بكر الصديق ﷺ. فبعد المناقشات التى دارت فى سقيفة بنى ساعدة اجتمع مسلمو المدينة فى المسجد الجامع وبايعوا أبا بكر ﷺ خليفة لرسول الله ﷺ فى رئاسة الدولة – دون سلطان النبوة – وكانت هذه هى البيعة العامة.

وفيما يختص بالتشريع فإن الوحى قد انقطع بوفاة الرسول ﷺ واختفى مصدر التشريع الذى كان يلجأ إليه المسلمون، ولكن كان الخليفة الأول إذا جد أمر نظر فى كتاب الله فإن لم يجد له فيه حكماً نظر فى سُنة رسول الله ﷺ فإن لم يجد فيما حفظه ووعاه منها حكماً سأل الناس إن كانوا قد حفظوا عن رسول الله ﷺ شيئاً فى الواقعة، وكذلك يفعل سائر الخلفاء الراشدين. وكان اجتماع المسلمين فى المسجد الجامع الذى هو بمثابة برلمانات اليوم يحضره الرجال والنساء على السواء، ولكل فرد أن يدلى برأيه. وكان انعقاد هذا البرلمان يتم بموجب دعوة عامة هى الأذان. وسند هذه الصورة أيضاً عمومية النص القرآنى – كما سبق القول – وأيضاً قول الرسول ﷺ لعلى بن أبى طالب ﷺ عندما سأله عن الأمر ينزل ليس فيه قرآن ولا سُنة: «اجمعوا له العالمين (أو العابدين) من أمتى واجعلوه شورى بينكم ولا تقضوه برأى رجل واحد»[1].

---

[1] د. سليمان الطماوى، مرجع سابق، صـ ٢١٣.

وتمتاز الشورى الإسلامية بتطبيقاتها المباشرة عن الديمقراطية المباشرة فى أن القضايا التى عرضت على الشعب لمناقشتها عنيت بالدراسة والتمحيص والمناقشة الجادة المثمرة. كما حدث فى اختيار أبى بكر. وكما حدث عندما عزم أبو بكر على قتال مانعى الزكاة... أما فى الديمقراطية المباشرة فإن القوانين التى تعرض على اجتماع الشعب، يتطلب أخذ الرأى عليها جملة بالموافقة أو الرفض دون إدخال أى تعديل عليها. كما أن الديمقراطية المباشرة تسند جميع السلطات إلى جمعية الشعب، وقد وجه النقد إلى هذا على أساس أنه يستحيل عملاً أن يقوم الشعب بنفسه بكل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. ولكن النظام الإسلامى فى صورته المباشرة غير هذا، فقد كان هناك الخليفة رئيس الدولة وأهل الشورى وبعض من أوكل إليهم القضاء.

الإسلام يتصدر الدساتير العصرية

برغم أن الإسلام قد بدأ يضع أسس تكوين نظام الحكم الإسلامى قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، إلا أنه – مع ذلك – مازال يحتفظ بخصائصه الأبدية الصالحة لكل زمان ومكان.

وقد ظلت صفة الديمومة والأبدية تلازم مبادئ الدين الإسلامى حتى العصر الحديث، وهو العصر الذى عرف بعصر سيادة القانون ومبادئ حقوق الإنسان.

ولقد استطاعت المزايا التى يتمتع بها نظام الحكم فى الإسلام أن تفرض نفسها على كثير من دساتير الدول العصرية، ولاسيما فى المنطقة العربية حيث يندر أن تجد دستوراً لم يشر إلى أن الإسلام هو دين الدولة أو أن الإسلام هو مصدر التشريع فى الدولة.

مراحل تطبيق الشورى
فى عهد الملك عبد العزيز

دخل الملك عبد العزيز فى جمادى الأولى ١٣٤٣هـ = كانون الأول ١٩٤٢م مكة المكرمة وهو فى ثياب الإحرام ولم تعترض سبيله أى مقاومة تذكر. أتاح السلطان عبد العزيز ذلوله وركب حصاناً، ونزل تتبعه حاشيته إلى قلب المدينة، فترجلوا عندما قربوا من المسعى، ومشوا إلى الحرم. فدخلوه من باب السلام وطافوا وصلوا وسعوا تلك الليلة. ثم عادوا إلى المخيم فى المعابدة.

وبعد خمسة أيام من دخول الملك عبد العزيز مكة المكرمة، أى فى ١٢ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ ألقى على أهالى مكة المكرمة أول بلاغ سياسى هام، تصدرت الشورى الإسلامية أهم بنوده، ومما جاء فى الخطاب[1]:

لمن فى مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحاضر منهم والبادى.

نحمد الله الذى لا إله إلا هو رب هذا البيت العتيق، ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائه محمد ﷺ.

أما بعد. فلم يقدمنا من ديارنا إليكم، إلا الانتصار لدين الله الذى انتهكت محارمه والدفع لشرور كان يكيدها لنا ولديارنا من استبد بالأمر فيكم وفينا. وقد شرحت لكم غايتنا هذه من قبل، وها نحن أولاً، بعد أن بلغنا حرم الله، نوضح لكم الخطة التى سنسير عليها فى هذه الديار المقدسة لتكون معلومة عند الجميع، فنقول:

١ – سنجعل الأمر فى هذه البلاد المقدسة بعد هذا شورى بين المسلمين، وقد أبرقنا لكافة المسلمين فى سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامى عام يقرر شكل الحكومة التى يرونها صالحة لإنقاذ أحكام الله فى هذه البلاد المطهرة.

٢ – إن مصدر التشريع والأحكام لا يكون إلا من كتاب الله، ومما جاء عن رسول الله ﷺ، أو ما أقره المسلمون الأعلام بطريق القياس، أو أجمعوا عليه

[1] جريدة أم القرى، ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ.

مما ليس فى كتاب ولا سُنة. فلا يحل فى هذه الديار غير ما أحله الله. ولا يحرم فيها غير ما حرمه.

٣ – كل من كان من العلماء فى هذه الديار من موظفى الحرم الشريف أو المطوفين ذا راتب معين، فهو له على ما كان عليه من قبل، إن لم نزده فلا ننقصه شيئاً، إلا رجل أقام عليه الحُجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه فذلك ممنوع مما كان له من قبل، وكذلك من كان له حق ثابت فى بيت مال المسلمين أعطيناه ولم ننقصه شيئاً.

لا كبير عندي إلا الضعيف حتي آخذ له الحق. ولا ضعيف عندي إلا الظالم حتي آخذ منه الحق. وليس عندي في إقامة حدود الله هوادة، ولا أقبل فيها شفاعة، ولا يلومن الظالم إلا نفسه، والله علي ما نقول وكيل وشهيد، وصلي الله علي سيدنا محمد النبي الأمي وعلي آله وصحبه وسلم.

في ١٢ جمادي الأولي ١٣٤٣هـ

عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل

آل سعود

وبعد أن صدر أول بيان رسمي يتضمن الثوابت التي تقوم عليها سياسة الحكم طلب بعض علماء البلد الحرام وأعيانه من عظمة السلطان أن يجعل لهم يوماً من الأسبوع يجتمعون فيه معه. فضرب لذلك موعداً بعد صلاة عصر الجمعة من كل أسبوع في منزل آل باناجة بمكة المكرمة.

ولما حان الوقت المعين في الجمعة التالية، حضر العلماء والأعيان إلي منزل آل باناجة حيث كان عظمة السلطان ينتظرهم فيه يتقدمهم شيخ بني شيبة الشيخ عبدالقادر الشيبي وكثير من العلماء ووجوه المدينة. ولما استقر بهم المجلس أقبل عليهم عظمة السلطان وقال ما خلاصته: «إنني أشتاق للاجتماع بكم في كل وقت وحين، وأحب أن أتحدث معكم كثيراً بما تحبون وأني أقدر الأتعاب التي تقاسونها ويقاسيها عموم الأهالي بمناسبة انقطاع ورود الأرزاق والأقوات عن طريق جدة. وما جدة بالعسير علينا دخولها بحول الله

وقوته، ولكن الذي أسعي إليه أن يتم انضمامها لهذه الديار بغيد إراقة دماء واتلاف الأنفس.

وقد كتب الشريف علي يطلب الصلح، وتوسط في ذلك بعض من ليس لهم علاقة في هذه الديار المقدسة من غير المسلمين.

أما أنا فقد أجبته بأن الأمر معلق علي مشيئة العالم الإسلامي، وأن عليه أن يترك جدة ويفسح الطريق لوفود المسلمين ليجتمعوا في البلد الحرام، وينتخبوا من يرون فيه اللباقة والجدارة لإدارة شؤون هذه البلاد المطهرة. وإني آسف أشد الأسف وأتألم أشد الألم لحالتكم أنتم، أهل هذا البيت من انقطاع الأقوات عنكم من جدة.

أما نحن أهل نجد، فلا يهمنا هذا ولا يؤثر علينا شيئاً. فقد تعودنا الصبر والجوع، وعندنا من وسائط النقل ما يسهل لنا طول الإقامة بغير تعب ولا نصب وما شفقتى إلا عليكم..

إنى رغبت الاجتماع بكم لتبلغونى ما تشاؤون، فقد تعاقدنا على المناصحة، فإن كان لأحدكم حاجة فليقلها وليطلبها.

إننى لست من الملوك المتكبرين، وإن بابى مفتوح على مصراعيه لسماع نصيحة كل ناصح، فلا تؤخروا نصائحكم عنا.. فمن شاء منكم فليشافهنا بما يريد.. ومن شاء فليكتب لنا حاجته لننظر فيها».

وفي الجمعة التالية قرر الملك عبدالعزيز أن يبدأ عملياً أولي خطوات تنفيذ مبادئ نظام الشوري الإسلامي فقال في أعيان مكة ووجهائها:

«إنني كثير الاهتمام براحتكم، وأفكر دائماً في الطرق التي تمكنني من خدمتكم الخدمة الحقيقية، والتي تؤَّمن لكم ولعموم أهل البلد المطهر الراحة والاطمئنان. وإن كثرة مشاغلي بتنظيم الأمور في هذه الديار وفي غيرها من بلداننا، تجعل وقتي يقصر عن سماع شكاوي كل فرد منكم ومعرفة حاجاته ولاشك أن بلداً كهذا البلد الكبير الواسع يحتاج لكثير من الأمور والأحوال ولا يمكنني الوقوف عليها بنفسي منفرداً. ولا أريد أستأثر بالأمر في بلادكم دونكم

وإنما أريد مشورتكم في جميع الأمور. تقول العرب: «إن الرجال ثلاثة: رجل ونصف رجل، ولا رجل..

أما الرجل: فهو الذي عنده رأي ويستشير الناس في أموره.

ونصف الرجل : من ليس عنده رأي ويستشير الناس.

وليس بالرجل من ليس عنده رأي ولا يستشير الناس.

وإن دياراً كدياركم تحتاج لاهتمام زائد في إدارة شؤونها. وعندنا مثل يعرفه الناس جميعاً وهو «أن أهل مكة أدري بشعابها».

فأنتم أعلم ببلدكم من البعيدين عنكم، وما أري لكم أحسن من أن نلقي مسؤوليات الحكم علي عواتقكم، وأريد منكم أن تعينوا وقتاً يجتمع فيه نخبة العلماء ونخبة الأعيان ونخبة التجار جميعاً. وينتخب كل صنف من هؤلاء عدد معيناً كما ترضون وتقررون، وذلك بموجب أوراق تمضونها من المجتمعين، بأنهم ارتضوا أولئك النفر لإدارة مصالحهم العامة والنظر في شؤونهم. ثم يستلم هؤلاء الأشخاص زمام الأمور فيعينون لأنفسهم أوقاتاً معينة يجتمعون فيها ويقررون ما فيه المصلحة للبلد.. وجميع شكايات الناس ومطالبهم يجب أن يكون مرجعها هؤلاء النخبة من الناس، ويكونون أيضاً الواسطة بين الأهلين وبين من هم عيون لى وآذان يسمعون شكاويهم وينظرون فيها ثم يراجعوني .

إني أريد من الهيئة التي ستجتمع لانتخاب الأشخاص المطلوبين أن يتحروا المصلحة العامة ويقدموها علي كل شيء فينتخبوا أهل الجدارة واللياقة الذين يغارون علي المصالح العامة، ولا يقدمون عليها مصالحهم الخاصة، ويكونون من أهل الغيرة والحمية والتقوي.

تجدون بعض الحكومات تجعل لها مجالس للاستشارة، ولكن كثيراً من تلك المجالس تكون وهمية أكثر منها حقيقية، تشكل، ليقال أن هناك مجالس وهيئات، ويكون العمل بيد شخص واحد وينسب العمل للمجموع.

أريد شكلاً وحقيقة يجتمع فيه رجال حقيقيون يعملون جهدهم فى تحرى المصلحة العامة.

لا أريد أوهاماً وإنما أريد حقائق. أريد رجالاً يعملون، فإذا اجتمع أولئك المنتخبون وأشكل علىّ أمر من الأمور، رجعت إليهم فى حله وعملت بمشورتهم وتكون ذمتى سالمة والمسؤولية عليهم.

وأريد منهم أن يعملوا بما يجدون فيه المصلحة. وليس لأحد من الذين هم أطرافى سلطة عليهم ولا على غيرهم.

وأريد الصراحة فى القول، لأن ثلاثة أكرههم ولا ألاقيهم:

- رجل كذاب، يكذب علىّ عن تعمد.
- ورجل ذو هدف.
- ورجل متملق.

فهؤلاء أبغض الناس عندى..

فأرجوكم بعد هذا المجلس أن تجتمعوا بالسرعة الممكنة، وذلك بعد أن تنظموا لى قائمة بأسماء الذين سيجتمعون من كل صنف من الأصناف الثلاثة، لأقابلها على القائمة التى عندى فأتحقق من أن جميع أهل الرأى اشتركوا فى انتخاب المطلوبين. وأرجوكم العجلة فى العمل لأمتع نفسى برؤية هذه البلاد المطهرة تتمشى فى حياة جديدة ويسرنى أن يكون ذلك بواسطتنا».

فقابل المجتمعون خطاب عظمة السلطان بالشكر والثناء، وقالوا جميعاً إن هذا حكم الشورى الذى جاء به القرآن الكريم.

ثم تابع الملك عبد العزيز خطواته الإيجابية فى مجال وضع الأسس الشرعية والقانونية لتطبيق مبادئ الشورى الإسلامية بإصدار بيان إلى علماء مكة المكرمة جاء فيه:

«فتعلمون أننا بحول الله وقوته، نريد أن تصدق أفعالنا أقوالنا. وحيث إنه لابد للبلد من قوام أمورها اللازمة التى لا تخفى عليكم. ولابد من ترتيب فى معاملاتها وأوقافها وجميع أحوالها، وفى تركها مشقة وخراب فى أمر ديننا ودنيانا، وتقويم الأمور لا يكون إلا بمعرفة أهلها والرجال الذين عندهم خوف

من الله وعندهم شرف وحمية على الوطن. فالرجاء أن تختاروا فى مجلسكم هذا من العلماء فى وظيفتهم، ومن التجار والأعيان. رجالا ينظرون فى جميع الشؤون المذكورة أعلاه، وتكون البلد وأهلها برقابهم يسعون فى مصالحها ويذبون عنها ما يضرها، فإن اخترتم المذكورين، فاكتبوا على ذلك «سنداً ممضياً» من العلماء والأعيان والتجار برضاهم بذلك. وبعد هذا يقترحون ما يصلح للبلد وأهلها ونتراجع وإياهم فيه. وأرجو أن لا تقوموا من مجلسكم هذا إن شاء الله إلا وأنتم متممون ما ذكرته لكم.. نرجو من الله أن يسلك بنا وبكم طريق الرشاد، ويصلح بنا وبكم البلاد والعباد. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1].

حرر فى ٢٤ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ

عبد العزيز

[1] جريدة أم القرى العدد ٣- ٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٣ هـ.

انتخاب أعضاء مجلس الشورى الأهلى

وبعد أن تلقى علماء مكة المكرمة هذا الخطاب اعتبروه بمثابة توجيه مباشر للبدء فى وضع الشورى الإسلامية موضع التنفيذ، فعقدوا على الفور اجتماعاً تم فيه إجراء أول انتخاب تشريعى فى المملكة.

وفى اليوم التالى بعث رئيس المجلس البلدى كتاباً يخبر عظمته بالذين نالوا أكثرية الأصوات فى الانتخاب. وهم حضرات السادة، مع حفظ الألقاب:

عبدالقادر الشيبى، محمد بن يحيى بن عقيل، عقيل سقاف، عرابى سجينى، بكر بابصيل، عباس مالكى، أمين عاصم، محمد نور فطانى، عبدالله دهلوى، سليمان نائب الحرم، تاج قطب، محمد نور ملائكة، عمر جان، عمر علوى.

وقد طلب الرئيس فى كتابه، من عظمة السلطان، أن يعين للأعضاء مدة أيام انتخابهم ويوضح لهم درجة صلاحيتهم فى الأعمال التى يرغب أن ينظروا فيها.

وقد وافق عظمته على انتخاب الشيخ عبد القادر الشيبى رئيساً للمجلس، وبعث للأهلين الشيخ حافظ وهبه، وعبد الله أفندى الدملوجى، من رجال خاصته ليعلما الناس برأى عظمته فيما استوضحوا عنه، وذلك فى اجتماع عقد بدائرة البلدية. ولقد تم تسمية هذا المجلس باسم مجلس الشورى الأهلى ولقد عقد مجلس الشورى الأهلى، أول اجتماع له فى اليوم التالى من موافقة الملك عبد العزيز على أعضاءه، وعقب الاجتماع صدر عن المجلس البيان التالى:

«لا يخفى أن الله سبحانه وتعالى منَّ على سكان بلده الحرام بالحاكم الحالى. السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، الذى أعلن فى جملة منشوراته أن الحرمين الشريفين هما بلدان المسلمين، وأن للمسلمين النظر فى مصيريهما، وأن ليس لأحد أن يشتغل بالحاكمية فيهما...

ثم بعد ذلك أعلن للأهالى، بأن تكون أعمال البلاد بيدهم يجرون فى إدارة شؤونها وكافة ما يلزم لها ويوافق الشرع. وأصدر أمره العالى بتشكيل هيئة

منتخبة فى الحال من علماء وأعيان وتجار مكة المكرمة. للنظر فى مقتضيات ومصالح البلاد المقدسة.

وعليه جرى انتخاب الهيئة المشار إليها بواسطة المجلس البلدى. ومن الأصناف الثلاثة المذكورين. ولدى عرض الذوات، الذين حازوا أكثرية الأصوات فى أوراق الانتخاب. على الحضرة السلطانية صدر التصديق العالى بانتخابهم وابتدأت الهيئة فى عقد جلساتها تحت عنوان (مجلس الشورى الأهلى) بالغرفة التى أعدت لها بدار الحكومة، وجعلت باكورة أعمالها البحث والمذاكرة فى تنظيم مواد أساسية تتضمن أنواع الأعمال المنوطة بها، راعية فى ذلك مصالح البلاد والحكومة فى الحال والاستقبال.

وها هى المواد المذكورة قد تمت بحمد الله، وستقدم إلى الحضرة السنية السلطانية وسيجرى العمل بموجبها.

وحيث إن هذه المواد لم تؤسس لتكون دستوراً لصلاحية وأعمال الهيئة الحاضرة التى سيجرى تبديلها بعد سنة أو سنتين، عند انقضاء مدة انتخابها الدورية فقط.

بل وروعى فيها الأساسات والمقتضيات المهمة الكافلة لإدارة البلاد المشرفة حالاً واستقبالاً – كما مر بعاليه – لتنسج على منوالها الهيئة التى ستحل محلها فى المستقبل، أو تكمل ما تراه ناقصاً منها بحسب اجتهادها وما يسنح لها.

ورأت الهيئة أن تجعل المواد المذكورة معروضة لاطلاع العموم عليها عيناً، وعليه فكل من يريد أن يطلع على تلك المواد من علماء وأعيان وتجار البلد الحرام، فليتفضل إلى الغرفة الرسمية المذكورة ليراها ويبدى بعد ذلك مطالعاته ورأيه فى مندرجاتها.

وعلى الهيئة قبول ما تراه صواباً من جميع الاقتراحات والمطالعات التى تقع عليها بكل ارتياح بالنظر لأن المقصد الوحيد الأساسى هو الصالح العمومى المؤدى لخدمة الوطن ليس إلا.

وكذلك بناء على ما اتصل بالمجلس من أن بعض الناس – أنار الله بصيرتنا وإياهم – يفوهون من وراء حجاب بأقوال غير لائقة فى اللفظ والأعمال، الأمر الذى لا نحمله إلا على عدم الاطلاع على الحقائق، تعلن للجميع أن هيئتنا مستعدة لقبول المشافهة والتصريح فيما يراه إخواننا المتحجبون. كما أنها لا تستنكف عن اجراء كل تعديل يوافق رغبة الجميع.

ونشعر الجميع، بأن كل من أراد أن يساعد الهيئة بالاشتراك معها فى الأعمال والاجراءات، فليتفضل للانضمام إليها فى خدمة البلاد، لأن المجلس يرحب بكل مترشح للمساعدة بكمال الفخر والممنونية. ولما ذكر، اقتضى تحرير هذا الإعلان، والله الموفق.

فى ٩ رجب سنة ١٣٤٣هـ

عبدالقادر الشيبى

ولقد أرفق أعضاء المجلس بهذا الخطاب صك البيعة الذى نص على الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده..

نبايعك يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، على أن تكون ملكاً على الحجاز على كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم، والسلف الصالح والأئمة الأربعة، رحمهم الله.

ورداً على البيعة، رد الملك عبد العزيز على صك البيعة باستجابته التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود إلى إخواننا الموقعين أسماءهم، سلام عليكم، وبعد. فقد أجبناكم إلى ما طلبتم ونسأله سبحانه وتعالى المعونة والتوفيق للجميع[1].

٢٢ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ

الختم الملكى

---

[1] جريدة أم القرى، العدد ١٠ – ١٩ رجب ١٣٤٣هـ. صـ ١.

وفى يوم الجمعة ٢٣ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ = ٨ يناير ١٩٢٦م. تجمع الناس حول باب الصفا، من خارج المسجد الحرام، وداخله، حيث أعد المكان الخاص لتلاوة نص البيعة على مشهد من أهل البلاد والمهاجرين إليها.. وبعد صلاة الجمعة شرف جلالة الملك المكان المذكور فتعالى هتاف الناس بحياة جلالته. ثم اعتلى منصة الخطابة فضيلة الشيخ عبد الملك مرداد، وألقى الخطبة الآتية:

أحمد رب هذا البيت المعظم، وأشكره على ما أنعم به وتكرم، فقد منَّ علينا بنعم لا تحصى ومنن لا تستقصى، حيث أبدل خوفنا أمناً وشدتنا رخاء وقد انقشعت عنا غمة الحرب، وساد فى هذه الربوع السلم التام.

ولقد توحدت الكلمة، وأجمع الرأى على بيعة عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود بالملك وعلينا، وتفضل عظمته بقبول هذه البيعة منا بعد أن طلبنا منه ذلك. وإنى أتلو عليكم أيها الإخوان الحاضرون نص وثيقة البيعة التى جرى الاتفاق عليها.

وبعد أن أتم تلاوة النص الذى ذكرنا سابقاً، تقدم الناس طوائف، وأفراداً وجماعات من جميع أنحاء المملكة إلى جلالته، يبايعونه بالملك، ويعاهدونه على السمع والطاعة. وأطلقت المدافع من قلعة جياد إيذاناً بتمام البيعة. وبعد انتهاء الحفلة، أخذ جلالته طريقه متوجهاً إلى ناحية البيت الحرام، فطاف به ثم صلى ركعتين خلف مقام إبراهيم. وحمد الله وأثنى عليه، وسأله التوفيق إلى القيام بما عهد إليه مع العون والتأييد. ثم ذهب إلى دار الحكومة للتحدث إلى أفراد الشعب بما يجول فى نفسه.

وما كاد يستقر به المقام حتى نهض الشيخ حسن قابل، أحد شباب جدة، وقال بأعلى صوته: لابد للبلاد من ملك مستقل يكون قادراً على صيانة الحجاز من الداخل والخارج. ومن غير الملك عبد العزيز يستطيع أن يقوم بهذا الأمر.

وهتف الشيخ عبد الرحمن بشناق قائلاً: يا عبد العزيز، إن الله ما أعطاك هذا الملك إلا لأنك تسعى فى مرضاته.

فقال الشيخ عبد العزيز العتيقى: الناس على دين ملوكهم. أما وقد أعطانا الله هذا الملك الصالح، فعلينا أن يكون معه دعاة إلى التمسك بكتاب الله وسُنة رسوله، والمحافظة على شعائر الإسلام حتى نسترد ما كان لنا من مجد عظيم وذكر حسن.

ثم تقدم الخطباء بين يدى جلالته، كل يعبر عما يخالج ضميره من فرحة وسرور.

وعندئذ نهض جلالته فقال:

أسمع خطباءكم يقولون هذا إمام عادل، وهذا كذا وهذا كذا. فكل رجل مهما بلغ من المنازل العليا، إذا لم يخش الله ويطلب مرضاته، فلا أثر له ولا لعمله، فمتى تركت الشهوات وهُجرت المحرمات وعبدنا الله على بصيرة لاقينا الخير كله. وهل جاء البلاء للناس إلا من اتباع الشهوات، شهوات النفوس التى هى خراب الدنيا والديرة. لذلك أدعوكم إلى الدين واتباع آثار السلف الصالح واتخاذ الصراحة فى القول والإخلاص فى العمل وترك الرياء والملق.

فمتى اتفق العلماء والأمراء على أن يستر كل منهم على الآخر، فيمنح الأمير الرواتب، والعلماء يدلسون ويتملقون، ضاعت أمور الناس وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى. ولم يفسد الممالك وأحفادهم وخدامهم، والعلماء وأعوانهم – وإننى والله لا أود أن أكون منهم – إلا التمدن الذى لم يكن فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا. فوالله لن نرضخ له ولن نعمل به ولو قطعت الرقاب.

أيها الإخوان. إنى أحمد الله الذى جمع الشمل، وأمن الأوطان. وإن لكم علىّ عهد الله وميثاقه، أننى أنصح لكم كما أنصح لنفسى ولأولادى، وأحبكم فى الله. أعاديكم فى الله».

وبعد انتهاء الحفلة، ركب جلالة الملك سيارته ورجع إلى قصره وما كاد الناس يعودون إلى بيوتهم، حتى تلقى أعضاء المجلس الأهلى ووفد جدة دعوة إلى الاجتماع فى قصر الملك بعد صلاة العشاء من ذلك اليوم لأمر مهم، فلبوا الدعوة.

وعندما تكامل جمعهم أقبل عليهم جلالته، فوقفوا لتحيته فبادرهم بالسلام، ثم تصدر المجلس وألقى عليهم كلمة وجيزة جاء فيها: إننا اليوم فى دور التأسيس، وقد حانت ساعة العمل ولا يستقيم أمر لا يكون قائماً على أساس متين، وإن العالم ليرقب أعمالنا عن كثب، فإذا لم نضع لنا أساساً قوياً ضاعت أمورنا. ولذلك فإننى أعددت لكم بعض الملاحظات التى أحب أن تنظروا فيها وتقرروا ما ترونه نافعاً معتبراً لصالح البلاد، فأنتم أصحاب الشأن وذوو الرأى فيها.

ثم أمر جلالته مستشاره الدكتور عبد الله الدملوجى، أن يتلو تلك الملاحظات عليهم فقال: إن المطلوب أيها السادة، هو أن تشكل هيئة منكم جميعاً تسمى هيئة التأسيس، وينضم إليكم مندوبون من سائر بلاد الحجاز ليبحثوا فى المسائل الآتية:

١ – وضع اسم رئيس حكومة الحجاز.

٢ – وضع ترتيب خاص لتحديد العلاقات بين نجد والحجاز.

٣ – تعيين شكل الحكومة ووضع أساسات لتشكيلاتها الداخلية. والبحث فى الموقف الذى يجب أن يكون للحجاز من الوجهة الدولية.

٤ – تعيين شكل العلم والنقود.

فهتف الجميع بحياة جلالة الملك، وقرروا أن يكون اسم رئيس الحكومة هو «ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها»* على أن يجتمعوا فيما بعد ويقرروا ما يرون من المسائل الثلاث الباقية. فاقترح جلالة الملك أن يضم إلى الهيئة التأسيسة ثلاثة من رجاله هم: الشيخ يوسف ياسين، والدكتور عبد الله الدملوجى، والشيخ عبد العزيز العتيقى.

---

* تعاقبت على الملك عبد العزيز ثلاثة ألقاب، فحينما استعاد ملك آبائه فى نجد كان يلقب بـ «الإمام». ولكن بعد أن وسع دائرة بلاده حتى الإحساء «المنطقة الشرقية» أصبح يلقب بـ «السلطان»، ثم ناداه شعب الحجاز بلقب «ملك». وهذا يعنى أن جميع الألقاب الثلاثة التى تعاقبت على الملك عبد العزيز.. تعبر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – عن تطور القيادة الذاتية عند الملك عبد العزيز.

المجالس الاستشارية

ولكن قبل أن تتهيأ الهيئة التأسيسية للاجتماع أصدر الملك عبد العزيز أوامره بتأليف مجالس استشارية فى المدن التى سلمت مؤخراً لسلطان الحكومة السعودية مثل جدة والمدينة وينبع، حتى تمهد هذه المجالس لمرحلة التمثيل فى مجلس الشورى المرتقب. ولقد نص الأمر الملكى الذى صدر فى ٢ ذى القعدة ١٣٤٤هـ على ما يلى:

امتثالاً لأمر الله تعالى فى استشارة أهل الرأى والخبرة، والرجوع إلى آرائهم فيما يهم من الأمور، ورعاية لحقوق الأمة، وأداء للأمانة التى حملنا إياها، أمرنا بما هو آت:

١ – يؤلف مجلس استشارى فى كل من مكة، والمدينة، وجدة، وينبع، والطائف، للنظر فيما يهم من المسائل المحلية، وتكون هذه المجالس بالانتخاب بدرجة واحدة.

٢ – يؤلف مجلس مكة من عشرة أعضاء، سوى الرئيس الذى تختاره الحكومة. ومجلس المدينة من ستة أعضاء سوى الرئيس. ومجلس الطائف من أربعة أعضاء سوى الرئيس.

٣ – يؤلف مجلس عام يدعى (بمجلس الشورى العام) تنتخب أعضاؤه من قبل المجالس الاستشارية المحلية. ويؤلف أعضاؤه من ثلاثة عشر عضواً. ٤ من مكة ٢ من المدينة، ٢ من جدة، ٢ من ينبع، ١ من الطائف، وثلاثة من رؤساء العشائر.

٤ – الذين لهم حق الانتخاب هو طوائف العلماء، وأعيان البلاد والتجار، ورؤساء الحرف والمهن.

٥ – الأعضاء المنتخبون يجب أن تتوافر فيهم الشروط الآتية، وهى: إجادة القراءة والكتابة، وحسن السيرة، وعدم صدور أحكام عليهم مخلة بالدين والشرف.

٦ – مدة عضوية هذه المجالس سنة واحدة.

٧ – على نائبنا العام القيام بتنفيذ أمرنا هذا[١].

ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها

عبد العزيز

الهيئة التأسيسية لوضع قواعد الدستور

ولقد بدأت المراحل الأولى لتنفيذ مشروع مجلس الشورى بأن اجتمع ستة وخمسون شخصاً، وانتخبوا من بينهم لجنة مكونة من ثلاثة عشر شخصاً تمثل الهيئة التأسيسية التى ستقوم بوضع نظام الحكم وتعيين شكل العلم والنقود.. والأشخاص الذين تم انتخابهم هم: السيد صالح شطا، الشيخ محمد نصيف، الشيخ حسين باسلامه، الشيخ محمود شلهوب، السيد محمد المرزوقى أبو حسين، الشيخ محمد سعيد أبو الخير، الشريف شرف عدنان، السيد على كتبى، الشيخ محمد ماجد الكردى، الحاج عبد الله زينل، الحاج عبد الله الدهلوى، الشيخ سليمان قابل، الشريف حسين عدنان.

وعندما عرضت أسماء هذه الهيئة المختارة على جلالة الملك، وافق على تشكيلها وأطلق عليها «الهيئة التأسيسية» وعهد برئاستها إلى فضيلة الشيخ عبد القادر الشيبى، فاتح بيت الله الحرام.

ولعل من أهم منجزات الهيئة التأسيسية هو إصدارها أول دستور فى البلاد تحت اسم «التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية».

التعليمات الأساسية

النظام الأساسى للحكم

درجت حكومة المملكة العربية السعودية على استخدام مصطلحات الفكر السياسى الإسلامى عوضاً عن استخدام مصطلحات الفكر القانونى الوضعى.

---

[١] البلاد العربية السعودية للأستاذ فؤاد حمزة.

ولذلك حينما أصدرت حكومة الملك عبد العزيز أول نظام أساس للحكم دستور فى عام ١٣٤٥هـ = ١٩٢٦م لم تطلق عليه اسم دستور بل أسمته «التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية» تألف بمقتضاها (القسم الرابع) مجلس سمى «مجلس الشورى» قوامه ثمانية أعضاء يرأسهم النائب العام سمو الأمير فيصل أو معاونه أو أحد مستشاريه.

ولقد افتتح الملك عبد العزيز مجلس الشورى بالكلمة التالية:

«الحمد لله الذى لا إله إلا إياه. نحمده ونصلى على أفضل خلقه المبعوث إلى الناس رحمة وهدى. ونسلم على آله وصحبه أجمعين..

وبعد، فإننى أحييكم يا حضرات الأعضاء، وأهنئكم على الثقة التى وضعها فيكم أبناء بلدكم بانتخابكم أعضاء لمجلس الشورى، الذى هو أس من الأسس التى تقوم عليها الحكومات الشرعية المؤسسة على الشورى الوارد فيها قوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) .

إننى مغتبط بأن أراكم فى هذا المجلس الجديد عاملين مع الحكومة على إصلاح حال البلاد وعمرانها، وإقامة حدود الشريعة وصيانتها. إن الله تعالى قد جعل فى أعناقنا أمانة نرى أنفسنا محتاجين فى حمل عبئها إلى معونة أهل الفضل والحمية. وهذا ما دعانا إلى أن نفوض إلى زعماء البلد بانتخابكم فأولوكم ثقتهم وجعلوكم نائبين عنهم وقد رفعنا المسؤولية عن أنفسنا ووضعناها فى أعناقكم. فالله أسأل أن يوفقكم لما فيه خير العباد والبلاد، وسترون فى أثناء القيام بوظائفكم أن الحكومة جادة فى إدخال كثير من الإصلاحات والأعمال النافعة.

ومما لاشك فيه أنكم رأيتم فاتحة ذلك، بتشكيلنا لجنة التفتيش والإصلاح التى وكلنا إليها تفتيش دوائر الحكومة ودرس الاقتراحات المتنوعة لإصلاحها.

وقد أنجزت هذه اللجنة بعض الأعمال، ومازال أمامها عمل شاق، نسأل الله أن يوفقها إلى اتمامه. وسنعرض عليكم مشاريع موازنات دوائر الحكومة، لتدققوها وتوافقوا عليها. وسنعرض عليكم كذلك مشاريع خاصة بحفر الآبار

الارتوازية فى البلاد، لأن المياه من أهم ما تحتاج إليه. وهنالك مشاريع أخرى خاصة بتعبيد الطرق بين جدة ومكة، وتوسيع بعض الشوارع فى مكة وإصلاح إدارة البريد والبرق التى استكملت معداتها للسير على موجب الاتفاقيات الدولية الخاصة بالمعاملات البريدية، ولاسيما بعد أن انضمت المملكة إلى الاتحاد البريدى الدولى. ومما ستعنى الحكومة به كذلك، إصلاح شؤون المعارف، وتوحيد نظام التعليم فى البلاد ونشره على قدر الحاجة فى المدن والقرى وبين القبائل.

وستصرف العناية أيضاً إلى إصلاح الحالة الصحية فى البلاد، واتخاذ الأسباب لتأمين راحة حجاج بيت الله الحرام، وإصلاح أنظمة المطوفين.

وأخيراً فإننى أعلن افتتاح مجلسكم هذا ضارعاً إلى الله أن يكلل أعمالنا بالنجاح، والسلام عليكم.

***

وتمثل التعليمات الأساسية برنامجاً دستورياً يتمتع بخصائص التنظيم الدستورى الرائد، وذلك من خلال ناحيتين دستوريتين هامتين:

١ – تنظيم الهياكل والمؤسسات الإدارية والدستورية.

٢ – توزيع السلطات وتنظيم قنوات الاتصال بين هذه الهياكل والمؤسسات، ولقد حدد القسم الأول شكل الدولة كدولة ملكية شورية إسلامية.. وهو بمثابة الوعاء الشامل الذى يحتوى مؤسسات الإدارة العامة.. وفى الوقت نفسه وزعت المسئوليات بين السلطات الرئيسية الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية.. كما استغرقت المادة (٩) فى تفصيل اختصاصات ومستوى الاتصال بين الوحدات الإدارية والعلاقات الرأسية والأفقية بين هذه الوحدات.

ولقد كان مجلس الشورى – القسم الرابع من التعليمات الأساسية – نموذجاً للتنظيم الإدارى والبرلمانى الجيد فى ذلك الوقت، وأكد جلالة الملك عبد العزيز أنه لن يسن قرار أو قانون إلا عن طريق المجلس.[١]

---

[١] الإدارة العامة فى المملكة العربية السعودية للدكتور أمين ساعاتى.

نظام مجلس الشورى

ولقد توج الملك عبد العزيز جهوده الرامية إلى إرساء قواعد قيام النظام الشورى الإسلامى بالموافقة على نظام مجلس الشورى الذى صدر بالمرسوم التالى:

نحن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، بعد الاطلاع على القسم الرابع من التعليمات الأساسية، وبعد الاطلاع على أمرنا الصادر فى غرة محرم الحرام، بشأن تشكيل لجنة التفتيش والإصلاح، وبناء على ما عرضته علينا اللجنة المذكورة، أصدرنا أمرنا بما هو آت:

المادة الأولى – يتألف مجلس الشورى من ثمانية أعضاء ينتخبون وفقاً للأصول المشروحة فى المواد الآتية.

المادة الثانية – رئيس مجلس الشورى، هو النائب العام الذى له أن يحضر معه أحد مستشاريه للجلسات بدون أن يكون للمستشار رأى فى المناقشات. وفى غياب الرئيس يترأس المجلس إما معاونه وإما أحد مستشاريه.

المادة الثالثة – يكون انتخاب أعضاء المجلس على الصورة الآتية:

أولاً: أربعة أعضاء تنتخبهم الحكومة بعد استشارة أهل الفضل والخبرة.

ثانياً: أربعة أعضاء تنتخبهم الحكومة بمعرفتها ويكون اثنان من هؤلاء من أهل نجد.

المادة الرابعة – مدة العضوية فى مجلس الشورى سنتان، ويغير نصف الأعضاء فى كل سنة (سواء المنتخب منهم والمعين) ولكن يمكن إعادة انتخاب الذين انتهت مدتهم.

المادة الخامسة – يجب أن يكون عضو مجلس الشورى متصفاً بالصفات الآتية:

أولاً – أن لا يقل سنه عن خمس وعشرين سنة.

ثانياً: أن يكون من ذوى المعرفة والخبرة.

ثالثاً: ألا يكون محكوماً عليه بأحكام تخل بالشرف ولا مفلساً.

رابعاً: أن يكون حسن السلوك.

المادة السادسة – الأعمال التى تعرضها الحكومة على المجلس هى:

أولاً: موازنات دوائر الحكومة والبلدية، وموازنة عين زبيدة.

ثانياً: الرخص للشروع فى عمل مشاريع اقتصادية وعمرانية.

ثالثاً: الامتيازات والمشاريع المالية والاقتصادية.

رابعاً: نزع الملكية للمنافع العمومية.

خامساً: سن القوانين والأنظمة.

سادساً: الزيادات التى تضاف إلى موازنات الدوائر فى بحر السنة.

سابعاً: النفقات العارضة التى تعرض لدوائر الحكومة فى بحر السنة إذا زاد المطلوب عن مائة جنيه.

ثامناً: قرارات استخدام الموظفين الأجانب.

تاسعاً: العقود مع الشركات أو التجار لمشترى أو مبيع لوازم دوائر الحكومة، إذا زاد المبلغ عن مائتى جنيه.

المادة السابعة – ينقسم المجلس إلى لجنتين تتولى كل واحدة منهما درس المعاملات التى يحيلها إليها سكرتير المجلس، وتبدى رأيها فيها. ثم تتبادل اللجنتان الأوراق التى فى يد كل واحدة وتدرس الواحدة ما كان بيد الأخرى. ثم تعرض النتيجة فى جلسة عامة من جلسات المجلس لوضع قراره النهائى.

المادة الثامنة: ينعقد المجلس بحضور أربعة أعضاء والرئيس. وتصدر القرارات بموافقة ثلثى مجموع أصوات المجلس.

المادة التاسعة: ينعقد المجلس مرتين فى الأسبوع بصورة اعتيادية. ويمكن أن يجتمع أكثر من ذلك، بناء على دعوة من رئيسه كلما دعت الحاجة. ويمكن أن تجتمع اللجنتان فى غير أوقات الاجتماع المعينة للمجلس.

المادة العاشرة: يمكن للمجلس أن يلفت نظر الحكومة إلى أى خطأ وقع فى تطبيق القوانين والأنظمة المعروفة.

المادة الحادية عشرة: إذا عرضت الحكومة مشروعاً على المجلس، فرفضه أو عدل فيه تعديلاً لم توافق عليه الحكومة، فللنائب العام أن يعيد المشروع إلى المجلس، مع ملاحظات كافية لإقناعه بصواب رأى الحكومة وضرورة تغيير قراره. فإن رفض المجلس ثانية، وأصر على تعديله السابق يكون القول الفصل فى الأمر لجلالة الملك. وللمجلس أن يراجع جلالة الملك بواسطة رئيسه لأجل التصديق على مشروع قرره المجلس ومضى عليه شهر قبل صدور إرادة الملك بالموافقة عليه.

المادة الثانية عشرة: يجب أن يدعى رئيس الدائرة ذو العلاقة حينما يبحث المجلس فى مسألة لها علاقة بدائرته، ويجب أن تراعى هذه القاعدة دوماً.

المادة الثالثة عشرة: يعين لمجلس الشورى سكرتير «أمين سر» قدير يوافق على تنظيم المعاملات وترتيبها ليتلقى الأوراق وينظمها ويلخصها، ولكى يضع جدول الأعمال لكل جلسة ويقدمه للأعضاء قبل انعقاد الجلسة بيوم واحد على الأقل. ويكون للمجلس كاتب أو اثنان على قدر اللزوم، غير أمين السر.

المادة الرابعة عشرة: للملك الحق فى حل مجلس الشورى وتغيير أعضاء أو عزلهم.

المادة الخامسة عشرة: تحل هذه القرارات محل القسم الخاص بمجلس الشورى من القسم الرابع من التعليمات الأساسية.

صدر بأمرنا فى اليوم التاسع من شهر محرم الحرام ١٣٤٦ هـ.

نظام مجلس الشورى لعام ١٣٤٧هـ

بعد أن صدر نظام مجلس الشورى الأول أثبتت التجارب أنه فى حاجة إلى مزيد من المراجعة بما يتواءم مع الظروف المستجدة التى كانت تعيشها المملكة محلياً ودولياً. ولقد قامت لجنة التفتيش والإصلاح التى عهد إليها متابعة النظام

بمراجعة النظام مرة أخرى، ومن أهم التعديلات التى أدخلت على نظام مجلس الشورى.

١ – أصبح المجلس يتألف من العدد الذى تصدر به الإرادة السنية تحت رئاسة النائب العام. وذلك على عكس النظام السابق الذى حدد تكوين المجلس من (٨) ثمانية أعضاء فقط.

٢ – أصبح لرئيس المجلس، نائب دائم، يعينه الملك، ونائب ثان، ينتخبه المجلس ويقوم مقام النائب الأول أثناء غيابه.

٣ – أصبح المجلس ينعقد يومياً للنظر فى الأمور المعروضة عليه، بدلاً من انعقاده مرتين فى الأسبوع.

٤ – أصبح نصاب المجلس القانونى، يتم بحضور ثلثى الأعضاء والرئيس، بدلاً من أربعة أعضاء والرئيس.

٥ – أصبحت قرارات المجلس تصدر بموافقة أكثر الأعضاء الحاضرين بدلاً من ثلثى الحاضرين.

وبقى المجلس يتألف من العدد الذى تصدر به الإرادة السنية عند تجديد دورته، حتى سنة ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٢م حينما تألف المجلس من (٢٥) خمسة وعشرين عضواً. وعقب ذلك، صدرت أوامر بإحالة بعض أعضاءه إلى التقاعد، ونقل البعض الآخر إلى وظائف أخرى فى وزارات ومصالح الدولة، دون أن يعين بدلاً منهم أعضاء جدد فى المجلس[1].

ولقد حقق المجلس الكثير من التطورات، فبعد أن كان المجلس يمثل أهل الحجاز ويختص بمناقشة الأمور الحجازية اتسع المجلس وضم أعضاء من نجد، كما أخذ يناقش ويعالج كافة الأمور المتعلقة بجميع المدن والقرى السعودية.. أى إن مجلس الشورى لم يكن على مستوى الحجاز فحسب.. بل بدأ على مستوى الحجاز ثم امتدت سلطاته حتى شملت كل أنحاء المملكة العربية السعودية. وهذا

---

[1] دراسة فى السياسة الداخلية للمملكة العربية السعودية أحمد حسن دحلان.

تأكيد للشرعية التى كان يتمتع بها الملك عبد العزيز ليس فى الحجاز فحسب بل على كل تراب المملكة العربية السعودية.

إنشاء مجلس الوزراء

وتكليفه القيام بمهام السلطتين التشريعية والتنفيذية

وظلت التعليمات الأساسية – لمدة خمس سنوات – تمثل الإطار القانونى الذى تهيأ لتوسيع المشاركة السياسية فى المملكة. وبعد ذلك صدر فى عام ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م مرسوم ملكى بتشكيل مجلس الوكلاء الذى كلف بتولى مهام السلطة التنفيذية فى البلاد. وبعد ذلك بدأ الحديث عن النظام الأساسى للحكم ضمن التماس رفعه المواطنون فى عام ١٣١٥هـ = ١٩٣٢م إلى الملك عبد العزيز ويتضمن ثلاثة مطالب:

١ – توحيد المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها تحت اسم «المملكة العربية السعودية».

٢ – سن نظام خاص بالحكم.

٣ – سن نظام خاص بتوارث العرش[1].

ورداً على هذا الالتماس، صدر مرسوم ملكى بتغيير اسم المملكة الحجازية النجدية إلى اسم «المملكة العربية السعودية» وإعلان الوحدة الوطنية كما يتضمن أمراً إلى مجلس الوكلاء بالبدء فى صياغة نظام أساسى للحكم يكون بديلاً عن التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية.

ويعتبر هذا المرسوم بمثابة ورقة عمل لصيغة جديدة لنظام الحكم فى المملكة العربية السعودية.. حيث تضمن وعداً بتغيير جذرى فى كثير من الأنظمة الهامة.

وبعد هذا المرسوم لم تطرأ أى تطورات على الإطار القانونى للمملكة.. إلا أنه فى عام ١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م أصدر الملك عبد العزيز قبل وفاته بعدة

---

[1] جريدة أم القرى، العدد ٤٠٥، ١٥ جمادى الأولى ١٣٥١ الموافق ١٦ سبتمبر ١٩٣٢.

شهور مرسوماً بتشكيل مجلس الوزراء برئاسة الأمير سعود بن عبد العزيز ليحل محل مجلس الوكلاء الذى كان يرأسه الأمير فيصل بن عبد العزيز وكلف مجلس الوزراء بالاضطلاع بالمهام التنظيمية «التشريعية» والتنفيذية (المادة الأولى) وكانت ومازالت قرارات المجلس مرهونة بالمصادقة الملكية. ولكن الملك سعود بعد أن استلم مهام الحكم أصدر مرسوماً ملكياً بتشكيل مجلس للوزراء برئاسة الملك فيصل. ولكن كان الخلاف على فلسفة الحكم أكبر من أن تستمر الوزارة. وفى عام ١٧٨٠هـ = ١٩٦٠م ترأس الملك سعود مجلس الوزراء وأصدر فى أولى جلساته بياناً سياسياً أكد فيه على الهوية الإسلامية للنظام السياسى وقال: وإن تأليف هذه الوزارة ما هو إلا خطوة أولى ستتبعها بإذن الله خطوات تحقق ما نصبو إليه من رفاهية شعبنا والأخذ بيده والتعاون معه فى إدارة الشئون العامة للبلاد طبقاً لتعاليم ديننا وعملاً بتقاليدنا. وسنسعى بوضع نظام أساسى للحكم بحدد اختصاصات الجماعات والأفراد مبيناً حقوقهم وواجباتهم طبقاً لما نص عليه ديننا الحنيف وسنة نبينا الكريم.

ثم جدد الملك فيصل هذا الوعد حينما أشار فى بيانه الوزارى الذى أصدره فى عام ١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م بأن وزارته ستعكف على وضع نظام أساسى للحكم بتضمن الشورى والمشاركة[1].

ثم أعقب ذلك بيان من جلالة الملك خالد بن عبد العزيز فى عام ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م أكد فيه على اتباع سياسة أخيه الملك فيصل وأشار إلى أن حكومته ستسعى إلى إصدار نظام للحكم ثم أمر فى عام ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م بتشكيل لجنة لوضع هذا النظام. ثم انتقل الملك خالد إلى رحمة الله دون أن يتهيأ هذا النظام للصدور، فجدد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز التأكيد عليه فى مناسبات عديدة.

والخلاصة أن الملك عبد العزيز رحمه الله استطاع أن يؤسس الدولة السعودية الحديثة (المملكة العربية السعودية) على مبادئ الدين الإسلامى الحنيف، واستطاع فى إدارته الموفقة للدولة – أن يطبق مبدأ الفصل بين

[1] مجلة اقرأ، تشكيل لجنة لوضع نظام للحكم. ٣ جمادى الأولى ١٤٠٠هـ - ٢٠ مارس ١٩٨٠).

السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، حتى جعل الشورى الإسلامية أداة التشريع والتنظيم فى مملكته الفتية.

ولقد تميز مجلس الشورى – وبالذات فى مجالات إصدار النظم والقوانين – بإنتاجه الغزير مما جعل العلاقات والاتصالات بين مؤسسات الدولة تتسم بالفعالية والأداء الجيد.

ولكن فى ٢٣ ذى الحجة ١٣٧٢هـ = ٢٠ يوليو ١٩٥٣م أجرى الملك عبد العزيز تعديلاً دستورياً واسعاً فى حكومته حينما أمر بتأسيس مجلس الوزراء وتكليفه بمهام السلطتين التنظيمية «التشريعية» والتنفيذية.

ثم أخذ أبناؤه الملوك البررة سعود وفيصل وخالد وفهد وعبد الله – من خلال مجلس الوزراء – يعملون بجد وإخلاص على دعم وبناء الأنظمة والمؤسسات اللازمة لسن نظام جديد للحكم يتضمن إعادة مجلس الشورى وتكليفه بمهمته التنظيمية «التشريعية» والرقابية.

الحج وحماية الحجيج

فى عهد الملك عبد العزيز

(الأماكن المقدسة.. والرجل القوى الأمين)

إذا ركز الباحث نظره على الأماكن المقدسة – وهي الأماكن التي ارتبطت بها فريضة الحج – فإنه يجد أن الأوضاع فيها كانت قد وصلت إلى حالة من التردي لا يمكن السكوت عليها ونعود في الموضوع إلى البداية، نعود إلى الفرمان الذي بموجبه تم تعيين الشريف حسين في منصف الشرافة أو الإمارة على الحجاز، فقد جاء في هذا المرسوم.

«أمرنا المشار إليه (أي الشريف حسين) أن يستقبل الحجاج ذوي الابتهاج المتوجهين من سائر ممالكنا الشاهانية، ويوصلهم إلى مكة المكرمة سالمين آمنين، وبعد أدائهم مناسك الحج الشريف على الوجه اللائق أيضا يشيعهم ويستكمل أسباب عزيمتهم بكل اعتناء ودقة إلى الشام».

جلي من هذا المرسوم أو الفرمان أن تأمين الحجاج وتوفير الحماية والراحة لهم يأتي في مقدمة المهام التي نيطت بالشريف حسين بوصفه أميرا على الحجاز، وأن هذه المهمة لا يقتصر نطاقها على مكة والأماكن المقدسة الأخرى فحسب، بل يمتد إلى حدود الحجاز مع بلاد الشام[١].

والدولة العثمانية لم تأت في هذا الصدد بجديد، كما أن الشريف حسين لم تنط به مهمة غير مألوفة، فمهمة تأمين الحجاج وتوفير كل ما يكفل لهم أداء هذه الفريضة في جو من الأمان والراحة كانت – وبصفة دائمة – على رأس المهام التي تناط بولاة أو حكام مكة المكرمة، كما أنها كانت محور التفاخر والتباهي بين هؤلاء الحكام والولاة.

وقد ظل لهذه المهمة مكان الصدارة مع اختلاف الدول وتعاقب القرون. على أية حال، جاءت هذه المهمة على رأس المهام التي نيطت بالشريف حسين في فرمان تعيينه الذي صدر في السادس من شوال سنة ١٣٢٦هـ/ أكتوبر

[١] الحج فى عهد عبد العزيز د. حامد ربيع أبو سعيد.

١٩٠٨م. أما ما سجله التاريخ فهو أمر آخر مناقض بدرجات متفاوتة لهذه المهمة.

لم تعد القضية قضية سياسية محورها النزاع بين الملك عبدالعزيز والشريف حسين حول مناطق النفوذ أو ولاءات القبائل، بل غدت قضية دينية لا تمس بعض الفروع، بل تتصل بواحد من الأركان التي يقوم عليها الإسلام، وفي إطار هذا التحديد لطبيعة القضية دعا الملك عبدالعزيز إلى عقد اجتماع عام، وفعلا عقد الاجتماع في المسجد الجامع بالرياض. وذلك في ذي القعدة ١٣٤٢هـ وفي هذا الاجتماع تكلم سلطان بن بجاد فقال: «يا إمام حنا نبغي الحج، ولا نريد أن نصبر أكثر مما صبرنا على ترك ركن من أركان الإسلام مع قدرتنا عليه..

ليست مكة ملكا لأحد، ولا يحق لأحد أن يمنع المسلمين أو يصد المؤمنين عن أداء فريضة الحج، نريد أن نحج يا عبدالعزيز، فإذا منعنا الشريف حسين دخلنا مكة بالقوة».

وجاء رد الملك عبدالعزيز: «إن مسألة الحج من المسائل التي يرجع الفصل فيها إلى علمائنا وها هم حاضرون، فليتكلموا». وحينئذ نهض الشيخ سعد بن عتيق وقال:

«إن الحج من أركان الإسلام، ومسلمو نجد والحمد لله يستطيعون أن يؤدوا هذا الركن على الوجه الأتم بالرضى أو بالقوة، ولكن من أصول الشريعة النظر إلى المصالح والمفاسد، فالأمر الذي يؤدي إلى ضرار أو مفسدة بدفع (يؤجل من أجله الحج) فهل هناك مفسدة أو مضرة قد تنتج عن السماح لمسلمي نجد بالذهاب إلى بيت الله؟ ذلك ما نريد الوقوف عليه من الواقفين على السياسة».

ورد الملك عبدالعزيز ومخاطبا الحضور فقال: «نحن لا نود أن نحارب من يسالمنا، ولا نمتنع عن موالاة من يوالينا، ولكن شريف مكة كان دائما كما تعلمون يزرع بذور الشقاق بين عشائرنا، ومع ذلك فقد بذلت كل ما في وسعي لحل المشاكل التي بيننا وبين الحجاز بالتي هي أحسن، وكنت كلما دنوت من الحسين تباعد، وكلما لنت لـه تجافى، أي ورب الكعبة لست أرى في تطور الأمور ما ينعش الأمل، بل أرى الأمور تزداد شدة وارتباكا، ولا يحسن الاستمرار في خطة لا تعزز حقوقنا ومصالحنا» وعند هذه العبارة الأخيرة هتف الجميع: توكلنا على الله، إلى الحجاز، وهكذا تمخض مؤتمر الرياض عن إعطاء إشارة البدء لأهل نجد بإزالة المخالفة الشرعية[١].

وضع الملك عبدالعزيز خطته من أجل العمل، عن طريق القوة، لإزالة المخالفة الشرعية للشريف حسين، وبالفعل تحركت إحدى فرق الجيش السعودي صوب الحجاز، تحت قيادة سلطان بن بجاد والشريف خالد بن لؤي، وفي الأول من صفر سنة ١٣٤٣هـ/ سبتمبر ١٩٢٤، عسكرت بالحوية على مقربة من مدينة الطائف، وتتابعت الأحداث بعد ذلك بسرعة، وكانت كلها في صالح قوات الملك عبدالعزيز.

وجاء يوم السابع عشر من ربيع الأول ١٣٤٣هـ، وفيه كانت مدينة مكة على موعد مع التاريخ، ففي اليوم المذكور شهدت المدينة المقدسة منظرا لم تألفه منذ قرون، منظر القوات السعودية الفاتحة، ورجال يدخلون مكة في صفوف متراصة، وهم محرمون ملبون بالعمرة فطافوا وسعوا، ثم أمر القائد خالد بن لؤي المنادين بقرع الطبول عند مفترق الطرق الهامة وإبلاغ السكان

[١] من هذا النص يتضح لنا أحد أبعاد فكر الملك عبد العزيز في العمل السياسي، وهو تجنب استخدام القوة إلا بعد استنفاد كل الوسائل السلمية.

أنهم في أمان، وأن المدينة المقدسة في حمى الله ثم ابن سعود، وأن ملك نجد يضمن سلامة كل فرد من الأهلين.

وهكذا تمت بنجاح أولى وأهم الخطوات على طريق إزالة المخالفة الشرعية. وصلت أنباء هذه الانتصارات إلى الملك عبدالعزيز بالرياض فتأهب للسفر إلى مكة لكي يقود الأحداث من ميدانها، وحتى يصل بالشوط الذي بدأه رجاله إلى نهايته الحاسمة، وقبل أن يتحرك الركب الملكي خطب عبدالعزيز في مودعيه قائلا:

«إني مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها، بل لرفع المظالم والمغارم التي أرهقت كاهل عباد الله، إني مسافر إلى مهبط الوحي لنبسط أحكام الشريعة، ونؤيد أحكامها فبعد الآن لا يكون سلطان في مكة إلا للشرع، وجميع الرؤوس يجب أن تطاطئ للشريعة، إن مكة للمسلمين كافة، إننا سنجتمع بوفود العالم الإسلامي هناك، وسنتبادل معهم الرأي في كل الوسائل التي تجعل بيت الله بعيدا عن الشهوات السياسية، وتحفظ راحة قاصدي حرم الله. إن الحجاز سيكون مفتوحا لكل من يريد عمل الخير للأفراد والجماعات».

في يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الثاني سنة ١٣٤٣هـ/ نوفمبر ١٩٢٤م بدأت الرحلة الملكية من الرياض إلى الحجاز، وفي ليلة الجمعة، الثامن من جمادى الأولى، وصل الركب الملكي إلى منطقة مكة المكرمة. ولم يرض الملك عبدالعزيز لنفسه أن يدخل مكة فاتحا، بل حاجا بسيطا، فنزع شارته الملكية: سيفه وعقاله الذهبي ووشاحه الملكي، ثم ارتدى ثوب الإحرام البسيط الأبيض وامتطئ جواده حاسر الرأس، وأخذ يردد دعاء التلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

وعلى مقربة من الحرم ترجل الملك عبدالعزيز عن جواده، وسار حافي القدمين تتبعه حاشية صغيرة من الإخوان، ودخل ومن معه إلى الحرم من باب السلام فطافوا ثم صلوا في مقام إبراهيم، وخرجوا للسعي فسعوا بين الصفا والمروة كل ذلك وهم يهللون ويكبرون، وهكذا أدى الملك عبدالعزيز مناسك العمرة، وذلك للمرة الأولى في حياته.

وبعد أكثر من عام من هذا الذي شهدته المدينة المقدسة شهدت مدينة جدة حدثا آخر، شهدت استسلام الملك علي بن الحسين وبالتالي مغادرته لبلاد الحجاز بصفة نهائية حيث، حملته الباخرة (كورن قلاور) من ميناء جدة إلى عدن ومنها إلى بغداد، وذلك تنفيذا لاتفاقية التسليم.

وبعد أسبوع من التوقيع على اتفاقية التسليم وجه الملك عبدالعزيز إلى أهل الحجاز بلاغا عاما، ومما جاء فيه:

«إخواني تفهمون أني بذلت جهدي وما تحت يدي في تخليص الحجاز لراحة أهله وأمن الوافدين إليه إطاعة لأمر الله، قال جل من قائل: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) «البقرة/١٢٥» وقال تعالى: (وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) «الحج/٢٥» ولقد كان من فضل الله علينا وعلى الناس أن ساد السكون والأمن في الحجاز من أقصاه إلى أقصاه بعد هذه المدة الطويلة التي ذاق الناس فيها من الحياة وأتعابها.. وإني أبشركم بحول الله وقوته أن بلد الله الحرام في إقبال وخير وأمن وراحة، وإنني إن شاء الله تعالى سأبذل جهدي فيما يؤمن البلاد المقدسة، ويجلب الراحة والاطمئنان لها».

وهكذا أزيلت المخالفة الشرعية التي كانت مفروضة على الأماكن المقدسة نتيجة لما أقدم عليه الشريف حسين من جعل النزعات السياسية حكما على الدين الإسلامي الحنيف.

وبهذا التطور بدأت حقبة جديدة في تاريخ الحجاز بصورة عامة، والأماكن المقدسة بصورة خاصة، مرحلة جديدة أرسى دعائمها الملك عبدالعزيز، أرسى هذه الدعائم انطلاقا من تعاليم الدين الإسلامي وتأسيا بالسلف الصالح من أئمة المسلمين.

قرابة ثلاثين سنة تلك هي الحقبة التي ارتبط بهما تاريخ الحج بالملك عبدالعزيز - رحمه الله، وفي ضوء التطورات البارزة فإن هذه الحقبة يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

أ- المرحلة الأولى: من أوائل جمادى الثانية سنة ١٣٤٤هـ إلى سنة ١٣٦٥هـ، والتطور الأساسي الذي سيطر على هذه المرحلة يتمثل في سيطرة الملك عبدالعزيز على الحجاز بعد زوال الحكم السابق فيها، وبالتالي شهدت البلاد من أقصاها إلى أقصاها أمرا جديدا بقيت مفتقرة إليه فترة طويلة، وذلك هو الأمن الذي شمل الحضر والبادية.

ب- المرحلة الثانية: تبدأ هذه المرحلة من سنة ١٣٦٥ إلى سنة ١٣٧١هـ ففي التاريخ الأول صدر الأمر السامي بإنشاء مديرية الحج وفي التاريخ الثاني صدر الأمر السامي بإلغاء الرسوم التي كانت تؤخذ على الحجاج، وكل من الأمرين يقدم خطوة عملية على طريق وفاء الملك عبدالعزيز بالعهود التي قطعها على نفسه حيال فريضة الحج والحجاج.

جـ- أما المرحلة الثالثة والأخيرة" فإنها تبدأ بسنة ١٣٧١هـ وتنتهي بوفاة الملك عبدالعزيز في اليوم الثاني من ربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ /

١٩٥٣/١١/٩م، ومع أنها مرحلة مقيدة إلا أنه فيها اكتمل وضع وتطبيق - بل ترسيخ - الأسس التي أرادها الملك عبدالعزيز لهذا الركن من أركان الإسلام، وفي المقدمة صيانة هذا الركن من نزغ التيارات والنزعات السياسية المتباينة، وأيضا الابتعاد به عن أن يكون مصدرا للاستغلال أو الإثراء الاقتصادي، وأخيرا تأمين أكبر قدر ممكن من الضروريات والخدمات في الأماكن المقدسة مما يجعل أداء هذه الفريضة عملية سهلة وميسورة.

والمتتبع لهذه المراحل الثلاث يخرج بنتيجة محددة، وهي أنها لم تكن مراحل ساكنة وثابتة، بل متطورة، وأن خط التطور الذي يربط بينها كان يسير إلى الأفضل دائما إلى الأفضل بالنسبة للحجاج ضيوف الرحمن، وإلى الأفضل بالنسبة للأماكن المقدسة، وإلى الأفضل بالنسبة لبلاد الحجاز، كل بلاد الحجاز.

في هذه المرحلة كانت المهمة أمام الملك عبدالعزيز ضخمة وشاقة للغاية، ولكن عزيمته لم تكن تلين أو تنحني أمام المعضلات، نعم قد عاشت بلاد الحجاز قبل الملك عبدالعزيز سنوات عديدة من الأمن المضطرب، بل والمفقود وبصورة شبه كلية، فمئات الحجاج كانوا يسلبون أو يقتلون كل عام، وغدت جرائم القتل من الجرائم اليومية المألوفة إذ أنها كانت ترتكب طمعا في شيء تافه، قطعة قماش، أو بضعة نقود، أو حفنة تمر.

وكانت السرقة وجريمة قطع الطريق مستشرية كالوباء فما من طريق آمن، وما من قرية في منجى من السالبين، وكان الفساد والرشوة من الظواهر الثابتة في العهد السابق وبالتالي فإن الجرائم على اختلافها كثيرا ما كانت تمر بغير عقاب في مواجهة هذه الحالة المتردية، والتي كان الحجاج في مقدمة المصطلين بنارها، أدرك الملك عبدالعزيز بثاقب رأيه أن الأمر يحتاج إلى

مستويين من العمل، عمل عاجل وعمل على المدى البعيد، والعمل العاجل يتطلب السرعة والحزم مع القوة المرتكزة على العدالة، ولم يكن لمثل هذا العمل الكبير أن يفرض وجوده إلا في إطار لا يستطيع أحد أن ينتقده أو يعارضه، وكان هذا الإطار هو تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية بما في ذلك إقامة الحدود بطبيعة الحال.

وتجربة الملك عبدالعزيز مع هذا الأسلوب على مدى السنوات السابقة تجربة رائعة في نتائجها، لدرجة أنها أحدثت تبدلا جذريا في حياة أهل نجد بمختلف مناطقها.

كانت التدابير الحازمة، والقائمة في الوقت نفسه على تعاليم الدين الإسلامي هي وحدها التي ستخلص الحجاز من الفوضى وانعدام الأمن، فعهد الملك عبدالعزيز إلى حرسه الخاص بمهام الشرطة في مكة، وأقام مفارز صغيرة ثابتة من الإخوان في القرى والمدن، وسير دوريات متنقلة تتألف كل منها من عدد من الفرسان في شتى أنحاء البلاد.

قامت مفارز الأمن هذه بتطبيق أحكام الشريعة بصرامة لا هوادة فيها، فكان القتلة والمجرمون يساقون إلى محكمة مؤلفة من ثلاث أشخاص، وكانت الإجراءات حازمة وناجزة، فالقاتل يقطع رأسه، بينما تقطع اليد اليمنى للسارق الذي يقبض عليه متلبسا، فإذا لم يرتدع قطعت الثانية ثم القدم اليمنى فالقدم اليسرى، ومن وجد مخمورا ضرب ثمانين جلدة، وأما الزناة المحصنون فيطمرون حتى منتصف أجسامهم في الرمل ويرجمون حتى الموت.

هذه هي أحكام الشريعة وهذا هو أسلوب التنفيذ، ولا يستطيع أحد أن يحتج أو يعارض، لأن ذلك معناه معارضة الشريعة الإسلامية التي يدين بها والتي

توارثها عن الآباء والأجداد، والتي كان لبلاد الحجاز شرف احتضانها منذ بزوغ فجر الإسلام.

وقد آتت هذه الخطة ثمارها بصورة مدهشة فقد ساد الأمن والنظام أنحاء الحجاز خلال وقت قصير، وجاءت الصورة الجديدة مباينة تماما لما كان يسود الحجاز على مدى فترة طويلة، أما المستفيدون من هذا التطور فيأتي في مقدمتهم الحجاج بطبيعة الحال.

هذا هو العمل الإنقاذي، وهذه هي نتيجته المبكرة، وإلى جانب ذلك لجأ الملك عبدالعزيز إلى خطة طويلة المدى هدفها الأساسي اقتلاع عادة الغزو أو الإغارة التي كانت مترسبة في أعماق نفوس بعض أبناء القبائل البدوية في الحجاز، والتي غدت جزءا لا يتجزأ من نمط حياتهم، وموردا أساسيا لمعيشتهم على مدى عشرات السنين، وكان الحجاج بطبيعة الحال يأتون في المقدمة بين ضحايا الغزو والإغارة ضحايا إن لم يكونوا في حياتهم ففي أموالهم.

رأى الملك عبدالعزيز ببصيرته النافذة أن عادة الغزو هذه يجب أن تستأصل حتى تختفي وإلى الأبد من حياة الحجازيين، والسياسة الثابتة للملك عبدالعزيز أن توفير وتأمين الاستقرار من أول واجبات الدولة، وأن القبائل البدوية التي كان بعض أبنائها مصدر عدم توفر الطمأنينة والأمن والسلام يجب أن تصبح هي العامل المساعد على نشر الأمن وترسيخ الطمأنينة.

وهذا الأسلوب واحد من الخصائص التي تميز عمل الملك عبدالعزيز، والأسلوب الذي أعنيه هو قلب العوامل السلبية إلى عوامل إيجابية وعنصر العظمة في هذا الأسلوب أنه حضاري وأن نتائجه كانت وبصفة دائمة موفقة وناجحة.

ويعود نجاح هذا الأسلوب إلى شخصية الملك عبدالعزيز، والسمعة التي ترسخت عنه، ففي ذلك الوقت كانت قد تكونت للملك عبدالعزيز سمعته كبطل لا يقهر، وكإمام في تطبيق حدود الشريعة الإسلامية، وكعادل لا يعرف التفرقة بين هذا وذاك وكمعطاء للمحتاجين لا يخشى الفقر، وكمؤسس للهجرة التي أحدثت تحولا جذريا في حياة البدو.

في ضوء كل هذه الاعتبارات ورغبة في الوصول إلى الهدف النبيل دعا الملك عبدالعزيز شيوخ القبائل الحجازية فأكرمهم وأعطاهم، ثم أبلغهم أنه يعرف كما يعرفون حمى كل عشيرة في البادية ومداه، وأن شيخ كل عشيرة سيصبح بعد اليوم المسئول عن كل ما يقع في مدى عشيرته مما يخل بالنظام والأمن فإن سيطر عليه وقمعه فبها ونعمت، وإلا وجب على شيخ العشيرة المجاورة له أن يتصدى لحفظ النظام والأمن، فإن أبطأ أو عجز تدخل جيش الملك ليفرض النظام ويوفر الأمن.

بعد هذه القاعدة العامة قدم الملك عبدالعزيز لشيوخ العشائر قائمة المحظورات مع أسبابها وعقوبات مخالفيها، فحظر الغزو، وحظر فرض (الخوة)[1] أو أخذها، ومنع فرض الضرائب إلا من قبل الدولة، كما جعل الدولة هي المسئولة وحدها عن عقاب المزيف، وشجع على إقامة (الهجر) ليعلم العشائر الزراعة والاستقرار، بدل الرعي والارتحال، وحظر على العشائر أن تقيم مضاربها على الطرق العامة ليبقى المسافرون أكثر شعورا بالاطمئنان على أنفسهم وأموالهم وتجاراتهم.

وكما كان النجاح حليف الخطة العاجلة فإنه قد حالف الملك عبدالعزيز في تنفيذ خطته ذات المدى البعيد، وانتقلت القبائل المغيرة إلى قبائل مدافعة عن

---

(1) الخوة: نوع من الأتاوة كانت تأخذها العشائر من المارين خلال حماها.

الأمن وقد نعم بهذه النتائج الإيجابية أهل الحجاز كما نعم به أيضا ضيوف الرحمن وأصبح الأمن في بلاد الحجاز أحد الصور الباهرة التي أخذ الحجاج يشيدون ويتغنون بها في مواطنهم الأصلية.

وهكذا تألق اسم الملك عبدالعزيز مقترنا بهذا الإنجاز الرائع والنقلة الحضارية الهائلة التي غدت مضرب الأمثال.

المرحلة الثانية:

إن انهماك الملك عبدالعزيز في معالجة مشكلة الأمن في الحجاز لم يبعده عن موضوع الحج والحجاج، بل إن هذا الموضوع الأخير كان له نصيبه الكبير في تفكيره وتخطيطه حتى قبل أن يفرض سيطرته الكاملة على بلاد الحجاز فقد حدث في أثناء الحصار الذي كان مفروضا على جدة أن حل موسم حج سنة ١٣٤٣هـ، وكان الملك عبدالعزيز قبل ذلك قد وجه نداء إلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يخبرهم بأن النظام قد ساد في البلدة المقدسة واستتب الأمن فيها، وأنه يرحب بحجاج بيت الله الحرام من المسلمين كافة في موسم هذه السنة، ويتكفل بتأمين راحتهم والمحافظة على جميع حقوقهم، وتسهيل سفرهم إلى مكة من مواني رابغ أو الليث أو القنفذة.

وقد استجاب للنداء ثلاثة آلاف من حجاج الهند فأدوا فريضة الحج وعادوا إلى بلادهم سالمين نتيجة لما أحيطوا به من عناية فائقة فنشروا على العالم بعد عودتهم ما يطمئن المسلمين على مقدساتهم في ظل حماية الملك عبدالعزيز.

وفي موسم الحج التالي كانت الحرب قد وضعت أوزارها، وغدت بلاد الحجاز كلها تحت سيطرة الملك عبدالعزيز، كما أن اسم الملك عبدالعزيز أخذ يتألق نتيجة لبوادر نجاحه في توفير الأمن ونتيجة لذلك وصل عدد الحجاج سنة

١٣٤٤هـ القادمين من البلاد الإسلامية الأخرى زهاء مائة ألف وهذا رقم قياسي بالنسبة لأعداد الحجاج في العقدين السابقين قبل ذلك.

أخذت المسيرة الخيرة طريقها قدما مع إضافات مستمرة من الخدمات التي تيسر أمام الحجاج أداء هذه الفريضة، والخدمات التي قدمها الملك عبدالعزيز للحج والحجاج في تلك الفترة كثيرة لا تتسع هذه الصفحات لإحصائها، ولكن نكتفي بالإشارة إلى أبرزها، أقام الملك عبدالعزيز نواة الجهاز الصحي، وتطور هذا الجهاز باستمرار مقدما خدماته لضيوف الرحمن في إطار مهمته الأساسية والتي هي منع انتشار الأمراض الوبائية فأقيمت المراكز الصحية في مكة والمشاعر المقدسة، كما أقيمت مراكز لإسعاف الجرحى من الحجاج.

وتوفير الراحة للحجاج كانت أيضا من الأهداف التي حرص الملك عبدالعزيز على تحقيقها فأنشأ جهازا للنقل المنتظم بين موانئ الساحل ومكة والمدينة، وذلك بأجور عادية بعيدة عن الجشع والاستغلال وعنّي بتوفير الماء للحجاج فأمر ببناء أحواض كبيرة للمياه في عرفات وعلى مقربة من الطرق التي تسلكها القوافل.

وإضافة إلى كل هذا، وعلى الرغم من الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تعاني منها البلاد في هذه السنوات المبكرة، حرص الملك عبدالعزيز على توفير الأطعمة المناسبة للحجاج.

وهكذا أخذت الأمور تتطور بالحج والحجاج كل عام من حسن إلى أحسن حتى كانت سنة ١٣٦٥هـ وفيها أصدر الملك عبدالعزيز أوامره بإنشاء المديرية العامة للحج مهمتها الإشراف على كل ما يتصل بالحج وتقديم أفضل الخدمات لضيوف الرحمن.

وتجسيدا لأعمال المديرية وتمكينا لها من أداء وظائفها فقد حققت الدولة لها أول ميزانية بلغت ٣٨٧٥٧٠ ريالا سعودية (نحو ٤٧ ألف جنيه استرليني)، وكان هذا أمرا جديدا على وفود الحجيج انعكس أثره الإيجابي بشكل واضح على الخدمات المقدمة لهم.

وقد قامت المديرية بالعديد من الأعمال الجليلة وتهدف كلها إلى توفير أكبر قدر ممكن لراحة ضيوف الرحمن، وذلك بتنظيم أمورهم، ومرافق الخدمات التي تقدم لهم، كي لا يكون استغلال من قبل الأطراف المتعاملة معهم.

ومن أهم الأعمال التي قامت بها مديرية الحج استقبال الحجاج عند وصولهم إلى الحجاز من البر أو البحر أو الجو لتيسير الإجراءات لهم، وتهيئة أماكن نزولهم، والعناية بحركة تنقلاتهم، وتنظيم أمورهم حتى في تأدية المناسك إلى أن يغادروا البلاد عائدين إلى أوطانهم سالمين.

وقامت المديرية بمساعدة إدارات الصحة والإسعاف والشرطة والبلديات في ترتيب الرحلات بين مكة والمدينة، وقد أنشأت المديرية مشارب للماء في أماكن متعددة على طول الطريق، كما أقامت المديرية مراكز ثابتة ومتنقلة مفتشين من قبلها مهمتهم الأساسية توفير الراحة للحجاج على طول طريق مكة – المدينة.

وأقامت المديرية العديد من المخيمات في المحطات الرئيسية لاستراحة الحجاج وترتيب برامج أسفارهم ومواعيدها، كما أقامت مظلات في مساحة المناخة بالمدينة وبنت نحو عشرين حماما بذي الحليفة (آبار علي) وهي ميقات القادم من المدينة، كما أقامت مجموعة من الحمامات في المخيم الحكومي، وفي الشمال الشرقي خارج جدة وذلك لخدمة فقراء الحجاج وعقب أداء الفريضة.

وأنشأت محطة خاصة بالتائهين في عرفات ومنى لإيوائهم وإطعامهم وإرشاد كل منهم إلى مقره، وترحيل الباقين من مزدلفة إلى عرفات، ومنها إلى منى ثم إلى مكة.

وقامت المديرية بإصدار نشرات موسمية يومية بترتيب أفواج الحجاج حسب قدومهم، وتنظيم مواعيد سفرهم إلى المدينة للزيارة بعد الحج، وإلى جدة للعودة إلى بلادهم.

ومن إنجازات المديرية أيضا إصدارها مجلة شهرية باسم (الحج) وهذه المجلة لها فوائدها الكثيرة والمتعلقة بالحج.

وبصورة عامة فإن المتتبع لأوضاع الحجيج في هذه المرحلة يلمس بوضوح الآثار البناءة والنتائج الإيجابية لأعمال مديرية الحج، والتي انعكست على كافة الحجيج في مختلف المواقع التي كانوا يتواجدون فيها، في مكة المكرمة، وفي غيرها من المدن والأماكن ذات العلاقة وحيث كانت توجد فروع المديرية في المدينة وفي جدة وغيرها من الموانئ الحجازية.

وهكذا إذا أضفنا هذه الإنجازات إلى الأعمال التي تمت في المراحل الأولى، لتبين لنا أن التطور كان يسير إلى الأفضل دائما. وأنه بفضل هذه الإنجازات غدت صورة الحج مخالفة تماما للصورة القائمة التي كانت موجودة أثناء عهد الشريف حسين، وهذه صفحة مشرقة وإنجاز كبير يسجله التاريخ للملك عبدالعزيز – رحمه الله –.

المرحلة الثالثة:

تبدأ المرحلة الثالثة من شهر رمضان سنة ١٣٧١هـ، ففي هذا الشهر صدر أمر المغفور له الملك عبدالعزيز بإلغاء رسوم الحج اعتبارا من حج عام ١٣٧١هـ، وهذا هو نص المرسوم الملكي الصادر بهذا الشأن.

بعد الاعتماد على الله فقد أمرنا بإلغاء رسوم الحج اعتبارا من هذا العام، ومن أخذ منه عن هذه السنة يرجع له، أما ما يتعلق بالخدمات العامة للحجاج من أجور مطوفين وتنقلاتهم ومنازلهم وما يتبع ذلك تجرى حسب العادة هذه السنة، وفي المستقبل يرتب الأمر بين الحجاج وأهل تلك الخدمات حسبما يصير عليه الاتفاق، نسأل الله أن يجعل هذا مساعدا للمسلمين لأداء هذا الركن من أركان الإسلام.

وإلى جانب ذلك صدرت إدارة الملك عبدالعزيز بأن الحكومة لا تتوسط في تحصيل شيء من العوائد المستحقة على الحجاج لقاء الخدمات التي يقوم بها المطوف وغيره وأن يترك هذا بيد الحجاج وأهل الخدمات الذين يقومون بخدماتهم.

وإلغاء رسوم الحج يعتبر واحدة من المكرمات الكبيرة التي قدمها الملك عبدالعزيز للحج والحجاج، ويكفي أن نعرف أن هذه الرسوم كانت تدر على الخزانة حوالي ثلاثين مليون ريال سعودي، أي حوالي سبعة ملايين دولار، وهذا المبلغ لم يكن قليلا بالنسبة لميزانية المملكة التي كانت آنذاك في بداية جني ثمار الثروة البترولية.

وفي السنة السابقة على هذا الإجراء مباشرة كانت جملة الموارد السنوية للمملكة قد ارتفعت إلى خمسة وعشرين مليون جنيه، ومن هذا يتضح أن التضحيات التي تحملتها المملكة نتيجة لإلغاء رسوم الحج كانت كبيرة، وذلك لكي يؤكد الملك عبدالعزيز مصداقية ما كان يقوله من أنه لا يريد أن يجني أية أرباح مادية من حكمه الديار المقدسرة.

على أية حال، فإن هذا الإجراء قد قوبل البشر والابتهاج من المسلمين في كافة الأقطار، وأشادت به الصحف المصرية والشامية والباكستانية وغيرها

واعتبره أحد الباحثين عهدا جديدا ليس بالنسبة إلى السعودية فحسب، وإنما إلى الحج نفسه إذ أعطاه المظهر اللائق به.

وتسجل سنة ١٣٧١هـ إلى جانب ما سبق إنجازا آخر استهدف راحة الحجاج فقد أمر الملك عبدالعزيز بإنشاء مدينة الحجاج، وبالفعل أنشئت المدينة بالقرب من ميناء جدة، وكانت هذه المدينة من الضخامة بحيث تتسع لآلاف الحجاج.

وفي هذه المدينة كان الحجاج يجدون المأوى والرعاية دون مقابل، وهذه خطوة عظيمة لم يسبق لأي حكومة في الحجاز أن عملت مثلها، وإنشاء مدينة الحجاج قد انطلق من المنطلق نفسه الذي كان وراء إلغاء رسوم الحج، أي حقيقة أن الملك عبدالعزيز لم يكن يريد أن يجني أية أرباح مادية من حكمة الديار المقدسة.

وعمل آخر سجله تاريخ الحج في العام المشار إليه أيضا، ويتمثل هذا العمل في وصول البرقيات والرسائل التي ترد باسم الملك عبدالعزيز إليه شخصيا، والغرض الأساسي لهذا الإجراء أن يكون الرجل العادي في الحجاج أقرب إلى الملك من أي شخص آخر، أما الأهمية التي يعكسها هذا الإجراء فإنها تبرز في أنه يجعل كل شخص له علاقة بالحجاج وشئونهم يحسب ألف حساب في معاملته لهم، إذ أنه يعلم علم اليقين أنه في قدرة أي شخص منهم أن يدفع تقريره أوشكوه إلى الملك رأسا ضد أي شخص كائنا من كان، ويعلم علم اليقين أيضا أنه لن يتهاون في إيقاع العقاب الشديد بكل من تسول له نفسه استغلال أو إساءة معاملة الحجاج.

هذا بالنسبة للحجاج، أما الأماكن المقدسة بما فيها من مشاعر فقد حظيت أيضا باهتمام كبير من قبل الملك عبدالعزيز وذلك على الرغم من الإمكانيات الاقتصادية المحدودة في بادئ الأمر ويستطيع الباحث أن يؤكد أن الأماكن

المقدسة كان لها نصيب الأسد في الخيرات التي أخذ يدرها النفط على المملكة في السنوات الأخيرة من عهد الملك عبدالعزيز، وقد انعكس ذلك في العديد من المشروعات الضخمة والتي شهدتها مكة المكرمة وعرفات والمزدلفة ومنى، وأيضا جدة والمدينة المنورة.

وفي مقدمة هذه المشروعات التوسعة التي تحققت للمسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي بالمدينة المنورة، والإضافة إلى التوسعة فقد تمت إضاءة الحرم بالكهرباء مع رصف المطاف وأروقة الحرم بالرخام، وإقامة المظلات بالمناطق المكشوفة حول الحرم وداخله، وأقيمت دورات مياه تخدم قاصدي الحرم وتوفر لهم المستوى الصحي الملائم وذلك مع العديد من المستشفيات والمراكز الصحية، كما تم أيضا فتح العديد من الطرق التي تسهل الوصول إلى الحرم من أحياء مكة.

وبالنسبة لعرفات تم إنشاء طريق جديد مسفلت يربط بين مكة وعرفات وأقيمت مظلات عديدة فى عرفات، وزيدت كميات المياه الواصلة إلى عرفات مع تنظيم وصولها إلى مختلف مناطق عرفات، هذا بالإضافة إلى شق العديدمن الطرق الأساسية والفرعية، وإقامة المراكز الصحية التي تقدم المعالجة والدواء.

وما تم إنجازه في عرفات أنجز نظيره في كل من المزدلفة وأيضا جدة والمدينة المنورة، ومنى، وذلك حسب متطلبات كل منطقة وفترة مكوث الحجاج بها وهذه الإنجازات كلها قصد بها أمر واحد هو توفير الراحة للحجاج وتقديم أفضل الخدمات لهم سواء فيما يتصل بالإقامة أو المأكل أو الرعاية الصحية.

والذي يطلع على إنجازات الملك عبدالعزيز فيما يتصل بالأماكن المقدسة يجد أن توفير المياه مع أكبر قدر من الرعاية الصحية كانت دائما في مقدمة

اهتمامات الملك عبدالعزيز، وكل من زار مكة يدرك جيدا القيمة الحيوية الكبرى لهذين العنصرين في حياة الحجاج، فإذا أضفنا إلى ذلك المظلات الواقية من حرارة الشمس والتي أقيمت بشكل كبير في مختلف المشاعر المقدسة لأدرك المرء أنه بفضل الله أولا ثم بفضل هذه الإنجازات للملك عبدالعزيز حفظت حياة الألوف من حجاج بيت الله الحرام، والذين كانوا يموتون عادة بتأثير الأمراض الوبائية وضربات الشمس.

وجانب آخر من الجوانب التي ربطت بين الملك عبدالعزيز – رحمه الله – والحج، وذلك هو حرصه على التواجد بمكة المكرمة في الموسم مع إقامة حفل أو مؤتمر سنوي يحضره قادة الحجيج من مختلف الأقطار الإسلامية.

وفي هذا المؤتمر السنوي كان الملك عبدالعزيز يلقي خطابا يعالج فيه أبرز القضايا التي تشغل بال المسلمين من النواحي الدينية والسياسية على المستويين المحلي والعالمي وكان لهذه الخطب صداها الطيب وانعكاساتها الإيجابية القوية على المسلمين في كافة أرجاء العالم، وذلك لأنها كانت تقدم مشكلات المسلمين وقضاياهم من منظور إسلامي خالص، محرر تماما من التبعية لهذه القوة أو تلك، وبعيد عن التلون بهذا الاتجاه أو ذاك.

ومن يطالع كتاب (المصحف والسيف) يجد أنه يضم مجموعة من الخطب التي ألقاها الملك عبدالعزيز في هذه المناسبة على مدى العديد من السنوات، وهذه الخطب في مجموعها تكاد تقدم تصورا كاملا لفكر الملك عبدالعزيز في الجوانب الدينية والسياسية.

وبهذا الأسلوب أبرز الملك عبدالعزيز إحدى الغايات المستفادة من الحج توافقا مع قوله تعالى {ليشهدوا منافع لهم} وبهذا الأسلوب أو التقليد أعاد

الملك عبدالعزيز لهذا الركن من أركان الإسلام مكانته اللائقة به والتي تمتع بها في فترات الازدهار من التاريخ الإسلامي.

استمرار التطور والعطاء:

توفي الملك عبدالعزيز في الشهر الثالث من سنة ١٣٧٣هـ وذلك بعد أن حدد القواعد الأساسية لما يجب أن يكون عليه الحج كفريضة، وما يجب أن تكون عليه الأماكن المقدسة وفي المقدمة الحرمان الشريفان، كمواطن تهفوا إليها أفئدة الملايين من المسلمين.

يسجل الباحث المعاصر بوصفه شاهد عيان أن السياسة التي انتهجها الملك عبدالعزيز تجاه الحج لهم لم تتوقف بوفاته، بل إنها وفي عهود الملوك من أبنائه، استمرت وعلى مستوى المزيد من التطور والعطاء، وقد جاء هذا الاستمرار نتيجة طبيعية للإيمان العميق لدى كل من تحمل المسئولية بعد الملك عبدالعزيز بالسياسة التي أنتهجها الوالد طيب الله ثراه، إضافة إلى أن الفكر الإسلامي والعمل لدى الإخوة الملوك يشكلان كلا لا ينفصم ولا يتجزأ فلا يأخذ القول لونا مغايرا ولا يوجه القول إلى جماعة والعمل إلى جماعة أخرى.

هذا السداد في التوجه والوضوح في المواقف، والإدراك لأمانة المسئولية، أعطى السياسة التي وضع قواعدها الملك عبدالعزيز، تجاه الحج سمة الاستمرار مع المزيد من التطور والعطاء، ومن يرقب حركة التطور وسجل الخدمات الذي شهدته الأماكن المقدسة على مدى السنوات التي أعقبت وفاة الملك عبدالعزيز وحتى وقتنا الحاضر يتضح له أن الخط البياني للإنفاق والخدمات في إطار الحج والأماكن المقدسة قد سجل تصاعدا كبيرا، ويبرز هذا التصاعد من خلال الحقائق التالية[1]:

[1] ما نقدمه هنا مجرد نماذج فقط. أما التفاصيل فلا يتسع لها هذه الصفحات.

في سنة ١٣٨١خـ أنشئت وزارة الحج والأوقاف، وجلى من هذه التسمية أن الوزارة تعنى بشئون الحج في المرتبة الأولى، والعناية بشئون الحج من خلال جهاز على مستوى وزارة الحج والأوقاف في تطور مستمر من خلال الخدمات الكثيرة والمتنوعة التي تقدمها لضيوف الرحمن في الأماكن المقدسة وغيرها من المواقع والمناطق المرتبطة بها.

إن إنشاء مدينة الحجاج في جدة في سنة ١٣٧١هـ يمثل بداية سار على نسقها الملوك أبناء الملك عبدالعزيز، فقد طوروا هذه البداية ووسعوا ميدان خدماتهم حتى أصبحنا نرى العديد من المدن الضخمة للحجاج في كل من جدة وينبع ومكة والمدينة، وأولت المملكة العربية السعودية عنايتها للحجاج الفقراء فأقيمت لهم المدن هنا وهناك، وفي هذه المدن يجد الحجاج الفقراء الراحة والرفاهية، وأيضا المواد الغذائية وكل أنواع الخدمات.

وتطويرا لهذه الفكرة الرائدة والخبرة أيضا انتشرت على الطرق الرئيسية التي تربط بين الأماكن المقدسة من ناحية ومختلف المناطق في الجزيرة العربية من ناحية أخرى العديد من المدن المؤقتة والخاصة بالحجاج، وفي هذه المدن تتوفر الخدمات الاجتماعية والرعاية إضافة إلى المواد الغذائية والمياه النقية كل ذلك في إطار كامل من الأمن والأمان.

كما تتنافس الجهات الحكومية المختلفة في إقامة المسعكرات في المشاعر المقدسة أثناء موسم الحج وتلتقي أهداف هذه المعكسرات في أمر واحد وهو تقديم أفضل الخدمات لضيوف الرحمن، خدمات على المستوى الصحي وعلى المستوى الاجتماعي، وعلى المستوى الأمنى، بصورة عامة فقد تطورت فكرة مدينة الحجاج إلى سلسلة من الإنجازات العظيمة، التي يستظل بظلها وينعم بخدماتها مئات الألوف من الحجاج.

وتوسعة الحرم النبوي الشريف في عهد الملك عبدالعزيز تمثل إشارة البدء لسلسلة متصلة من التوسعات بالنسبة للحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وذلك حتى وقتنا الحاضر.

ولم تقتصر التوسعات على المسجد الحرام والمسجد النبوي، بل شملت مساجد نمرة والحنيف وآبار علي، وزودت كل هذه المساجد بالتجهيزات الحديثة وعمليات التدفئة والتبريد حسب فصول السنة، كما زودت هذه المساجد بمياه الشرب المثلجة، بل ويشهد الحجاج في شوارع مكة والمدينة، وأيضا في منى وعرفات من يتقدمون إليهم بالماء المثلج والمرطبات هدية من ملك المملكة العربية السعودية، يالها من هدية عظيمة في الجو القائظ والازدحام الكبير.

والمظلات التي أنشئت في عهد الملك عبدالعزيز جاءت بداية لظاهرة غدت من المعالم الكثيرة والمألوفة في الأماكن المقدسة وغيرها من الأماكن ذات الصلة بالحجيج، وذلك حتى وقتنا الحاضر.

وتمثل المظلات التي أقيمت في السنوات الأخيرة تمثل صورة رائعة لتطور البداية التي عرفت في عهد الملك عبدالعزيز، فهي مظلات لا توفر الظل فقط، بل تقدم أيضا المأوى والحماية مع الأمن والأمان.

والحديث عن الطرق هو الآخر يقدم نموذجا لمستوى التطور والنماء للبدايات التي حدثت في عهد الملك عبدالعزيز، فرصف الطريق بين جدة ومكة، وكذلك الطريق بين مكة وعرفات، أقول: البداية التي تمثلت فيما سبق تطورت حتى غدت عملاقا كبيرا جعلت السفر بين مكة والمدينة وجدة، بل وجعلت السفر إلى هذه المدن من مختلف المناطق في المملكة متعة كبيرة لما تتميز به هذه الطرق من اتساع ووسائل خدمة وأمان، كما أن الكبارى والأنفاق في مكة وعرفات وغيرها يسرت أمام الحجيج مهمتهم، وجعلت الألسنة تلهج بالثناء

والدعاء، الثناء على أولى الأمر في هذه البلاد الطيبة المباركة، والدعاء لهم بطول العمر ودوام التوفيق.

ومن الأماكن المقدسة حرص ملوك آل سعود أن تنطلق الدعوات البناءة، ليستظل بظلها جميع المسلمين في مختلف المواطن والقارات، فمن مكة المكرمة أطلق الملك عبدالعزيز دعوة التضامن الإسلامي، وقد حمل لواء الدعوة من بعده الملوك أبناؤه حتى أصبحت في وقتنا الراهن إحدى الركائز الأساسية في السياسة الإسلامية المعاصرة.

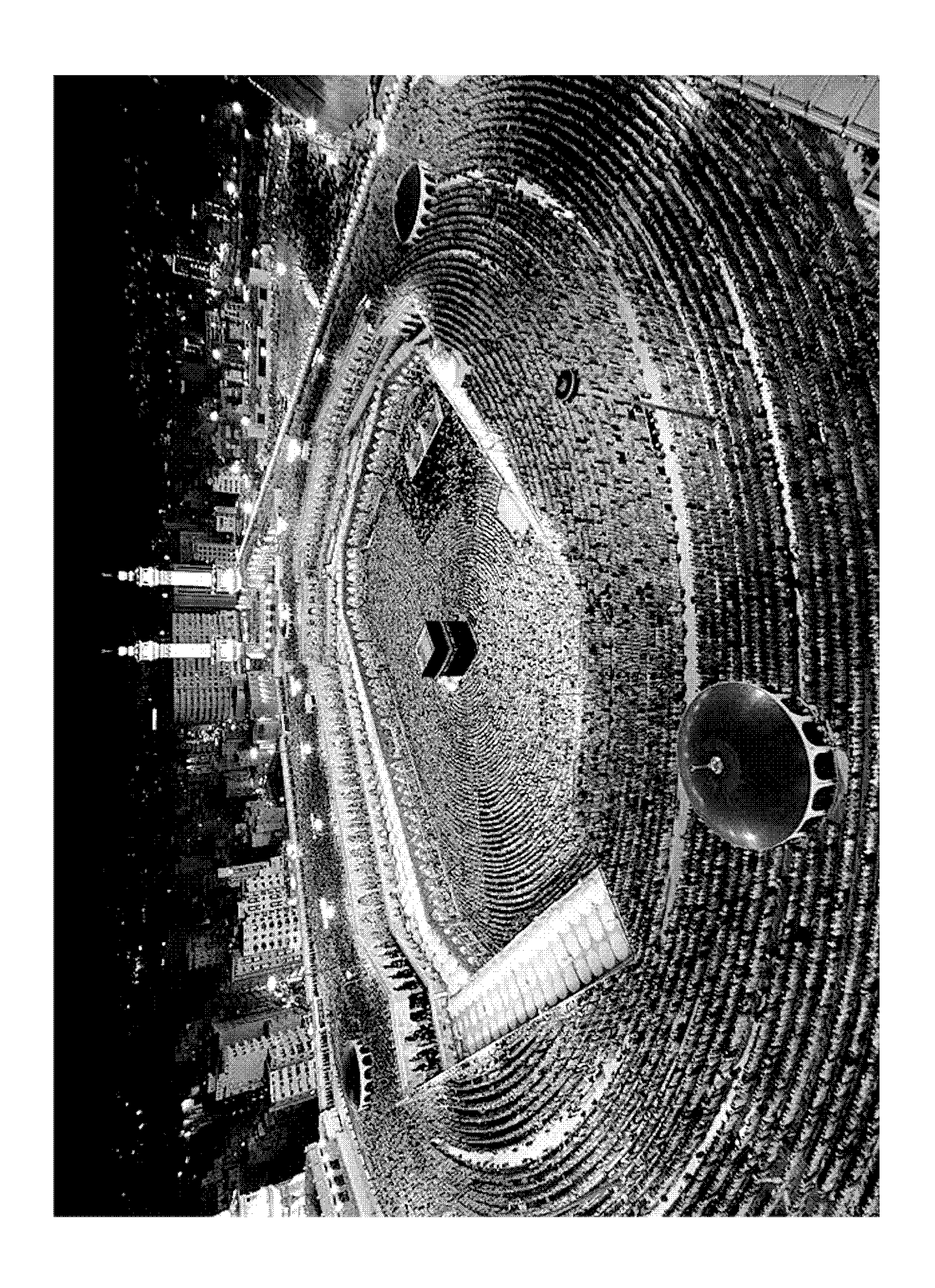
وفي المدينة المنورة أقام الملك فهد بن عبز العزيز مجمعا لطباعة المصحف الشريف، طباعة على الأصول الإسلامية الصحيحة وحتى تغلق الأبواب أمام محاولات التزييف والتشويه. ومن هذا المجمع تصدر كل عام مئات الألوف من النسخ الموثقة للمصحف الشريف، وترسل إلى مختلف الأقطار لتوزع بالمجان على المسلمين.

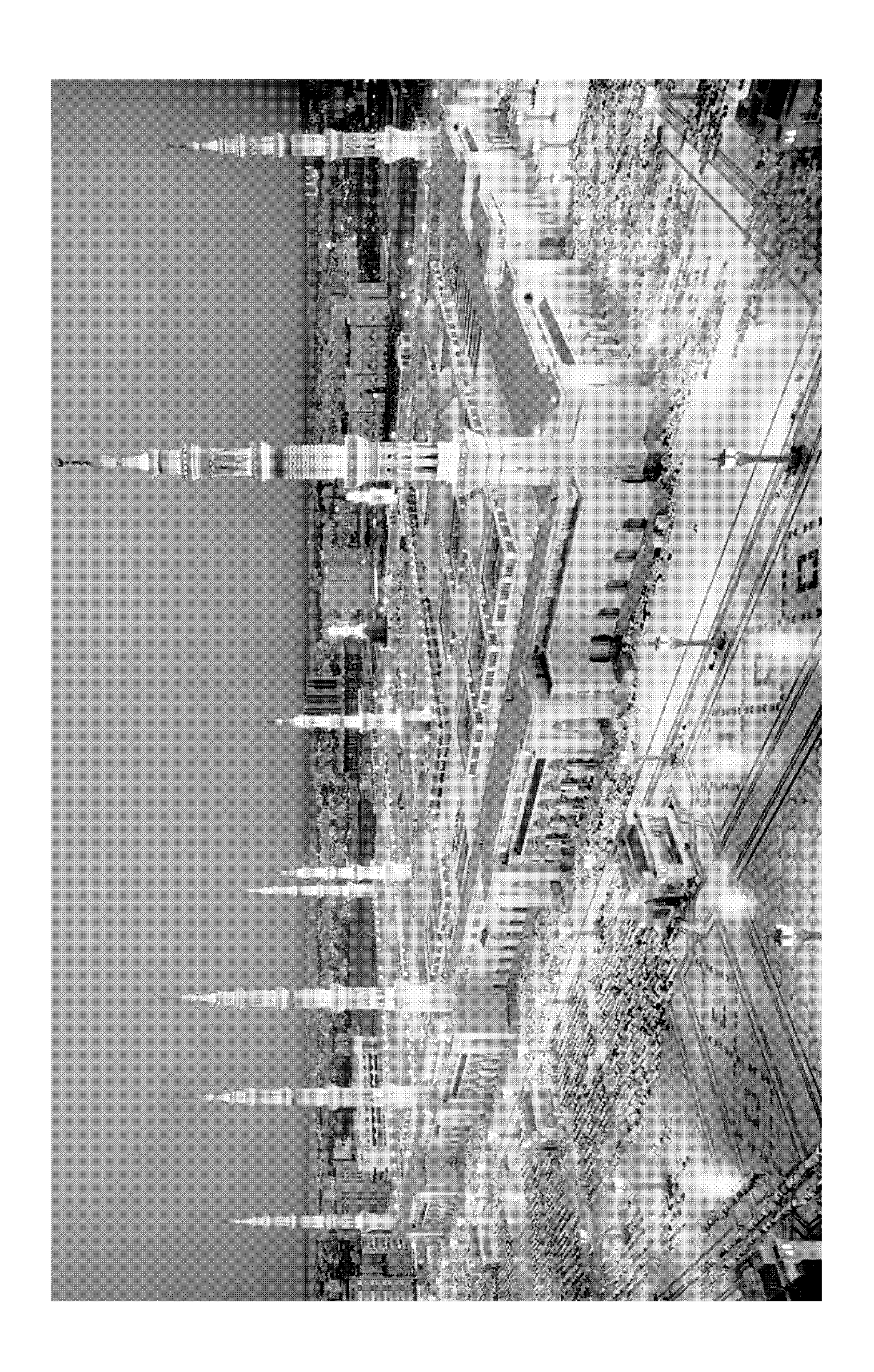
وأخيرا وليس آخرا، فإن التاريخ المعاصر يسجل للملك فهد بن عبدالعزيز والملك عبدالله بن عبدالعزيز إنهما آثرا لقب (خادم الحرمين الشريفين) على لقب (صاحب الجلالة) والملكان بهذا الموقف يؤكد استمرارية البيت السعودي العريق على النهج القويم الذي أرسى قواعده الملك عبدالعزيز كما يقدم قمة عالية لتطور ونماء البدايات الرائدة التي ارتبطت باسم الملك عبدالعزيز.

فطيب الله للملك عبدالعزيز ثراه، وتغمد الذين توفوا من أبنائه برحمته ورضوانه وأمد الباقين على قيد الحياة بطول العمر والتوفيق في خدمة الإسلام والمسلمين[١].

---

[١] الحج فى عهد الملك عبد العزيز للدكتور حامد غنيم أبو سعيد.





النهضة الإصلاحية العظيمة

في عهد حكومة الملك عبدالعزيز الزاهر

الحكم بالشريعة الإسلامية عنوان النهضة

تتجلى آثار حكومة الملك عبدالعزيز في النهضة الواسعة الشاملة التي ارتفع بنيانها، حتى غدت كالطود الراسخ، وكانت هذه النهضة هي البداية المباركة للنهضة الحضارية التي تشهدها المملكة في أيامنا هذه، فقد أسس الملك عبدالعزيز دعائم هذه النهضة على أسس قوية سليمة، وأتى من بعده أبناؤه فأكملوا ما بدأه والدهم، وساروا على هدى من حكمته وحكومته.

وتتجلى أيضا في تلك العلاقات التي أنشأها الملك عبدالعزيز مع الدول الشقيقة والصديقة، والتي كان لها الأثر الكبير في دعم تلك النهضة.

وتتجلى أيضاً في تلك المعالم التي كانت آثارا ملموسة في كل مدن المملكة، وفي تلك التغيرات التي شهدتها حواضر المملكة وبواديها.

وغير خاف ما كان لرجالات المملكة من دور في إثراء هذه النهضة المباركة.راح – رحمه الله – يبحث عن وسائل الرقي والنهوض بهذه الأمة، فما عرف شيئا فيه مصلحة إلا دعا إليه، ولا عرض عليه أحد رجالاته موضوعا صالحا إلا ناقشه ونفذه، ولم يكن متعجلا في طريقة الإصلاح، بل كانت عادته أن يفضل التؤدة والتأني، ويعرف استعداد الشعب لما يريد من الإصلاح.

كان يعتقد أنه بهذه الطريقة سيأتي اليوم الذي تبلغ به الجزيرة أسمى آيات التقدم في جميع المجالات، والرقي في ظل عقيدة التوحيد، وقد كان... فما ترى شيئا من النهضة العظيمة إلا وهو يدين بالفضل لبانيها ومؤسسها المصلح العظيم – رحمه الله.-

إن النهضة الإصلاحية التي قام بها هذا الرجل الكبير تحتاج إلى مجلدات ضخمة، ولكن نورد بعضا منها لنستدل به على العقلية الموهوبة والمتفتحة على كل معالم الحياة بلا حدود، والضاربة بعمقها في كل المجالات، والمحوطة بالرعاية والتوفيق من الله – سبحانه وتعالى.

كان – رحمه الله – قد ركب السيارة لأول مرة عام ١٣٤٤هـ، ورأى فوائدها في تقريب المسافات فلم يستقل بها بل سمح لجميع أفراد الشعب باستخدامها، فدخلت إلى البلاد السيارات بأنواعها وأحجامها.

أنشئت في عهده إدارة عامة للصحة والشرطة والأوقاف والبريد والبرق واللاسلكي، وأنشئت كذلك مديرية للشؤون العسكرية، ومديرية للشؤون الخارجية، والمديرية العامة للزراعة، وشكلت المحاكم الشرعية، وبيوت المال، وكتّاب العدل، والمجالس التجارية، وأيضا مؤسسة النقد العربي السعودي.

أعفي جميع المواد الغذائية، ومواد البناء وغيرها من الرسوم الجمركية، وقام بشراء الآلات الزراعية الحديثة، ووزعها على الفلاحين للنهوض بالزراعة، واهتم بالتعليم، ففتح كثيرا من المدارس المتنوعة، واهتم بالمعاهد الدينية والمكتبات العامة، وأرسل البعثات العلمية إلى الخارج للإسهام في النهضة التعليمية، وأنشأ – رحمه الله – المستشفيات والمستوصفات في المدن الكبيرة، وأنشأ المراكز الصحية في طريق الحجاج، وأدخل نظام التطعيم، وصرف الدواء بالمجان.

هذا قليل من كثير في داخل البلاد، فقد عاش لخدمة شعبه ورعايته، فلم يمر يوم إلا وفيه جديد مما يعود على البلاد بالخير العميم.

ولقد نادى الملك عبدالعزيز بتأليف لجنة عام ١٩٣٧م تضم عدة شخصيات عربية مخلصة، تعمل على وضع الأسس لتوحيد الجهود لما فيه خير الأمة العربية، وطالب بإنقاذ فلسطين، وله في ذلك مواقف حاسمة، وآراء ناضجة، ووسائل سليمة.ولقد أسهم في تأسيس جامعة الدول العربية، ونادى بالتضامن الإسلامي، واشترك في منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥م، وعاون كذلك في حل كثير من المشاكل في الشرق الأوسط.

التعليم في عهد الملك عبدالعزيز

أُنشئت في مكة (العاصمة) سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) إدارة حكومية سُميت (إدارة المعارف العامة) مرتبطة بالنائب العام، يُصرّف أعمالها مدير عام ومعاون مدير وقصر اختصاصها على ما يتعلق بالتربية والتعليم.

وواجهتها في بدء تكوينها عقبة، هي خلو المدارس الابتدائية والأولية، من المعلمين (المتعلمين) فأنشأت مدرسة في مكة سمتها (المعهد العلمي السعودي) مهمتها إعداد المدرسين للإبتدائي والأولي. وملأ خريجو هذا المعهد بعض الفراغ.

وإلى جانب إنشاء (المعهد العلمي السعودي) كان إرسال أول بعثة من الطلاب إلى الخارج، عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) وتعاقب إرسال البعثات بعدها. فكان هذا أنجح عمل للمعارف في المملكة.

ثم كانت مدرسة (تحضير البعثات) من أجدى المعاهد السعودية نفعا في ذلك العهد، أُنشئت حوالي سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) ووضع لها منهج خاص، استُمد من منهج الدراسة المصرية. بحيث تكفي شهادتها لدخول حامليها في المعاهد العليا وكليات الجامعة، في مصر وغيرها، وزُودت بمعمل لخواص المواد وسُنن الكائنات (الكيمياء والطبيعية) وببعض وسائل الإيضاح العلمية الحديثة، مدة الدراسة فيها أربع سنوات للقسم العام، وخمس سنوات للقسم الخاص.

أما (المطاوعة) أو المرشدون في الهجر والقبائل، فهم يختارون على الغالب من متعلمي الهجر والمدن القريبة من القبائل. وأول ما عليهم أن يعلموه القرآن الكريم، وأركان الإسلام، والعبادات، ومبادئ من القراءة والكتابة.

ولا يقتصر عمل المطوع أو المرشد، على (التعليم) بل هو واعظ القبيلة وخطيب مسجدها، وإمامها في صلواتها· وقد يكون مرجعها الديني في كل شيء وله رأي مسموع في شؤونها العامة والخاصة·

التعليم الأهلي:

وللتعليم (الأهلي) في المملكة فضل كبير في نهضتها الحديثة· فإن القائمين بالأعمال الحكومية في الدولة كان معظمهم من خريجي المدارس الأهلية التي أنشئت قبل عهد الملك عبدالعزيز وفي عهده·

ورأى أحد العلماء كثرة البدو في أطراف ينبع، من جُهينة وحرب وغيرهما، سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٥م) فكتب إلى الملك عبدالعزيز، في أمر أبنائهم فلم يلبث عبدالعزيز أن أبرق إلى أمير ينبع بما معناه: أقيموا مدرسة خاصة بأبناء العشائر تتسع مؤقتا لمئة طالب· وما انتهى عام ١٣٥٣هـ حتى كانت المدرسة، وفيها نحو مئة تلميذ من أبناء العشائر القريبة من ينبع· فضلا عما كان فيها من المدارس النظامية والأهلية·

مدارس خاصة

وهناك مدارس (خاصة) أنشأ أولاها الملك عبدالعزيز في قصره بالرياض لتعليم صغار الأمراء من أبنائه وحفدته وأبناء إخوته ومن يليهم من الأسرة السعودية، سُميت (مدرسة الأمراء) ومثلها مدرسة للأيتام كانت تابعة لإدارة القصر الملكي· في بناية خاصة بالرياض·

ولما عاد الملك عبدالعزيز من رحلته الثانية إلى مصر· أراد أهل الرياض إقامة حفلة كبيرة له وجمعوا مبلغا من المال للحفلة· وعلم الملك بالأمر· فقال: بل يصرف المال علي ما فيه مصلحة للبلد· فاتفقوا علي إنشاء مدرسة في البطحاء سُميت (المدرسة التذكارية) ويُدل اسمها بعد ذلك·

وأنشأ الأمير فيصل بن عبدالعزيز (في عهد والده) بالطائف (المدرسة النموذجية) لأولاد الأمراء وغيرهم· ثم نقلت إلى جدة أخيرا، وضمت إلى وزارة المعارف· وأطلق عليها اسم (مدارس الثغر النموذجية).

واستقدم الأمراء عبدالله بن عبدالرحمن، ومساعد بن عبدالرحمن، وسعود بن عبدالعزيز· وفيصل بن عبدالعزيز· وآخرون مدرسين خاصّين لأولادهم·

في نجد والمنطقة الشرقية

أما بلاد نجد· فعكفت أول الأمر· على الدراسات القرآنية والحديثية والفقهية· ولم تعرف فيها المدارس النظامية الحديثة إلا بعد سنة ١٣٥٠هـ (١٩٤١م) فافتتحت في بعض مدنها مدارس تدرج التعليم فيها ببطء لقلة المدرسين أولا، ولضعف الرغبة يومئذ في الإقبال على طرائق التدريس الحديثة· ولكنها· وثبت بعد ذلك· فما دخلت سنة ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) حتى كان في نجد ٤٨ مدرسة زاد طلابها على ثمانية آلاف·

ميزانية المعارف

كان أعلى رقم للمعارف، في آخر ميزانية وضعت للمملكة، أيام عبدالعزيز· سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) هو عشرون مليونا من الريالات السعودية تقارب أربعة ملايين دولار ونصف المليون·

ومن المعلوم أن التعليم في المملكة· مجاني في جميع مراحله، تدريسا وكتبا ودفاتر وأقلاما إلخ· ولكن من المجهول أن الحكومة تنفق أيضا على نحو ٣٠% من التلاميذ طعاما ومأوى وملبسا وما إلى ذلك، قياسا على طلبة البعثات في الخارج· ويكثر هذا النوع على الخصوص في المدن والقرى المجاورة للبادية، حيث يؤتى بالطلاب من خيام قبائلهم ومن مراعي إبلهم·

وكانت الحكومة تدفع لبعض الآباء (تعويضا) عن عمل البنين في رعي الماشية أو غير ذلك، حال غيابهم عن مضاربهم لتعليمهم.

كما كانت تصرف مثل هذا التعويض لآباء بعض المبتعثين إلى الخارج من الطلبة المرغوب بتيسير انتجاعهم للعلم.

هذه (النفقات) الإضافية لم تكن ميزانية المعارف تحتملها أو تؤديها، وإنما كانت تؤدى من (أبواب) للصرف في مخصصات الإمارات والبادية.ويقرب من هذا. أن مئات من الطلاب في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية. ظهر للحكومة أن مقدرتهم المالية. لا تساعدهم على الاستمرار في الدراسة، فخصتهم بمشاهرات تتراوح بين ١٥٠، ٢٤٥ ريالا للطالب.وكان للمدارس الأهلية حظها من العون المادي أيضا، وهي أجدر المؤسسات بالعون، وما يصرف لما لا يدخل في نطاق >مديرية< المعارف ولا في ميزانيتها.

من تولوا إدارة المعارف

وقد تولى إدارة المعارف. في عهد الملك عبدالعزيز. قبل أن تصبح وزارة: صالح شطا، فمحمد كامل القصّاب، فماجد الكردي، فحافظ وهبة، فمحمد أمين فودة، فطاهر الدباغ، فمحمد بن عبدالعزيز بن مانع.

الوزارة

واتسعت أعمالها بعد وفاة الملك عبدالعزيز، فجعلت (وزارة) مقرها كسائر الوزارات في الرياض. وكان أول من تولاها الأمير فهد بن عبدالعزيز حتى مطلع رجب ١٣٨٠هـ (ديسمبر ١٩٦٠م) وفي عهده أنشئت جامعة الرياض.

وتولاها بعده الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله ابن حسن آل الشيخ، حتى شوال ١٣٨١هـ (مارس ١٩٦٢م).

ثم تولاها الشيخ حسن بن عبدالله بن حسن آل الشيخ ووسع نطاق جامعة الرياض، فضمت كليات (العلوم) و(الصيدلة) و(الآداب) و(التجارة) و(الزراعة) وأُنشئت كلية (الهندسة) مستقلة ثم أضيفت إلى الجامعة.

وأسست (جامعة الملك عبدالعزيز الأهلية) في جدة كما أُسست (الجامعة الإسلامية) في المدينة المنورة التى يفد إليها طلبة العلم من جميع الأقطار الإسلامية.

الجيش في عهد الملك عبدالعزيز

قالت جريدة (أم القرى) في ٤ شوال ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) ما خلاصته: إن الجيش الذي كان يعتمد عليه الملك عبدالعزيز- في فجر حياته، هو جيش الجهاد، الذي كان مكونا من حاضرة أهل نجد، مضافا إليه جيش (الإخوان) الذي كان من القبائل البدوية الرحالة التي وضع لها نظام (الهجر) وأنزلها من البادية إلى الحاضرة، وأصبحت هجرها كثكنات عسكرية، وظل هذا سائدا إلى عام ١٣٤٨هـ (١٩٣٠م) فأمر الملك بتكوين إدارة للأمور العسكرية، بدأت بإنشاء الجيش النظامي.

وجرى في جدة أول استعراض للقوة العسكرية السعودية أمامه، عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) وكانت مؤلفة من: فوج من المدفعية، وفوج من الرشاش، وفوج من المشاة، إلى جانب جيش الجهاد، وجيش الإخوان.

وفي سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) بلغت القوات النظامية حدا اقتضى تشكيل وكالة للدفاع ومديرية للأمور العسكرية، وأُلغيت تشكيلات الهجانة، والتشكيلات غير النظامية- عدا جيش الجهاد، وجُعلت القوات على ثلاثة أسلحة: سلاح المشاة، وسلاح المدفعية، وسلاح الفرسان، ونظم الجيش على أساس كتائب وألوية، ووزع على المناطق، تبعا لوضع الدولة الجغرافي، وجُعل مقر (وكالة الدفاع) بالطائف.

وفي عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) أُلغيت مديرية الأمور العسكرية- وأُقيم ما سُمي (رياسة الأركان الحربية).

وفي أول ربيع الآخر ١٣٦٥هـ (٦ مارس ١٩٤٦م) أُنشئت (وزارة الدافع) وعين أول وزير لها (الأمير منصور بن عبدالعزيز) وبدأت النهضة العسكرية في الجيش بإرسال البعثات المختلفة إلى الخارج، للدراسة.

وفي رجب ١٣٦٧هـ (١٤ مايو ١٩٤٨م) اشتركت فرقة من هذا الجيش في الجهاد مع الجيش المصري، للقتال في فلسطين، كان قائدها العقيد سعيد الكردي وقد أبلت هذه الفرقة بلاء حسنا في القطاع الجنوبي من فلسطين.

وعلى أثر عقد الهدنة في أواخر جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (أواخر أبريل ١٩٤٩م) تقرر إبقاء الفرقة، بصفة مؤقتة، في مصر، وأُدخل عدد من ضباطها وضباط الصف وجنودها مدارس الجيش المصري في مختلف فروع الأسلحة للتدرب والتمرن نظريا وعمليا.

وأرسلت وزارة الدفاع بعثات إلى انجلترا وأمريكا وأوروبا والسودان وتدرج الجيش متمشيا مع مقتضيات الزمن. في أنظمته وتشكيلاته وأسلحته.

وفجعت البلاد، بعد سنين قائل، بفقد الأمير (منصور) عام ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) فخلفه في وزارة الدفاع، أخوه الأمير مشعل، وكان قد سبق له أن مارس العمل فيها نائبا عن منصور.

واستقال مشعل (بعد وفاة أبيه) فتولاها الأمير فهد بن سعود، ثم الأمير محمد بن سعود.

ثم تولاها الأمير سلطان بن عبدالعزيز وزيراً للدفاع في سنة ١٣٨١هـ (١٩٦١م) ثم صدر مرسوم ملكي بتعيين أخيه تركي نائبا له.

الطيران والمطارات

استعاض الملك عبدالعزيز، عن السيارة بالطيارة، ومن المعروف عنه أنه كان إذا أحب شيئا أكثر منه وحضّ عليه.

وأرسلت (بعثة) سعودية إلى إيطاليا عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) مؤلفة من عشرة من الشباب، لتعلم الطيران، فتخرجوا وعادوا. وكانت حكومته قد اشترت سنة ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) أربع طائرات من ذوات المحرك الواحد فعملوا عليها، وقاموا برحلات داخلية أول الأمر، وأمر بتقويتهم، بزيادة التمرين فأوفدوا إلى مصر، وعادوا عند نشوب الحرب العالمية (الثانية) وزيدت طائراتهم قبل ذلك أربعا أخرى، منها ثلاث للتدريب، ثم زيدت ثلاثا من ذوات المحركات الثالثة، فطائرة فرنسية صغيرة سريعة حديثة الصنع، فطائرة أمريكية بلغ بها العدد ثلاث عشرة طائرة في مدة وجيزة.

وأُنشئت للطيران (إدارة) خاصة أُلحقت بعد ذلك بوزارة الدافع وسميت (إدارة طائرات الخطوط السعودية).

وقويت عنايته بالطيران، في أواخر الحرب (الثانية) وبعد انتهائها. فأوعز بشراء خمس طائرات أمريكية من طراز (داكوتا) وأضيف إليها ست من النوع نفسه، فثلاث أخر، فخمس من طراز (بريستول) فغيرها.

وأُنشئ خط طيران منظم بين المملكة العربية السعودية ومصر وسوريا ولبنان، لنقل البريد والركاب والبضائع.

وقامت طائرات الخطوط السعودية برحلات كثيرة لنقل الحجاج من جدة إلى البحرين والكويت وكراتشي وبومباي والبصرة وبغداد وطهران والخرطوم ولاجوس

وجيبوتي وممباسا وديريان وجوهانسبرج وأديس أبابا وطرابلس الغرب وعدن، كما قامت برحلات إلى أثينا وروما وباريس ولندن.

وأنشأت وزارة الدافع (مدرسة) للطيران في الطائف، أُرسل فوج من متخرجيها إلى انجلترا حيث أكملوا دراساتهم.

المطارات:

وأول مطار أُنشئ في بلاد عبدالعزيز (مطار جدة) حيث أُقيمت إدارة مصلحة الطيران المدني.

ثم مطار الحوية: على بعد ٢٨ كيلو مترا من الطائف.

وأُنشئت مطارات الرياض والخرج والأحساء والظهران، ويُعد هذا من أعظم المطارات في الشرق الأوسط.ثم مطار في رأس مشعاب، وفي المدينة، وأُقيمت مطارات داخلية للرحلات الخاصة، أصبحت بعد ذلك لرحلات عامة كمطار حائل ومطارات بريدة وسكاكا وينبع والوجه. وكثير غيرها.

الوزارة

وجُعلت للطيران (وزارة) بعد ذلك، قُرنت بوزارة الدفاع، وتولاهما معا الأمير سلطان بن عبدالعزيز سنة ١٣٨١هـ (١٩٦١م) كما تقدم.

أول مرة يطير بها عبدالعزيز

كانت المرة الأولى التي ركب بها الملك عبدالعزيز الطائرة، رحلة قصيرة، من بئر عفيف إلى الحوية، قادما من الرياض في ٢٤ شوال ١٣٦٤هـ (٣ أكتوبر – تشرين الأول ١٩٤٥م) ثم كانت مطيته المفضلة في سائر رحلاته.

* * * *

الزراعة في عهد الملك عبدالعزيز

لم يكن للزراعة، في ابتداء تنظيم الدولة حظ كبير من عناية الملك عبدالعزيز وحكومته، فالعاصمة (مكة) واد غير زرع، وجدة لا ماء فيها، والرياض تُسقى بساتينها ببضع آبار وعيون، أو بالسيل يوم يفيض الوادي، وتهائم عسير الموصوفة بالخصب المنقطع النظير لا سبيل إلى الاتصال بها إلا بشق الأنفس. ومثلها ما في أطراف البوادي الشاسعة من واحات كانت الدولة الناشئة في شاغل عنها بما تعالجه في مطلع عهدها من إنشاء، وإقامة دعائم.

وتفتحت الأعين يوما بعد يوم، على مياه الأحساء والخرج ووادي فاطمة والقطيف وحائل والطائف وبلدان أخرى وقرى منتشرة في طول البلاد وعرضها، وما في تلك البلدان والقرى من مزارع وبساتين كلها في حاجة إلى التنظيم والتنمية والاستثمار.

وأمر عبدالعزيز معتمديه، في العراق ومصر وسوريا باختيار عدد من المهندسين الزراعيين ومساعديهم للعمل في بلاده، وجاءته (بعثات) منهم، عملت في كثير من الجهات.وفي تقرير وضعته بعثة أمريكية سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م) ما خلاصته :

- في مقاطعة القطيف نحو ٩٠٠٠ فدان مزروعة تمرا وبرسيما وخضارا ونحو ٣٠٠٠ فدان يمكن إصلاحها للزراعة.
- وفي الهفوف (بالأحساء) نحو ٢٥٠٠٠ فدان مزروعة نخيلا، ونحو ٢٠٠٠ فدان تزرع خضارا وبرسيما وحبوبا وفواكه. وهناك منطقتان يمكن إصلاحهما لزراعة القمح والشعير والفواكه وغيرها. مساحتهما

نحو ١٥٠٠٠ فدان، وفي الهفوف أيضا مساحات تصلح لزراعة الأرز (زُرعت أرزا بعد ذلك) وتقدر المياه التي تفيض من عيون الهفوف بنحو ٤٢٢ مترا مكعبا في الدقيقة، وتزيد كثيرا في الشتاء.

- واحات يبرين، التابعة للأحساء: مساحتها نحو ٧٥٠٠ فدان، وهي على بعد ٢٦٠ (كيلو متر) من الهفوف جنوبا.
- مزارع الخرج (في نجد) ترتفع عن سطح البحر ما متوسطه ١٣٦٠هـ قدما (٤١٥) مترا وهي ٢٥٠٠ فدان مزروعة تنتج التمور والبرسيم والقمح والذرة، وكثيرا من أنواع الفاكهة والخضار.
- وادي نجران (في عسير): المزروع منه مساحة طولها نحو ٢٠ ك. عرضها يتراوح بين كيلومتر واحد وخمسة كيلو. وارتفاع الوادي عن سطح البحر يبلغ ٤٠٠٠ قدم (١٢٢٠ مترا (وفيه منطقة مساحتها نحو ٢٥٠٠ فدان تصلح لزراعة قصب السكر، وفي الوادي عيون كثيرة غير جارية، منها عين الحصن.
- وادي طريب (في عسير): يرتفع عن سطح البحر ٥٧٠٠ قدم. زراعته التمور.
- خميس مشيط، ووادي رفيدة، وأبها، وثربان، وبدلة، والسقي والفرحان (في عسير): يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ قدم وهي مزروعة قمحا وشعيرا وعنبا.
- تهامة. والدرب، وبيش، وصَبْيا، وأبو عريش: تنبت من محاصيل الذرة والدخان نباتا يدعو إلى الدهشة وهي تسقى بمياه السيول.
- حماة، وصلب، وعرق، وحُريقة: واد على طول حدود اليمن. يرتفع عن سطح البحر نحو ٧٥٠ قدما. فيه مزارع صغيرة ومنطقة

مساحتها نحو ٢٥٠٠ فدان، صالحة لزرع قصب السكر والذرة· وهناك مراع كبيرة للأبقار، علي طول الوادي·

مديرية للزراعة

وكان التعاقد مع أفراد البعثات والإشراف على عملها، منوطين بوزارة المالية مباشرة، مدة ربع قرن·

وفي رجب ١٣٦٧هـ) أبريل ١٩٤٨م) أُنشىء في جدة، جهاز لهذه المصلحة علي نطاق محدود من الموظفين الفنيين والإداريين، سمي (مديرية الزراعة) تولاها محمد صالح القزاز· قامت سنة ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) بأعمال أهمها:

- جلبت ماكينات للري باعت منها للمزارعين ٦٣٤ ماكينة بالتقسيط لآجال طويلة -·جلبت حفارتين ارتوازيتين إحداهما لمنطقة الطائف والثانية لتجارب (المديرية).
- استوردت نحو ٣٠٠٠٠ شجرة كافور وكازورينا، لصد الرياح، ولتشجير الطريق بين مكة وجدة، ولمنطقة العاقول·
- استحضرت سبع جرارات للحرث، ووزعتها في بعض الجهات لإصلاح الأراضي الزراعية وحرثها بأجور يسيرة· ثم جلبت في العام التالي عشرة أخرى·
- استوردت ٦٢٥٢ من أشجار البرتقال واليوسفي والمانجو والعنب والخوج والمشمش والتفاح وغير ذلك· ووزعتها على أصحاب المزارع مجانا·
- عُنيت بإنشاء مزارع نموذجية، كمزرعة كيلو ١٠ من جدة (في طريق مكة).

- أعلنت بأمر الملك عبدالعزيز عرض الأراضي الحكومية ‘‘الغامرة< على الراغبين في استئجارها لقاء عُشر نتاجها·
- أقرضت بعض المزارعين سنة ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) ١.١١٦.٠٠٠ ريال سعودي، لشراء الآلات الحديثة وإصلاح قنوات الينابيع·
- ميزانيتها: نيف و ٣٠ مليون ريال سعودي·
- واتسعت (المديرية) شيئا فشيئا، ولم يتجاوز عدد موظفيها سنة ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) مئة وخمسين موظفا، بين إداريين – هم الكثرة – وخبراء زراعيين ومهندسين ميكانيكيين وأشباههم، وزع معظمهم علي فروع المديرية في الرياض والقصيم والقطيف والمدينة والطائف وتربة والخرمة وبيشة ورنية·

الوزارة

وتدرجت أعمال الزراعة في نهضتها، كسائر مرافق البلاد، فأصبحت لها، بعد نحو شهر من وفاة الملك عبدالعزيز (وزارة) ضوعفت فيها موازنة الدخل والخرج، أضعافا ما زالت تنمو إلى الآن·

وأول (وزير) عُين للزراعة هو الأمير سلطان بن عبدالعزيز، في ١٨ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ (٢٤ ديسمبر ١٩٥٣م).

****

إنشاء مؤسسة النقد

لما اتسع الثراء في المملة العربية السعودية، إثر تدفق النفط في جناحها الشرقي، وكثر التعامل بينها وبين المؤسسات المالية في الداخل والخارج، رأى الخبراء فيها وجوب حماية الصندوق الحكومي والأسواق التجارية، من تقلبات حركة النقد العالمية وأثرها في النقد السعودي، فأمر الملك عبدالعزيز بإنشاء مؤسسة (النقد العربي السعودي) وصدر بذلك مرسومان ملكيان في ٢٥ رجب ١٣٧١هـ (٢١/٤/١٩٥٢م) جاء في أولهما:

تأسست (مؤسسة النقد العربي السعودي) بجدة وستفتح لها فروع ووكالات في المدن والأماكن التي تدعو إليها الحاجة. وتكون وظائفها دعم النقد الرسمي للدولة، ومعاونة وزارة المالية بتوحيد المركز الذي تُسلم وتودع فيه إيرادات الحكومة. وتصرف منه مدفوعاتها، ومراقبة ضبط هذه المدفوعات. ولا تتقاضى المؤسسة ولا تدفع أية فائدة على ما تقبضه أو تصرفه. ولا تباشر أي عمل يتعارض مع قواعد الشريعة الإسلامية السمحة.

والمرسوم الثاني أمر باعتماد النظام الأساسي للمؤسسة. وهذا النظام مكون من ١٢ مادة ويعبر عنه بالتعليمات الأساسية.

للحرمين الشريفين، بمكة والمدينة· أوقاف في كثير من بلاد العالم الإسلامي خص واقفوها ريعها بأنواع من البر في الحرمين·

وفي كلا البلدين، مكة والمدينة، وبعض بلدان الحجاز الأخرى· أوقاف عامة للبر أو خاصة بنواح إنسانية معينة· منها ما اندرس· ومنها ما هو قائم ولما دخل الملك عبدالعزيز مكة· قبل حصار جدة أنشأ إدارة للأوقاف الداخلية بمكة، وبعد تسلمه المدينة المنورة وجدة· أقام في كل منهما إدارة كالأولى· ولم يكن بين الثلاث أي ارتباط·

وظل العمل محليا· وما يرد من الخارج تتسلمه (المالية) على أن تصرفه في وجوهه، إلى أن صدر مرسوم ملكي في ٢٧ ذي الحجة ١٣٥٤هـ (١٩٣٦م) بربط إدارات الأوقاف وفروعها بمدير عام، مقره بمكة يرتبط به مدير للأوقاف في المدينة، ومثله في جدة ويتبع المديرية العامة (مجلس إدارة) للحرم المكي كما يتبع مدير أوقاف المدينة· مدير للحرم النبوي ومأمور في ينبع·

ووضع نظام خاص لتوزيع (الصدقات) تقوم بتنفيذه لجنة مركزية تابعة لإدارة الأوقاف العامة·

وتحولت الإدارة· بعد الملك عبدالعزيز· إلى وزارة للحج والأوقاف، صدر بإنشائها مرسوم ملكي· وأول وزير عين لها هو الأستاذ محمد حسين عرب، وتولاها بالنيابة الأستاذ محمد عمر توفيق، وزير المواصلات وتولاها الشيخ حسن محمد كتبي·

المقالات التى تناولت الجوانب المتعددة

عن نـهضة المملكة العربية كثيرة جداً..

وقد اخترنا من هذه المقالات ما رأيناه أكثر دلالـة..

البلاد السعودية في ٢٥ عاما

يقول صاحب السعادة الشيخ يوسف ياسين - السكرتير الخاص لجلالة الملك عبدالعزيز ورئيس الشعبة السياسية[١].

لقد تطور هذا القسم من الجزيرة العربية في الخمسة والعشرين سنة الماضية تطورا خطيرا في سائر مناحي الحياة، وخطت البلاد خطوات واسعة في سبيل الإصلاح، مما يدعو إلى الإعجاب، والفضل في ذلك يرجع إلى جلالة الملك عبدالعزيز، الرجل العادل النافذ البصيرة، البعيد النظر، الساهر على سعادة شعبه ومصالح رعيته.

وإن أنصع الصفحات التي تلفت نظر الباحث فيما حدث في المملكة السعودية من تبدل وتطور محسوسين يمكن وضعها ضمن النقاط الأساسية الثلاث الآتية:

- الأولى: الاستقرار السياسي الذي أنشأه جلالة الملك عبدالعزيز بعد كفاح وجهاد طويلين، قضى في خلالهما على العصبيات القبائلية والإقليمية، ووحد أجزاء البلاد وضم بعض أطرافها إلى بعض، حتى تكون هذه المملكة الواسعة الأرجاء.
- الثانية: الاستقرار الاجتماعي والعمراني، وقد أقامه جلالة الملك عبدالعزيز على أساس تحضير البادية وإسكان ما استطاع إسكانه منها في القرى والهجر، ومنع الغزو بين القبائل، وإحلال الإخاء والسلام والأمن بين الجميع بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في الجزيرة إلا في العهد السعودي الأول.

---

(١) المستمع العربى العدد ١٨ – السنة الخامسة – ١٩٤٤م.

- الثالثة: الشروع في الأعمال الإصلاحية والمشاريع العامة بإدخال وسائل النقل الحديثة واستعمال أحدث الآلات في الزراعة والمواصلات وفي استعمال خيرات البلاد لما فيها خير أهلها ورفاهيتهم.

والحق أننا إذا ألقينا نظرة عامة على ما كانت عليه حال البلاد منذ خمس وعشرين سنة، وما خطته خلال هذه المدة من خطوات واسعة في سبيل الاستقرار والتقدم والعمران، لقدرنا العمل الجليل الذي تم في ظروف وأحوال ينوء تحتها أقدر الرجال وأشجعهم.

كانت البلاد إذ ذاك مفككة الأوصال لا يربط أجزاءها من وسائل النقل وأسباب المواصلات إلا الجمل، إذ لم تكن السيارة قد دخلت إليها بعد، كما أنه لم يكن أحد يحلم بأنه سيصبح في الإمكان التنقل والتجوال في مجاهلها وفيافيها بأحدث وسائل النقل العصرية.

لا شك أن العامل الرئيسي في كل ما تم يعود إلى الأمن العام الشامل الذي أسبغه الله عليها على يدي حضرة صاحب الجلالة الملك، فهو أساس العمران، وعليه المعول في إنشاء أي نظام سياسي أو اجتماعي ثابت، ولولاه لما أمكن إقامة شبكة المواصلات الطويلة بالسيارات التي ربطت أجزاء المملكة المترامية الأطراف، ولا تم للزارع أن يزرع أرضه وينتظر غلتها براحة واطمئنان، ولا رغب الباني في تشييد العمارات وإقامة الأبنية والاشتغال بالتجارة أو الزراعة.

وتحتل السيارة المكان الثاني في تطور المملكة وتقدمها، غير أن هذا التطور الناشط قد طرأ عليه بعض الوهن لسوء الحظ منذ قيام الحرب الطاحنة، وتوقف جلب السيارات وأدواتها فظهر عجز القليل الصالح مما هو موجود في البلاد، وهو غير كاف لضمان اطراد التقدم وتأمين احتياجات البلاد الآخذة في

النمو، فإن الحرب ستنتهي قريبا فتعود الحياة إلى مجاريها الطبيعية،وعندئذ تستأنف البلاد خطواتها الواسعة في هذا المضمار.

وأدخلت المواصلات اللاسلكية إلى البلاد علي مقياس جديد، وربطت أجزاء المملكة البعيدة الشاسعة بعضها إلى بعض بشبكة من المراكز اللاسلكية المنتشرة في كل مكان. ونرى بهذه المناسبة أن نورد نكتة ظريفة سمعناها عن بعض أهل البادية عن صرامة جلالة الملك عبدالعزيز في حفظ النظام وأخذه على يد المجرمين لا يعرف في ذلك هوادة أنهم يقولون: «أين السبيل وأين المفر، ما دام ابن سعود عنده في السما برقية وعلى الأرض مرية» (يقصدون بذلك أن سبل الفرار مسدودة أمام المجرم بسبب وجود شبكة المواصلات اللاسلكية حيث ترسل الأخبار فتعقب الدوريات المجرم الفار أينما كان، وأما المرية فهم قصاصو الأثر نسبة لبني مرة، وهم يضاهون بخبرتهم أدهى رجال البوليس في العواصم الأوروبية).

ومع أنه لا توجد مراكز إذاعة رسمية في المملكة العربية السعودية، إلا أن مستمعي الإذاعات يبلغون عددا كبيرا، وجل اعتماد المستمعين وتعويلهم إنما هو على الإذاعة البريطانية في الأنباء العالمية.

وتستعمل الحكومة التلفون اللاسلكي في المراسلات الرسمية بين الرياض وعدد كبير من مدن الحجاز والملحقات، علاوة على المراسلات التلفونية العادية الموجودة في المدن نفسها، وفيما بين بعض المدن الحجازية والنجدية.

وهناك تقدم محسوس في استعمال الالآت الحديثة في مختلف نواحي االحياة، لاسيما الآلات الكهربائية وآلات رفع المياه من الآبار لأعمال الري وحفر الآبار الارتوازية، وأن المرء ليعجب من التوسع الذي حصل في هذا المضمار حيث تستعمل المضخات الرافعة للماء في المناطق الزراعية مثل

المدينة والرياض والقصيم والخرج والأحساء وهذا بلا شك يبشر بمستقبل عظيم للزراعة في المملكة العربية السعودية.

أما في ميدان العلوم والمعارف، فقد خطت البلاد خطوات واسعة أيضا بالإكثار من عدد المدارس حتى في المناطق النائية في المملكة، كما أن الحكومة تعني بإيفاد البعثات العلمية إلى مصر وغيرها.

ولقد أولت الحكومة عنايتها بالشؤون الصحية بشكل لم يعرف ولم يعهد من قبل في الجزيرة العربية، فقامت بإنشاء المستشفيات والمستوصفات والمختبرات في المدن والقرى، كما أوفدت البعثات الطبية إلى المناطق البعيدة لمكافحة الأمراض ومعالجة المرضى ومساعدتهم بالعلاج والتمريض.

هذه كلمة وجيزة عما تم في الخمس والعشرين سنة من الأعمال الإصلاحية والشؤون العمرانية في عهد صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز، وهي كثيرة بالنسبة إلى المحيط وإلى الكفاح العظيم.

*****

ويقول صاحب السمو الملكي الأمير منصور نجل جلالة الملك عبدالعزيز[1]: يختلف نظام الجندية والخدمة العسكرية في المملكة العربية السعودية عن الأنظمة المتبعة في البلاد الأخرى، ففي البلاد نواة جيش نظامي، كسائر الجيوش في العالم، مؤلف من وحدات المشاة والمدفعية والرشاش والمصفحات والطيارات، وما يتفرع عن ذلك من الخدمات العسكرية المعقدة كما هي الحال في أي بلد آخر، ولكن المهم في المملكة هو ذلك الجيش الذي كونه حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز، وكيّفه طبقا لمقتضيات الأحوال في مملكته. وجعله عماد دولته وركنها الأساسي، وقد رتب الملك جيشه هذا على نظام بديع بارع وجعل منه أداة فعالة فيما وفقه الله تعالى إليه من أعمال رائعة خالدة.وإنا نعتقد أن الكتابة عن هذا الجيش المنقطع النظير في تكوينه وترتيبه ونظامه، قد يكون ألذ وأشهى لدى القراء، وهذا ما يحملنا على تخصيصه ببحثنا الحالي.

الاستعداد الحربي

يعتبر كل قادر على حمل السلاح، مهما كانت سنه جنديا مستعدا للقتال، ويتمرن الناشئون منذ نعومة أظفارهم على أعمال الرماية والفروسية ومقارعة الشجعان، حتى إذا دعا داعي القتال وجدتهم من أشد ما يكون مرانا وحماسا لدخول المعارك التي يدعون إليها، وبعبارة أخرى نقول إن سائر أهل نجد هم جنود مجندة مستعدة لتلبية الأمر منذ أول لحظة، نجد كلها ثكنة عسكرية.

(1) المستمع العربى العدد ١٨ السنة الخامسة – ١٩٤٤.

أقسام الجند

للجند النجدي أقسام يعرف بها، ولكل قسم فريق له وضع خاص به. ويمكن حصر تلك الأقسام بما يأتي:

١ - أهل العارض.

٢ - أهل حواضر المدن.

٣ - أهل الهجر.

٤ - البدو.

أهل العارض

يطلق لفظ (العارض) اليوم علي مقاطعة الرياض وضواحيها فأهل هذه المقاطعة خير منزلة في المعارك والحروب، وهم ركن الدولة الركين وعمادها الحربي المتين، حمالون للمشاق، أبطال أشاوس عند اللقاء، وكل فرد منهم ممن يستطيع حمل السلاح يعتبر من أهل السلاح، وهم ثلاثة أقسام:

أ) رجال الحرس الخاص: هؤلاء هم رجال حرس جلالته وأصحاب السمو أمراء الأسرة المالكة يتقلدون السلاح في كل وقت لا يتركونه حتى عند نومهم في بيوتهم.

ب) أهل المراتب والوظائف: وهم لا يختلفون عن رجال الحرس إلا بأن لهم وظائف مدنية يقومون بها. فإذا أعلن النفير كان عليهم القيام بوظيفة الجندية علاوة على الوظيفة المدنية. ويدخل في هذه الطبقة جميع الموظفين بطبيعة الحال، ما عدا الأجانب منهم.

ج) أهل الجهاد، ويطلق هذا اللفظ على كل من يحمل سلاح جلالة الملك الموسوم بطابع جلالته، والحرس الخاص هم من أهل الجهاد غير أنهم يفترقون عن الآخرين بأنهم لا يفارقون جلالة الملك أو الأمراء في الحل

والترحال، أما الفريق الآخر من أهل الجهاد فهم لا يخرجون من الرياض إلا بأمر من جلالته. ولأهل الجهاد مكتب خاص بالديوان العالي باسم (ديوان الجهاد) للنظر في أحوالهم وسلاحهم وأعطياتهم.

أهل الحواضر

ويلي أهل العارض في المنزلة العسكرية في نجد أهل حواضر المدن ويطلق ذلك على كل من يسكن بلدة أو قرية من القرى النجدية، وهم عمدة القوة والدعامة المتينة في الحرب أيام الملمات، ويوالون جموع أهل العارض في الميمنة والميسرة. ولنظام الجهاد في الحواضر أربع حالات.

أ) حالة السلم الدائمة، وفيها يفرض على أهل كل قرية واجب في الجهاد معين، وهو أن تخرج عددا من الرجال مسلحين مع معداتهم وطعامهم لمدة أربعة أشهر في السنة. فإن لم يكن هناك داع للجهاد، دفع أهل تلك القرية مقابل نفقات المجاهدين، مبالغ من المال معينة لبيت المال. ينفقها ولي الأمر في مصالح المسلمين.

ب) حالة المغازي البسيطة: إن كان هناك داع للجنود طلبت الجند المقرر على كل قرية، فيخرج هؤلاء الجنود بتجهيزاتهم، ولا يعطى لهم من بيت المال غير الأسلحة والأعتاد الحربية. فإن أقاموا أكثر من أربعة أشهر أعطى لهم من بيت المال طعامهم.

ج) حالة المغازي الكبرى: وأما إن كان الداعي للجهاد ضروريا ويحتاج إلى عدد وفير، فيدعى للجهاد (المثنى) أي يطلب من الحواضر ضعف الجنود المار ذكرهم في الحالة الثانية.

د) الحالة الاضطرارية الشديدة: إذا كان هناك خطر يهدد كيان البلاد فيعلن النفير العام ويؤخذ كل من يقدر على حمل السلاح.

من هذا يتبين أنه من المستطاع تجنيد أي عدد يراد من الحواضر بغير أي حرج ولا كلفة.

أهل الهجر

ويلي أهل العارض والحواضر في المنزلة العسكرية في نجد أهل الهجر، ولهؤلاء مواقف محمودة في مواطن الطعان والنزال، ولهم مزايا خاصة في الحروب الصحراوية لا يجاريهم فيها قرين، وأهل هؤلاء من سكان البادية الرحل، ولما ظهر جلالة الملك في نجد· وضع نظاما لتحضير القبائل الرحل، فزالت بذلك المنازعات البدوية والغارات الجاهلية، وقد أسست الهجرة الأولى منذ أكثر من ثلاثين سنة، وتلتها غيرها من الهجر حتى بلغ عدد ما أسس منها حتى الآن أكثر من المائتين ونظام المكلفين بالجندية من أهل الهجر لا يشبه النظام الذي ذكرناه في الحضر، لأن أهل كل قرية من الحضر متضامنون في إخراج عدد من الجنود يقومون بجميع حاجاته لمدة أربعة أشهر، ويطلب من كل قرية عدد معين، أما في الهجر فالكل مكلفون بحمل السلاح وتلبية الدعوة وقت الطلب·

البدو

ويأتي في الدرجة الرابعة في منازل الحرب سكان البادية أهل الخيام ولهؤلاء صفات بارزة في البطولة والشجاعة، وقد جرت العادة على أن يكون عددهم في المغازي قليلا، ويستخدمون في سبر العدو·السلاحإن الفروق التي شاهدناها في نظام أهل الجهاد كان معتبرا في الوقت الذي كانت القرى والمدن والهجر تتولى تقديم السلاح الخاص بها· أما بعد أن وفق الله جلالة الملك إلى إقامة ملكه الكبير، فقد وحد السلاح وأدخل أحدثه إلى البلاد، وجعل كله ملكا للحكومة

التي توزع منه على المجاهدين حسب الترتيب الدقيق الموضوع لهذا في الديوان الملكي حيث يحفظ سجل مفصل بجميع أنواع الأسلحة والأعتدة.

الراية والنخوة

ولكل فريق من هؤلاء الجنود سواء كانوا من أهل العارض أو أهل الحواضر أو الهجر، راية خاصة. تظللهم كلهم راية القائد العام التي تكون عادة في القلب.

وكذلك لكل قبيلة منهم نخوة خاصة يتعارفون بها، ولكن النخوة العامة التي تجمع هذه الجموع وتؤلف بين قلوبها وتتضاءل دونها كل نخوة هي (خيال التوحيد).

* * * * *

خير الأمثلة من النهضة في الحجاز

من المسلم به أن استتباب الأمن في الحجاز أصبح مضرب الأمثال في ممالك العالم طرا.

ومن المسلم به أن الإنسان يمكنه أن يترك بابه مفتوحا ويغيب عنه بالأيام بل والأشهر دون أن يخاف أن تمس حاجياته يد إنسان حتى ولا حيوان.

ومن المسلم به أيضا أن الحاج رجلا كان أم امرأة يمكنه أن يجوب أطراف الحجاز وحيدا ليلا ونهارا وبيده اليمني ألوان من أوراق النقد وبالأخرى أثقالا من الذهب دون أن يسلبه سالب أو يقطعه سارق.

كل هذا أمره معروف معلوم ولسنا نحن الذين نعرفه ونعلم أمره فقط، بل ذلك ما يحدثنا به أولئك الآلاف من حجاج بيت الله الحرام وذلك ما شهدوه بأعينهم وعرفوه بأنفسهم.

على أن الذي نقصده ليس التحدث عن الأمن واستتبابه في ربوع الحجاز وأن يقال إن ذلك يرجع إلى تنفيذ الأحكام الشرعية فحسب، بل الذي نريد أن يعرفه الناس أن استتباب الأمن يرجع فوق تنفيذ الأحكام الشرعية إلى نشر الحضارة والعلوم وتثقيف الناس بمختلف الوسائل العلمية في الحجاز.

انظر إلى النهضة العلمية في الحجاز الآن فماذا تجد؟

كان عدد المدارس في عهد الأتراك وفي عهد الأشراف والحسين من بعدهم حال سيئة، مدارس لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة، علوم واهية بل هي قشور كتلك التي كانت هي كل شيء في عهد – فك الخط – ثم إذا قدر الله ووجدت مدرسة فلن تجد فيها غير أبناء المحسوبين والمتملقين.

ولقد قطع الحجاز شوطا بعيدا على هذا الحال إن لم نقل منذ الخليقة إلا إذا استثنينا بعض العصور الذهبية في الدولة العربية الأولى لاسيما نهضة العلوم الدينية.

أما إذا تمعنا النظر في حال العلوم والمعارف في الحجاز في العهد الحاضر، عهد النور والعرفان عهد الملك المصلح عبدالعزيز آل سعود فإنا نرى المدارس قد أضحت في كل مكان، بل نرى في كل حي مدرسة أو يزيد، وبعد أن كانت القرى محرومة من المدارس أصبحنا نرى فيها المدارس تضم أكفأ المدرسين.

ثم زد على هذا وذاك ترقية العلوم والمعارف بإنشاء المدارس الثانوية وتدريس اللغات الأجنبية والفنون العملية وغيرها.

وفوق كل ذلك ترقية العلوم الدينية التي تدرس في الحرم الشريف حتى أصبح منهج التدريس فيه يوافق منهج الجامع الأزهر مما عاد على البلاد بالخير والبركات.

أضف إلى هذا البعثات العلمية في الخارج ففي مصر بعثة تضم نحو ثلاثين طالبا يتخصصون في مختلف العلوم والمعارف.

وهناك في فرنسا وألمانيا وانجلترا بعثات أخرى للاستزادة في فنون الطب والهندسة والتغراف اللاسلكي وغيره.

إن الناظر إلى جموع الطلبة وهم في ذهابهم وإيابهم إلى مدارسهم ليهتز سرورا وطربا للظروف السعيدة والنهضة الجليلة التي أدت إلى كثرة مرتشفي أنهر العلم وكؤوس الحضارة.

ومن حق الناظر أن يتيه إعجابا بمجهود جلالة الملك عبدالعزيز الذي جعل من أبناء البلاد الحجازية كتلة علمية ونهضة حقيقية تبشر بمستقبل باهر للبلاد.

فهذه النهضة العلمية في الحجاز كانت بجانب تنفيذ الأحكام الشرعية العامل الأكبر والعون التام على القضاء على الشرور والمفاسد والسرقة واللصوصية.

وما من أمة اضطرب فيها حبل الأمن وفشت فيها الفوضى إلا بتفشي الجهل.

فالعلم إذا – وقد حضت الشريعة الغراء على اكتساب العلم – من أهم عوامل رقي البلاد ليس علميا فحسب، بل ودينا ودنيا أيضا.

فاكتسبوا العلم وعلموا الناشئة، فبالعلم تسود البلاد وتنقطع الفوضى وتضيء أرجاء نور العلم البلاد والعباد.

ولم تقتصر همة جلالة الملك عبدالعزيز في رفع شأن نهضة الحجاز العامة على العلوم والمعارف وانتشار المدارس فقط، بل تناول جلالته كل ما من شأنه إكمال النهضة ورفع مستواها في جميع ضروب الحياة. ولا شك أن من أهم هذه العوامل حفظ كيان الصحة العامة ومكافحة جراثيم الأمراض الفتاكة، حتى تتحقق الغاية المنشودة من انتشار العلوم، فالمنطق يدلنا على أن العقل السليم في الجسم السليم، بل إن البلد الذي تنتشر فيه الأمراض فعلاوة على ما يصيبه من الخسارة المادية لانصراف الناس إلى التطبيب وفتك الأمراض بهم، فانتشار الأمراض يدل على الجهل.

لذا اقترنت حسنة جلالة الملك في إصلاح حال البلاد الحجازية إلى توفير وسائل الصحة العامة، فانقطعت الأمراض وأمن الحجاج شر الجراثيم الفتاكة كما كان الحال في الزمن السابق مما اضطر الحكومات إلى اتخاذ وسائل شديدة، فمعامل التحليل البكتريولوجية ومعامل استخراج المصل والمحاجر الصحية المنظمة والمستشفيات المتنقلة، وسيارات الإسعاف وكثير غير هذا لم يكن معروفا في الحجاز قبل عهد جلالة الملك عبدالعزيز فلا عجب إذا انقطعت

الأمراض وقلت الوفيات ولبس الناس رداء الصحة والهناء·فالصحة أيضا من أهم وسائل النهضة في الحجاز وأهم وسائل هناء شعبه وثرائه أيضا كما بينا، والواقع أن توفير الوسائل الصحية مما يساعد على انتشار العلم والثقافة والثروة في البلاد، أجل إن الصحة مكملة لما ذكرناه ولا يمكن أن ينفرد انتشار العلم واستتباب الأمن عن تعميم الوسائل الصحية، بل نرى أن هذه الأمور الثلاث مكملة بعضها البعض·

فالأمن والمعارف والصحة في الحجاز من خير الأمثلة على نهضة الحجاز ومن خير ما يضرب به المثل في رغبة الملوك حبهم وطنهم والعمل على إسعاده ورفعته أدبيا وماديا وعلميا·وإن الحجاز ليفخر كل الفخر بنهضته وتقدمه على يد جلالة مليكه وإلى الأمام[1]·

* * * * *

---

[1] الأستاذ عبد الوهاب إبراهيم آشي: جريدة صوت الحجاز ٢ ذي الحجة ١٣٥٤هـ = ٢٥ فبراير ١٩٣٥م.

الملك ابن السعود

وكيف نشر العدل والأمن في مملكته[1]

كانت الجزيرة العربية طيلة العهد الذي دانت فيه لحكم الأتراك، مضعضعة الأحوال انتشرت فيها الفوضى وعم فيها الخراب فكأنها في حروب دائمة وغزوات مستمرة، وقد أدت هذه الحال إلى انتشار الإرهاب والخوف، وفقدان الأمن والطمأنينة في أرجاء الجزيرة كلها فقد أصبح الشخص لا يأمن على ماله من السلب أو السرقة، ولا على نفسه من القتل، ونشط الرعاع وقطاع الطرق فأقلقوا راحة السكان ونكلوا بالحجاج حتى امتنع الكثيرون من المسلمين عن الحج وزيارة البيت خوفا من أن يلقوا من الشقاة الأذى في ذهابهم إلى الحج أو إيابهم منه.

وظلت الجزيرة تتدهور من سيئ إلى أسوأ حتى استطاع جلالة الملك عبدالعزيز بن السعود أن يضع حدا لأعمال الشقاوة والنهب والسلب.وجد الملك ابن السعود أنه لكي يقضي على هذا الاضطراب في مملكته ويعيد الأمن إلى نصابه، يجب عليه أن يطبق أحكام الدين الحنيف فيما يتعلق بالجرائم والعقوبات.

فأمر الحكام والقضاة بوجوب تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية لأنها القانون الأساسي الذي تسير عليه المملكة، ولم يرغب ابن السعود في أن يأخذ بالقوانين التي طبقت في كل الممالك الإسلامية والتي تختلف عن الحنيفية السمحاء اختلافا جوهريا، ذلك أنه يعلم أنه لا يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله، خاصة أن سكان المملكة يتبعون مذهب السلف ذلك المذهب الذي يعنى بنصوص القرآن والسُنة، ولا يحفل بالبدع التي أدخلها أعداء الإسلام في

---

[1] الأستاذ / سليم طه التكريتي.. جريدة الهدف العدد ١٧٥ أبريل ١٩٤٠م.

التقاليد الإسلامية بغية تشويه الدين الحنيف وإضعاف شوكته وأثره في النفوس.

يعيب الغربيون على الإسلام أنه جعل العقوبة صارمة لا تتفق وجسامة الجريمة كجريمة السرقة التي جعل الإسلام لها عقوبة قطع يد السارق وعقوبة الرجم المقررة للزنا وغيرها من العقوبات التي أوردها الدين الإسلامي على الجرائم. وقد فات الغربيين أن قوانينهم الحديثة والعقوبات التي قرروها على تلك الجرائم تخفف من غلواء المجرمين وعودتهم إلى الإجرام، ولقد كذب الواقع نظرياتهم هذه وفند مدعياتهم على الإسلام، ورد كيدهم في نحورهم بعد أن حقق ابن السعود الأمن والطمأنينة في بلاده بتقرير العقوبات التي نص عليها الشرع الحنيف.

كان الرجل فيما مضى لا يستطيع أن يتجول في أنحاء الجزيرة خشية الشقاة فأصبح اليوم آمنا مطمئنا يتنقل حيثما شاء دون أن يتعرض أحد له بسوء.

كان الحجاج يتزودون بالسلاح ويسيرون جماعات وقوافل ليأمنوا عادية الأشرار وليتقوا قطاع الطرق واللصوص فأصبح الحاج اليوم يقطع الصحاري بمفرده دون خوف أو وجل. كان التجار لا يأمنون على أموالهم وهي في بيوتهم فأصبح التاجر اليوم يترك حانوته مفتوحا إلى الصباح دون أن يدخله شخص أو أن يسرق منه شيء، وقد يفقد الحاج وهو في طريقه إلى مكة شيئا من حاجياته حتى إذا وصل أي نقطة على الطريق وأفاد بأنه قد أضاع شيئا سرعان ما يجد ذلك الشيء الذي أضاعه دون أن تمتد إليه يد بشر بسوء.

أية قوة إلهية جعلت هذا البدوي المعوز الذي لا يملك قوت يومه والذي شب وشاب على أعمال السلب والنهب والغزو يلقي الثياب الفاخرة أو الطعام اللذيذ وحتى أكياس النقود والذهب فلا تسول له نفسه أن يغصب ما وجده، بل يسرع

إلى أقرب مركز من مراكز الحكومة فيقدم إليها كل ما عثر عليه؟ أليست تلك الحقيقة أمر خارق للعادة؟

إن الدين الإسلامي الذي أصلح حال العرب وغير أطوارهم جعلهم سادة الأرض في الفتوح والمدنية والعمران هو الذي غير حال عرب الجزيرة اليوم. لقد عرف الملك ابن السعود القوة الكامنة في الإسلام فعمل على إبرازها وأشرب حبها في رعيته فأتت أكلها وكللت أعماله بالنجاح.

وها هي المملكة العربية من أقصاها إلى أدناها ترفل في أثواب الدعة والطمأنينة، ذلك لأن مليكها الجبار أقام العدل فيها وجعلها تسير وفق أحكام الدين الحنيف، ولو قدر للعراق أن يأخذ بالقدر الذي يلتئم وأحواله الاجتماعية من تطبيق الأحكام الإسلامية لرأينا السجون عندنا تكاد تكون خالية من المجرمين، ولخفت وطأة الإجرام إلى حد كبير.

لعل أعظم مفخرة سجلها الملك العربي الجليل ابن السعود هي تطبيق الشريعة الإسلامية في بلاده وحصوله علي ثمرة ذلك بأسرع وقت، حيث استطاع أن ينشر ألوية العدل والأمن في هذه الربوع التي لم تعرف الراحة والأمن منذ أن زال حكم الأمويين عنها.

****

نماذج من خطب وأقوال
الملك عبد العزيز

ويقول الأستاذ خير الدين الزكلي: لم يكن الملك عبدالعزيز يهيئ الخطبة كما يفعل أكثر الناس، وفيهم من يكتبها ويحفظها ويكاد سامعه لا يعرف أنه يخطب إلا من ارتفاع صوته هادرا، ومن ابتدائه حين يريد الاسترسال والتوسع – بحمد الله ثم بالصلاة على نبيه كما كان يصنع الخلفاء الراشدون ومن جرى على سننهم.

يتحدث حين يخطب، منطلقا علي سجيته، غير متأنق ولا متكلف، فيفيض في الشطر الأول من خطبته – أو من حديثه – بما تمليه عليه ذاكرته من عظات يستمدها، أو يستمد معاني أكثرها من الحديث النبوي ومن آيات كتاب الله، ويأتي بالشواهد، وقد يتمثل بالبيت من الشعر أو بالشطر، يرد في كلامه عرضا، لا على أنه قول يُنشد ولكن على أنه كلام مُحكم يُورد.

ويتناول الموضوع. فإن كان عاديا، كافتتاح مجلس أو شروع في تنفيذ مشروع، أو تحدث إلى فريق من الناس، تكلم هادئا متمهلا، تتخلل قوله ابتسامة خفيفة، تجتذب إليه قلوب سامعيه، وإن لم تكن الابتسامة فليس هناك عبوس ولا تجهم، ولا يُلمح على وجهه في أي حال ما يعلو وجوه معظم الخطباء من تحديق، في قريب أو بعيد، ومن اصطناع للجد.. لا أثر للنكتة في خطابته ولا توقف لمعرفة رأي السامع فيما يقول.

أما إذا كان الموضوع لأمر جلل. كمواقفه في اجتماعات شيوخ نجد وقد استمر في بعضها ساعتين أو أكثر، فكان هناك (الخطيب) حقا، المتجهم المزمجر، لا يتلكأ ولا يتلعثم ولا يتمتم ولا يجمجم. انطلاق في فسيح من مجال القول. شواهد حية من أحداث عرفها السامعون أو أدركوا من عرفها، وحجج وبراهين. هناك كان يتكلم (الإمام) وليس فيمن حوله من يدعوه بأكثر من

عبدالعزيز· وقد يتجمل بعضهم فيقول: يا طويل العمر· إصغاء إلى كل حرف ينطق به· لا هتاف ولا تصفيق، ولا صياح ولا زعيق·

لم تنحصر مواقفه (الخطابية) هذه في نجد، بل رآها بعض أبناء الأقطار الأخرى من بلاده، وكثيرا ما كان يتحول إلى (الخطابة) بمعناه الصحيح، وهو في إحدى خطبه (العادية) إذا استفزه في خلالها أو قبيل شروعه فيها، قول أو حدث يستثيره، وإذا كان في الخطباء من يدركه العثار حين يستثار فالملك عبدالعزيز كان أبين ما تراه حين يجد الجد ويُقتدح الزند·

قال (كنث وليمز): مواهب ابن سعود الخطابية عظيمة، بل هي من عوامل احتفاظه بعرشه، يُظهر مقدرة عجيبة في أحاديثه العامة والخاصة، وهو إذا تكلم تدفق كالسيل· يحب التحليل ورد الشيء إلى أصله، شديد الولع بتشريح المواضيع تشريحا يدل علي ذكاء وفطنة ولباقة· يخاطب البدوي بلهجة البدوي، والحضري بلهجة الحضري، وما استمع إليه أجنبي إلا خرج مفتونا بحديثه·

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كانت له أيضا خطب وتصريحات، رسمية أو شبه رسمية· كان يملي (الفكرة) فيها، على بعض كتّابه، فتصاغ الصياغة الأنيقة، ولا يلقيها هو، وإنما يتلوها بالنيابة عنه أحد مستشاريه أو وزرائه، ولا يكون عبدالعزيز هو المتكلم، إلا إذا تحدث، أو ارتجل واستُثير·

*****

قال جلالته في الخطاب الذي ألقاه في الحفل الذي أقيم في القصر الملكي بمكة المكرمة في غرة ذي الحجة ١٣٤٧هـ/١١ مايو ١٩٢٩م

يسموننا بالوهابين ويسمون مذهبنا الوهابي باعتبار أنه مذهب خاص، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها أهل الأغراض.

نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة، ولم يأت محمد بن عبدالوهاب بالجديد، فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسُنة رسوله، وما كان عليه السلف الصالح.

نحن نحترم الأئمة الأربعة، ولا فرق عندنا بين مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة، كلهم محترمون لفي نظرنا.

هذه هي العقيدة التي قام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب يدعو إليها، وهذه هي عقيدتنا، وهي عقيدة مبنية على توحيد الله عز وجل خالصة من كل شائبة منزهة من كل بدعة، فعقيدة التوحيد هذه هي التي ندعو إليها، وهي التي تنجينا مما نحن فيه من محن وأوصاب.

أما (التجديد) الذي يحاول البعض إغراء الناس به بدعوى أنه ينجينا من آلامنا فلا يوصل إلى غاية، ولا يدنينا من السعادة الأخروية. إن المسلمين في خير ما داموا على كتاب الله وسُنة رسوله، وما هم ببالغين سعادة الدارين إلا بكلمة التوحيد الخالصة.

إننا لا نبغي (التجديد) الذي يفقدنا ديننا وعقيدتنا.. إننا نبغي مرضاة الله عز وجل، ومن عمل ابتغاء مرضاة الله فهو حسبه، وهو ناصره، فالمسلمون لا تعوزهم التجديد وإنما تعوزهم العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح، ولقد ابتعدوا عن العمل بما جاء في كتاب الله وسُنة رسوله، فانغمسوا في حمأة الشرور والآثام فخذلهم الله جل شأنه ووصلوا إلى ما هم عليه من ذل وهوان،

ولو كانوا متمسكين بكتاب الله وسُنة رسوله لما أصابهم من محن وآثام، ولما أضاعوا عزهم وفخارهم.

لقد كنت لا شيء.. وأصبحت اليوم وقد استوليت على بلاد شاسعة يحدها شمالا العراق وبر الشام، وجنوبا اليمن، وغربا البحر الأحمر، وشرقا الخليج. لقد فتحت هذه البلاد ولم يكن عندي من الاعتاد سوى قوة الإيمان وقوة التوحيد، ومن العدد غير التمسك بكتاب الله وسُنة رسوله، فنصرني الله نصرا عزيزا.

لقد خرجت وأنا لا أملك شيئا من حطام الدنيا ومن القوة البشرية وقد تألب الأعداء عليّ، ولكن بفضل الله وقوته تغلبت على أعدائي وفتحت كل هذه البلاد.

إن المسلمين متفرقون اليوم طرائق بسبب إهمالهم العمل بكتاب الله وسُنة رسوله، ومن خطل الرأي الذهاب إلى أن الأجانب هم سبب هذه التفرقة وهذه المصائب.. إن سبب بلايانا من أنفسنا لا من الأجانب. يأتي أجنبي إلى بلد ما فيه مئات الألوف بل الملايين من المسلمين، فيعمل عمله بمفرده، فهل يعقل أن فردا بمقدوره أن يؤثر على ملايين من الناس إذا لم يكن له من هذه الملايين أعوان يساعدونه، ويمدونه بآرائهم وأعمالهم؟

كلا ثم كلا.. فهؤلاء الأعوان هم سبب بليتنا ومصيبتنا.. أجل إن هؤلاء الأعوان هم أعداء الله وأعداء أنفسهم.

إذن فاللوم واقع على المسلمين وحدهم لا على الأجانب.. إن البناء المتين لا يوثر فيه شيء مهما حاول الهدامون هدمه إذا لم تحدث فيه ثغرة تدخل فيها المعاول، وكذلك المسلمون لو كانوا متفقين لما كان في مقدور أحد خرق صفوفهم وتمزيق كلمتهم.

في بلاد العرب والإسلام أناس يساعدون الأجنبي على الإضرار بجزيرة العرب والإسلام وضربها في الصميم، وإلحاق الأذى بنا.. ولكن لن يتم لهم ذلك إن شاء الله وفينا عرق ينبض.

أجل.. إن المسلمين هم مصدر البلاء الذي أصابهم، وأكثر ذلك يأتي عن طريق أولئك الذين ينظرون إلى مصالحهم الخاصة ومنافعهم الذاتية. فيدوسون في سبيلها على كل شيء يعترضهم في الطريق.. إن هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة وينامون على الوثير من الفراش لا يفكرون إلا في أنفسهم، ولم يحسبوا لله حسابا.

إن المسلمين بخير إذا اتفقوا، وعملوا بكتاب الله وسُنة رسوله، ليتقدم المسلمون للعمل بذلك، فيتفقون فيما بينهم على العمل بكتاب الله وسُنة نبيه، وبما جاء فيهما، والدعوة إلى التوحيد الخاص، فإنني حينذاك أتقدم إليهم، فأسير وإياهم جنبا إلى جنب في كل عمل يعملونه وفي كل حركة يقومون بها.. والله إنني لا أحب الملك وأبّهته، ولا أبغي إلا مرضاة الله والدعوة إلى التوحيد، ليتعاهد المسلمون فيما بينهم على التمسك بذلك، وليتفقوا فإنني أسير وقتئذ معهم لا بصفة ملك أو زعيم أو أمير بل بصفة خادم.. أسير معهم أنا وأسرتي وجيشي وبنو قومي. والله على ما أقول شهيد وهو خير الشاهدين.(أم القرى – ذو الحجة ١٣٤٧هـ – مايو ١٩٢٩م)

وقال جلالته في الجلسة الافتتاحية لمجلس الشورى في ٧ ربيع الأول ١٣٤٩هـ - ١ أغسطس ١٩٣٠ميا حضرات الأعضاء

إني لأحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على محمد وآله وصحبه، وأستفتح بالذي هو خير.. وبعد..

فإني أفتتح باسم الله مجلسكم الكريم في دورته الجديدة راجيا من الله تعالى أن يلهمكم الصواب في جميع قراراتكم وآرائكم.. إني أذكر بسرور الجهود التي كانت من المجلس السالف، وما صدر عنه من نظم وقرارات كان رائدها - ولله الحمد - المصلحة العامة وتوخي الفائدة للبلاد.

إن أمامكم اليوم أعمالا كثيرة من موازنة لدوائر الحكومة ونظم من أجل مشاريع عامة تتطلب جهودا أكثر من جهود العام السابق، وإن الأمة تنتظر منكم ما هو المأمول منكم من الهمة وعدم إضاعة الوقت الثمين إلا بما فيه فائدة البلاد المقدسة.

لقد أمرت ألا يسن نظام في البلاد وجري العمل به قبل أن يعرض على مجلسكم من قبل النيابة العامة، وتنقحوه بمنتهى حرية الرأي على الشكل الذي يكون منه الفائدة لهذه البلاد وقاصديها من حجاج بيت الله الحرام.

وإنكم تعلمون أن أساس أحكامنا ونظمنا هو الشرع الإسلامي، وأنتم في تلك الدائرة أحرار في سن كل نظام وإقرار العمل الذي ترونه موافقا لصالح البلاد على شرط ألا يكون مخالفا للشريعة الإسلامية؛ لأن العمل الذي يخالف الشرع لن يكون مفيدا لأحد، الضرر كل الضرر هو السير على غير الأساس الذي جاء به نبينا محمد (ﷺ) ولا أحتاج في هذا الموقف بأن أذكركم بأن هذا البلد المقدس يتطلب النظر فيما يحفظ حقوق أهله، وما يؤمن الراحة لحجاج بيت الله الحرام؛ ولذلك فإنكم تتحملون مسؤولية عظيمة إزاء ما يعرض عليكم من

النظم والمشاريع سواء كانت تتعلق بالبلاد أو بوفود الحجاج من حيث اتخاذ النظم التي تحفظ راحتهم واطمئنانهم في هذا البلد المقدس·وإني أسأل الله لكم التوفيق في سائر أعمالكم

(أم القرى – ٩ ربيع الأول – ٣ أغسطس 1930م)

وقال جلالته لدى استقباله لخريجي المعهد السعودي في أوائل صفر سنة ١٣٥٠هـ/ يونيه ١٩٣١مأيها الأبناء

إنكم أول ثمرة من غرسنا الذي غرسناه بالمعهد فاعرفوا قدر ما تلقيتموه من العلم، واعلموا أن العلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر، وأن العلم كما يكون عونا لصاحبه يكون عونا عليه·

فمن عمل به يكون عونا له، ومن لم يعمل به يكون عونا عليه، وليس من يعلم كمن لا يعلم، قليل من العلم يبارك فيه خير من كثير لا يبارك فيه والبركة في العمل·

ومن الناس – وكثير ما هم – من يعجب قوله فيأخذ بالسامع بزخرف القول إلى حد بعيد، ويأتي في حديثه بأساليب تسحر، مصوغة في قالب يبهر العقول، وفي الجرائد اليومية والمجلات الشهرية شيء كثير من ذلك، وفي الصحف السيارة ما يصور للقارئ أن قسما من الناس قطع في مضمار العلوم، لا سيما الكونية منها شوطا بعيدا، لو حاولتم الوصول إليه في عشرات السنين لما وصلتم نصف المرحلة التي قطعوها، ولكن ماذا كان وراء هذا العلم الوفير؟ لا نرى إلا أحزابا يضرب بعضها بعضا، ولا نسمع إلا عويلا يصم الآذان، وهم بيد غيرهم كفتا ميزان يعلي هذا تارة، ويسفل هذه تارة أخرى· علم ولكن بالأقوال وعمل ولكن في غير النافع، وأن ما أصاب هؤلاء هو من جراء تخاذلهم

وعدولهم عن الصراط المستقيم الذي شرحه الله تعالى في كتابه وعلى لسان صفوة خلقه (ﷺ).

جهلوا تعاليم الإسلام الحقة، وبهرتهم المدنية الغربية، فنظروا إلى كل ما يصدر عن الغرب نظرة إكبار، فأرادوا محاكاته، وحبذا لو حاكوه فيما يعلي من شأنهم، أرادوا محاكاته – بل حاكوه فعلا – ولكن فيما يئن منه عقلاؤهم.

بعث صفوة الخق – اللهم صلي وسلم عليه – من العرب، ونزل عليه أمين السماء في بلاد العرب بقرآن عربي غير ذي عوج، فلنعرف ذلك، ولنحتفظ بديننا ولغتنا وبلادنا ولنحبها حبا جما.

لا مانع من أن نأخذ من غيرنا المفيد، فالحكمة ضالة المؤمن، يلتقطها حيث وجدها، وقد كان للعرب في جاهليتها خصال حميدة، وكان لغيرهم أيضا، فجاء الإسلام فأقرها.قال صفوة الخلق (ﷺ) «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقال: «ولدت في زمن الملك العادل» حافظوا على تعاليم دينكم، ولا شك أنكم قرأتم – ولله الحمد والمنة – شيئا كثيرا منها أرجو من الله أن ينفعنا وإياكم به، وأقول لكم: والله ثم والله ثم والله ما حرمت الشريعة شيئا فيه نفعنا، ولا أحلت شيئا فيه ضرنا، وإن النظرة السليمة لتدرك ذلك.

اعلموا أن الناس لو كانوا جميعا على قلب أكفر رجل لما ضروا الله شيئا، إن الله لغني عن العالمين.

انظروا إلى نعم الله.. هل فاضل في أحكامه بين غني وفقير، فأوجب على الثاني الصلاة – مثلا – وترك الأول؟ وهل أباح للأول ما حرمه على الثاني من المسكرات مثلا؟.. لا.. لا تفاضل إلا بالتقوى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»، «كلكم لآدم وآدم من تراب» سوى بينكم

وأكبر من شأنكم فأمر ألا تعبدوا إلا واحدا، ولا تخافوا إلا واحدا وتسألوا إلا واحدا، ومعلوم أن أرباب النفوس العالية إذا كان لها عند ملك من الملوك حاجة تحب أن تدلي بحاجتها إلى الملك بلا واسطة، والله يأمر عباده أن يسألوه بلا واسطة، ولا شك في أن هذا، أي عدم الواسطة، تكريم لك أيها الإنسان·أبنائي·· لقد منّ الله عليكم وأرشدكم إلى طريق الخير، فاعملوا إنا لمنتظرون·· والله ولي التوفيق·(أم القرى ٦ صفر ١٣٥٠هـ - ١١ يونيو ١٩٣١م)

****

وقال جلالته في الحفل التكريمي الذي أقيم على شرفه بمناسبة سفره إلى الرياض (١٣٥٥هـ - ٢٤ أبريل ١٩٣٦م):

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

الحمد لله الذي رزقنا خير الأعمال، وخير القوة، وخير المنازل فهي هذه البقعة المقدسة·· وهذا كله من منّة الله علينا، فنسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإخواننا لما يحبه ويرضاه، ويجعل أفعالنا موافقة لما جاء في كتاب الله وسُنة رسوله (ﷺ)·

والحقيقة أن كل ما أبداه الخطباء فهو أمر واقع، وكما قيل:

(القلوب شواهد) ويعلم الله أن فرقتنا لهذه البقعة المقدسة وهذا الشعب المخلص أمر نأسف له أعظم الأسف·· أعظم من أسف الشعب·· ولكننا نرحل في صلاح الدين والدنيا، ونسعى من أجل مصالح المسلمين والعرب..

إن ارتحالنا ليس لبلد دون بلد، ولا لشعب دون شعب، ولا لشخص دون شخص، إنما هو للمصلحة العامة التي نبذل في سبيلها النفس والنفيس...

إن هذا الشعب عظيم من وجوه كثيرة.. أهمها جوارهم بيت الله الحرام وحبهم لنا. والذي أوصى به هذا الشعب هو الاعتصام بحبل الله تعالى كما قال تعالى:

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) (الآية ١٠٣ آل عمران).

كما أوصى بالتناصح.. فإن الدين النصيحة.. والنصيحة واجبة للبار والفاجر، والغنى والفقير، لا نفر دون آخر، ولا لشعب دون غيره إن النصيحة واجبة للعالم أجمع.

إن على الشعب واجبات وعلى ولاة الأمور واجبات.. أما واجبات الشعب فهي الاستقامة، ومراعاة ما يرضي الله ورسوله ويصلح حالهم والتآلف والتآزر مع حكومتهم للعمل فيما فيه رقي بلادهم وأمتهم.

إن خدمة الشعب واجبة علينا، لهذا فنحن نخدمه بعيوننا وقلوبنا ونرى أن من لا يخدم شعبه ويخلص له فهو ناقص.

شعبنا العرب، فنحن من العرب وإليهم، وخدمة الإسلام والعرب واجبة علينا بصفة عامة، وخدمة شعبنا وأمتنا واجبة علينا بصفة خاصة ولابد أنكم سمعتم أننا ألزمنا ولاة الأمور بالنظر في شئون الرعية وجعلناها أمانة في أعناقهم، فعليهم أن يقوموا بالواجب والنصح للشعب، وأن يجتهدوا في تخليص ما عليهم من حقوق وما لهم من واجبات.

أما واجبات الولاة.. ولاة الأمور.. فهي أن يقوموا بالواجب عليهم نحو شعبهم وينصحوهم ويخدموهم ويقوموا بكل ما فيه مصلحة المسلمين وفائدتهم..

وإن أكبر أمانة وأعظمها في عنق المحاكم الشرعية.. فعليهم النظر في شؤون العباد بما شرع الله لنا في كتابه من شرائع، وبين لنا من حجج، وأقام

لنا من محجة، قال تعالى ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ **(آية ٤١ الحج).. وقال** ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ **(آية ٤٥ المائدة)..** ·· وقال: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ **(آية ٦٥ النساء).**

هذه هي الحقيقة، لأن شريعة الله لا ظلم فيها، وهي المحجة، من اعتصم بها نجا، ومن شذ عنها هلك·

فيجب على ولاة الشريعة أن يجتهدوا في أداء الواجب ويسهروا على مصالح الناس وينظروا في خصوماتهم بروح العدل والإنصاف، وعلى الشعب أن يمتثل لأمر الله فمن حكم له فيحمد الله، ومن حكم عليه حمده، الأول يحمده لأخذه حقه، والثاني يحمده لأنه عصمه من أخذ حق غيره·

وأوصى الشعب أن يقلل من الخصومات والمنافسات، لأن الخصومات والمنافسات تؤذي الحكومة والمحاكم الشرعية وكثرتها توجد اختلافا في صفوف الأمة، وإن إنسانا تكثر مطالبه ومرافعاته وإزعاج حكامه وعلمائه لا لحق بيّن وإنما لأن به نزعة من نزعات الشيطان، والشيطان يسعى للتفرقة، فعلينا ألا نساعده ولا نتركه يفرق بين المسلمين·· إن من الناس من يصيح أنا مظلوم وإذا بحثت ظلامته التي يدعيها لا تجد فيها من الحق شيئا، لهذا أوصيكم بالتناصح فيما بينكم ونهي أمثال هذا عن ذلك·

وأوصيكم بالتحاب.. فإنكم جيران بيت الله الحرام، وبلادكم هذه تتضاعف فيها الحسنات كما تتضاعف فيها السيئات، وإن كان إنسان فيكم في خاطره شيء يبينه لحكومته، وحكومته لا تتأخر عن سماع ما عنده فإن بابي مفتوح لكل واحد.

نرجو الله أن يجعل اجتماعنا في طاعته ومحبته، ويقصر مدة فراقنا، ثم يجمعنا عن قريب في أسر الأحوال.. كما نسأله تعالى أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، ويؤلف بين قلوب المسلمين، ويوحد كلمتهم إنه سميع مجيب.

(أم القرى - ٨ صفر ١٣٥٥هـ - أبريل ١٩٣٦م)

وقال جلالته في الخطاب الذي ألقاه في المأدبة التي أقامها لكبار الحجاج في مكة المكرمة في ٩ ذي الحجة ١٣٦٤هـ - ١٥ نوفمبر ١٩٤٥م

إننا معشر المسلمين يجب علينا أن نعتصم بحبل الله تعالى، وأن نتمسك بسُنة نبيه محمد (ﷺ)، ونتبع هداه، ونعمل بأوامر الله تعالى، ونتتهي بنواهيه.

إن كلاما لا يتبعه فعل فهو باطل، ولا صلاح للمسلمين إلا باتحادهم واتفاق الكلمة على توحيد ربهم.. والدين يأمرنا بالتمسك بشريعة الله والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. كما قال تعالى في محكم تنزيله. وأن نعرف ربنا حق المعرفة ونستعين به على استجابة دعاء الرسول لنا.

نحن لا نخشى إلا من ذنوبنا، ويجب على المسلمين أن يعتصموا بالله ويتخذوا الإسلام دينا، ففي ذلك صلاح دنياهم واستقامة أمورهم.

إن مسألة فلسطين هي أهم ما يشغل أفكار المسلمين والعرب في هذه الأيام، وهي المسألة التي يجب أن تكون موضع عناية الجميع ومدار اهتمامهم، ومع أنني لا أحب كثرة الكلام، وأفضل علي الدعاية العمل الصامت المثمر، فإنني أقول بصراحة: إن السكوت عن قضية فلسطين لا يوافق المصلحة، وقد سبق

لـي أن تكلمت مع أركان الحكومـة البريطانيـة كما تحدثت مطولا مع الرئيس روزفلـت، وذكـرت بكـل صـراحة الحيـف الـذي أصـاب إخواننـا عـرب فلسـطين والإعنـات والقهر اللـذين خضـعوا لـهمـا، وطالبـت وطلبـت مـن الـرئيس الراحـل إنصاف عرب فلسطين إن لم يكن المساعدات الفعلية فعلى الأقل بالوقوف على الحياد وعدم مساعدة اليهود عليهم، لأنه ما من شك في أن الحركة الصهيونية تجند الأنصار والأتباع بالدعايات الواسعة في كل بلاد العالم بينما العرب ليس مـن يعضـدهم إلا الله، ثـم حقـوقهم الصـريحة فـي أوطـانهم، وأن الحـق والعـدل والإنصاف يقضي بعدم إعانة اليهود على العرب، وأنا لا أخشى اليهود لأن الله سبحانه وتعالى قد ضرب عليهم الذلـة والمسكنة إلـى يـوم القيامـة، فـإذا كنـا متمسكين بمعتقدنا عاملين بـأوامر ديننـا بـإذن الله لا نخشـى اليهـود ولا نبـالي بـهم؛ لأن الله معنا، وهو ناصر دينه ومعلي كلمته إن شاء الله.

إن الصـهيونيين بـاذلون أقصـى مـا عنـدهم مـن جهـود للتـأثير علـى الحكومـة البريطانيـة والرأي العام البريطاني لتبديل السياسة البريطانية بما يوافق منافعهم ومطامعهم، وهم لـم يستنكفوا – ولا يستنكفون – عن مقابلـة إحسان الانجليز الـذين أحسـنوا إلـيهم وسـاعدوهم فـي فلسـطين بالإسـاءة، فضـربوا بـذلك المثـل الصريح على نكرانهم للجميل ونسيانهم للأيادي البيضاء، وقد أصبحوا يهددون الانجليز من غير تورع ولا وجل ولذا فإننـا نعتقد أن البريطـانيين يـدركون الآن تمام الإدراك المخـاطر التـي تنطوي عليها سياسـة مجـاراة اليهـود فـي مطـامعهم السياسية الواسعة.

فإن وجدنا أن العدل والإنصاف قد ضمنا، وأن حقوق الـوطنيين فـي بلادهم التـي لا ينـازعهم فيهـا منـازع ولا يشـاركهم فيهـا أحـد فهـذا هـو أملنـا، وإن كـان الأمر غير ذلك فالواجب علينا ألا نجشم أنفسنا عناء قتال اليهود: لأننا لا نراهم

أهلا لأن يقاتلونا إن شاء الله· ولا هم أكفاء لنا، ولكن المسألة – بطبيعة الحال – إنما هي بيننا وبين بريطانيا، والمهم أننا إذا وثقنا بربنا وبما ضمنه لهذا النبي الكريم ولأمته بالنصر عليهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله أن يظهر ذلك عاجلا وآجلا·

وإنني أوصي الجميع بالرجوع إلى الله تعالى فهو القادر على كل شيء، وهو الذي بيده كل شيء، ويجب أن نتمسك بديننا وبما جاء به كتاب الله تعالى وشريعة نبينا (ﷺ)، وهذا ما أوصي به نفسي وأوصيكم به·

وأسأل الله تعالى أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، ويعز الإسلام وينصر المسلمين، ويؤيدهم بروح من عنده، إنه سميع مجيب.

(أم القرى – ١١ ذي الحجة ١٣٦٤هـ – ١٧ نوفمبر ١٩٤٥م)

ومن أقوال الملك عبدالعزيز

* إنني والله لا أحب إلا من أحب الله خالصا من الشرك والبدع، وأنا والله لا أعمل إلا لأجل ذلك، ولا يهمني أن أكون ملكا أو فقيرا.

* والله ثم والله إني لأفضل أن أكون على رأس جبل، آكل من عشب الأرض وأعبد الله وحده، من أن أكون ملكا على سائر الدنيا وما فيها.

* إنني أفخر بكل من يخدم الإسلام ويخدم المسلين وأعتز بهم بل أخدمهم وأساعدهم وأؤيدهم، إنني أمقت كل من يحاول الدس على الدين وعلى المسلمين ولو كان من أسمى الناس مقاما وأعلاهم مكانة.

* إنني أدعو المسلمين جميعا إلى عبادة الله وحده والرجوع للعمل بما كان عليه السلف الصالح، لأنه لا نجاة للمسلمين إلا بهذا، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا إلى ما يحبه ويرضاه.

* إن المسلمين لا يرقون ولا ينهضون بالبهرجة والزخارف، إن سبيل رقي المسلمين هو التوحيد الخالص والخروج من أسر البدع والضلالات والاعتصام بما جاء في كتاب الله على لسان رسوله الكريم.

* إن الإسلام هو الوسيلة لسعادة الدنيا والآخرة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، فلم يمنع الإسلام الناس من السعي في الأرض والعمل على كل ما يرفع شأن الملة.

* إن تقدم المسلمين ونهوضهم هو من الأمور التي ما برحنا ندعو إليها إن شاء الله، ولا نهوض للمسلمين بغير الرجوع إلى دينهم والتمسك بعقيدتهم الصحيحة، والاعتصام بحبل الله، والطريق إلى ذلك واضح معبّد لمن أراد سلوكه

وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالتوحيد الخالي من الشرك والبدع، والعمل بما يأمرنا به الدين لأنه لا فائدة من قول بلا عمل.

* والله ثم والله: إن العجوز القابعة في وكرها والتي لا تملك من الثياب إلا الأطمار البالية وهي تعبد الله وحده عبادة خالصة، لهي أحب إلى قلبي من أي إنسان بلغ من العظمة والشأن ما بلغ، إذا كان لا يؤمن بالله إيمانا صادقا خالصا ولا يعمل بما جاء في كتاب الله.

* أنا لست من رجال القول الذين يرمون اللفظ بغير حساب، فأنا رجل عملي إذا قلت فعلت، وعيب علي في ديني وشرفي أن أقول قولا لا أتبعه بالعمل لأن هذا شيء ما اعتدت عليه ولا أحب أن أتعوده أبدا. فإذا كان الذي بيني وبين الله عامرا، فعسى الذي بيني وبين العالمين خرابا.

* يجب على كل إنسان أن يقول ما في ضميره بصراحة تامة، وأن لا يخشى في الحق لومة لائم، ويجب أن يصرح كل فرد بما يعتقد فيه المنفعة لأن مجال البحث والتوفيق والتمحيص يوصل إلى خير النتائج وأحسنها، فعلى الإنسان الاجتهاد ومن الله التوفيق.

* الناس في رأيي ثلاثة، واحد منهم من أهل الحق، وهذا أساويه بنفسي وأفديه بها، وثانيهم من أهل الخير والشر، وهذا أدعو له بأن الله يعلي خيره على شره، ويكفينا شره، والثالث من أهل الشر والعياذ بالله، وهذا أسأل الله له الهداية وأن يجنبه وغيره شر نفسه ويرشده إلى الصواب.

* اثنتان أحمد الله على واحدة منهما وأشكره على الأخرى، أحمد الله على أني أكره أهل الضلال وعلى كراهة أهل الضلال لي، وأشكره على محبة أهل الخير لي ومحبتي لهم.

* قوام الخُلُق في هذه الدنيا الصدق، وكل حياة لا ترتكز على الصدق ليس لها قيمة قط، لأن الصدق يثيب الإنسان في حالتي الدنيا والآخرة.

* إن صاحب الجلالة الملك يعلن للناس كافة، أن من كانت له ظلامة على كائن من كان موظفا أو غيره، كبيرا أو صغيرا، ثم يخفي ظلامته، فإنما إثمه على نفسه، وأن من كانت له شكاية فقد وُضع على باب دار الحكومة صندوق للشكايات مفتاحه لدى جلالة الملك، فليضع صاحب الشكاية شكواه في ذلك الصندوق وليثق الجميع أنه لا يمكن أن يلحق المشتكي أي أذي بسبب شكايته المحقة من أي موظف كان.

(من بلاغ رسمي أصدره الديوان العالي – في ٢٩ ذي الحجة ١٣٤٧هـ)

* أوصيكم بتقوى الله في جميع أعمالكم، وأوصي الجميع بالتقوى، كل يجب أن يتقي الله في عمله؛ التاجر في تجارته، والصانع في صنعته، والموظف في وظيفته، أسمع خطباءكم يقولون: هذا إمام عادل، وهذا كذا. فكل رجل مهما بلغ من المنازل العليا إذا لم يكن يخشى الله ويطلب مرضاته فلا أثر له ولا لعمله. فمتى تُركت الشهوات، وهُجرت المحرمات، وعبدنا الله على بصيرة، لاقينا الخير كله.

إن التمدن الذي فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا فمرحبا به وأهلا. وأما التمدن الذي يؤذينا في أدياننا وأعراضنا وشرفنا، فوالله لو قُطعت منا الرقاب، وذهبت فيه العيلات، لن نرضخ له ولن نعمل به.

(من خطابه بعد مبايعة أهل الحجاز له – في ٣٠ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ ١٥ يناير ١٩٢٦م)

* إنني أرى من واجبي ترقية جزيرة العرب والأخذ بالأسباب التي تجعلها في مصاف البلاد الناهضة مع الاعتصام بحبل الدين الحنيف.

إنني خادم في هذه البلاد العربية لنصرة هذا الدين، وخادم للرعية. إن الملك لله وحده، وما نحن إلا خدم لرعايانا. فإذا لم ننصف ضعيفهم، ونأخذ على يد ظالمهم، وننصح لهم، ونسهر على مصالحهم، كنا قد خُنّا الأمانة المودعة إلينا، إننا لا تهمنا الأسماء ولا الألقاب وإنما يهمنا القيام بحق واجب كلمة التوحيد، والنظر في الأمور التي توفر الراحة والاطمئنان لرعايانا.

(من خطبة له في المدينة المنورة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨م)

* يقولون الحرية، ويدّعي البعض أنها من وضع الأوروبيين والحقيقة أن القرآن الكريم قد جاء بالحرية التامة الكافلة لحقوق الناس جميعا، وجاء بالإخاء والمساواة المطلقة التي لم تحلم بها أمة من الأمم، فآخي بين الصغير والكبير، والقوي والضعيف، والغنى والفقير، وساوى بينهم

(من خطاب ألقاه في حفل أقامته أمانة العاصمة في مكة المكرمة على شرفه - غرة ذي الحجة ١٣٤٨هـ - ٣٠ أبريل ١٩٣٠م)

* يجب أن يصرح كل فرد بما في نفسه ويقول ما يعتقد فيه منفعة، فهذا أمر واجب على كل إنسان، لأن مجال البحث والتدقيق يوصل إلى نتائج حسنة، فعلى الإنسان الاجتهاد ومن الله التوفيق.

(في افتتاح جلسات المؤتمر الوطني بمنى - ١٥ محرم ١٣٥٠هـ - ٢ يونيو ١٩٣١م)

* مسألتان لا يمكن أن نقبلهما، ولو قاتلنا أهل الأرض حتى لا يبقى فينا أحد، وهما: التغيير في دين الله ولو مثقال خردلة، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فالكتاب والسُنة لا نحيد عنهما أبدا، الثانية: أن أي أمر يلحق استقلال بلادنا أو شرفها، فهذا مستحيل أن نقبله، ولو تكلم من تكلم أو قال من قال.

أنا لست من رجال القول الذين يرمون اللفظ بغير حساب، فأنا رجل عملي إذا قلت فعلت، وعيب علي في ديني وشرفي أن أقول قولا لا أتبعه بالعمل لأن هذا شيء ما اعتدت عليه ولا أحب أن أتعوده أبدا.

(من خطبة له في وفود البلاد الإسلامية في الحج نشرتها أم القرى في ٧ ذي الحجة ١٣٥٠هـ - ١٣ أبريل ١٩٣٢م)

* إني أرى كثيرا من الناس ينقمون على ابن سعود، والحقيقة ما نقموا علينا إلا لاتباعنا كتاب الله وسُنة رسوله، ومنهم من عاب علينا التمسك بالدين وعدم الأخذ بالأعمال العصرية، فأما الدين فوالله لا أغير شيئا مما أنزل الله على لسان رسول الله (ﷺ) ولا أتبع إلا ما جاء به، وليغضب علينا من شاء، وأما الأمور العصرية التي تُعيننا وتفيدنا، ويبيحها دين الإسلام، فنحن نأخذها، ونعمل بها، ونسعى في تعميمها، ولا مدنية أحسن، ولا أفضل من مدنية الإسلام.

(من خطاب ألقاه في ١٦ محرم ١٣٥١هـ)

* أكثر الناس يقولون إن الغربيين هم الذين ضربونا بالصميم ففرقوا بيننا.. هذا كلام. ماذا عمل الغربيون؟ الحق أن الضرر والخسران لم يأت إلا من أنفسنا، فنحن المسؤولون عن ذلك. نحن نسعى للتفرقة، ونحن نعمل للبغضاء. أذكر لكم مثلا بسيطا يعرفه كل واحد منكم: إن صحفنا وجرائدنا إذا تكلمت عن مسلم أو عربي تكلمت عنه بشدة وقسوة وبلاذع القول، ولكنها إذا تكلمت عن غربي، تكلمت عنه بأدب واحترام، فلماذا؟

(من خطبته في موسم حج ١٣٥٣هـ - أم القرى ٦ ذو الحجة ١٣٥٣هـ)

****

نهاية الجزء الأول